الثقافة والمثقّف *

الدّكتورة مها قنّوت
وزيرة الثقافة

صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبد العزيز
الرئيس العام لرعاية الشباب

رئيس المؤتمر

أيها الأخوة ...

أتوجه في البداية باسم وفد الجمهورية العربية السورية إلى المملكة العربية السعودية الشقيقة ملكاً وحكومة وشعباً ... بخالص التقدير، للدعوة الكريمة لعقد هذا المؤتمر

(*) كلمة السيدة الدكتورة مها قنوت، وزيرة الثقافة، في مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي (الدورة الثانية عشرة)، الرياض: ٢٥-٢٦ شعبان ١٤٢١هـ ٢١-٢٢ نوفمبر ٢٠٠٠م.

في الرياض... عاصمة الثقافة العربية، ولمنظمتنا العربية بالتحية والتقدير.

أما بعد... فأن تكون في الرياض .. فهذا يعني أنّك في أرض الديار المقدسة.. تلك التي حاكت النور أمراس إنقاذ أرسلتها إلى البشرية... تشدّها من غياهب العتمة وتخبط الجهل، يوم كان العالم تخميناً للحقيقة وإلفاً للضلال... يومها فتحت هذي الديار أوسع بوابات الثقافة والحضارة والسمو: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» .. منحة الخالق وهداه، في رسالة سماوية على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم... تنزَّل في هذه الديار.. ومنها تشعُّ إلى آخر أصقاع المعمورة. فهل ثمة تميّزٌ وهل ثمة افتخار... أن تكون الرياض عاصمة عربية للثقافة، وقد كانت عاصمة من غير ما تتويج... للثقافة والحضارة، منذ أرسلت أسمى ما تناقلته البشرية من قيم وحضارات... متمثلةً قيم وثقافة ديننا الحنيف... إنه العَوْدُ دائماً على البَدْء... بل هي الفروع التي يروق لها الحنين إلى الجذور، وكم يعذُبُ أن تتذوق حلو السلسبيل عندما تشق الدرب متعباً إلى مجراه... وعندما تردُ جاهداً عطشاً أصفى موارده.

فإذا كان الثّقاف ما تسوّى به الرماح، أو هي الآلة التي تكون مع القوّاس والرمّاح يقوّم بها الشيء المعوج. وإذا كانت الثقافة هي العمل بالسيف كما في لسان العرب فإن لنا وقفة عند ما عرّفه جدودنا من معاني الثقافة، وما حمّلوا في هذا المعنى من مهام ووظائف... ... بيد أن المسؤولين عن الثقافة في وطننا وهم المجتمعون

في مؤتمرنا هذا ... هم الكواهل التي حمّلتها الأمةُ عبء ومسؤولية ما يترتب على هذا الفهم وما يستتبع من مهام. وإذا كان محور اللقاء ما نستهدف من تصنيع ثقافي... بما هو عملية تحويل الأنشطة الثقافية ومستلزماتها إلى منتجات سلعية وخدمية، وإيصالها إلى المتلقي وفق معادلةٍ اقتصادية وفنية، ومع حرصنا على القيام بالمشروع الثقافي العربي، وبالخطة القومية لتحقيق التكامل بين السياسات الثقافية والإعلامية في الوطن العربي، مع التصور التنفيذي للعقد العربي للتنمية الثقافية، والتشريع النموذجي لتنظيم تراسل البيانات والمعلومات... مهتمين بحماية حقوق المؤلف في الوطن العربي، وبخطة النهوض بالسياحة الثقافية وبالقناة الفضائية العربية، وبحولية ثقافية عربية شاملة، يضمّ كل ذلك لغتنا العربية الثّرة الغنية ومالها علينا... فإنّ للمهمة الآن أبعاداً أخرى... كانت فيها وما تزال... مذ تغنت بها لغتنا العربية واحتواها لسان العرب... ...

إنه الزمن الصعب والواقع المرير... الذي ينسى فيه المرء مذهّبات الكعبة وقصائد دوخت الدنيا بحسن سبكها وإعجاز الصنيع... وفكراً آلف بين الجمال والخيال وبين الحكمة والشعور... حتى ليعجب العصر الحديث من عبقر عصر قديم أدهش التاريخ بتراثٍ لا يموت.

إنه الزمن الذي يتحقق فيه تعريف الثقافة بأنها العمل بالسيف... كيف لا ونحن نواجه كل يوم ألف سيف يجرّب تلوين حدّه في رقاب شبابنا، وألف أخطبوط

يعتصر الكرامة العربية... كي يخنق أصغر ما فيها من آمال... وأكبر ما فيها من سلاح... بضع حجارة تقذفها أيدي عارية إلا من أصابعها... وتحميها صدورٌ عاريةٌ إلا من الإيمان... دريئةً عن وطن وشعب وأمة، ويخترق الدريئة الرصاصُ... ... وفي وضح النهار.

ويبقى استعداد إخوتنا للموت في سبيل حريتهم... سلاحاً ما فتىء العدو يحار كيف يواجهه... ومع شدة اليأس... يغدو الموت فرجاً... وباباً للنصر لا يغلق أبداً... بيد أنّا نعود إلى ما كتبناه يوم انطلقت أول انتفاضة تزغرد فيها الحجارة زئّارةً في وجه الرصاص وقد قلنا:

مقتولٌ أنت مقتولْ
زاد في عمرِكَ بعضُ السنينْ
قلَّ من عمرك بعضُ السنين
صغيراً.... كبيراً
أنتَ مقتولْ
فكنْ... قبلَ قتلك طيراً أبابيلْ
ترميهم... بحجارةٍ من سجّيلْ
واجعلهم... كعصفٍ مأكولْ
مقتولٌ أنتَ مُقتولْ
فأوردُ قتلك ظهرَ كلٍّ من صَدَرْ
ودوِّن قتلك فوقَ كلِّ مؤتمر
في كلِّ مجتمع
في كلِّ مؤتمرٍ
كلُّ الأصابعِ... لوّحتْ

تقولُ: إنّهُ انتحرْ
وكفهُ... تقسمُ في العلا
تقولُ: إنّهُ انتصرْ

إنها مفارقة النصر لحظـة الفـراق... وشـارة الأمـل مع اقتراب الأجل.. أنشودةٌ علّمها الإسلام كلَّ المسلمين... وجسّدها المسيح لكل الحواريين... إنها الجنة بشرى لهم... وبشّر الصابرين... وبشّر المؤمنين... وبشّر.

ومـا زلنا خـيـر من يطلب السـلام... ولا ينسى كرامته... سلاماً عادلاً شاملاً... حقيقياً!! «فإن جنحوا للسلم فاجنح لها ..» هكذا علمنا كتاب الله... «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» هكذا علمنا كتاب الله أيضاً. والأقصى معلق في رقابنا... وفي فكرنا وتاريخنا والتراث... وليس منطاداً معلقاً في الهواء كما يريدون يقصفون سماءه إن ملكوها، ويفجرون أرضه لو طاعت... والهدف ألا يكون.

لكنه باق كدماء شهدائنا المعجونة بالتراب... تصدُّرُ الزيتون وزهر البرتقال... وما الأريج إلا من زكي نجيعهم.

أيها الأخوة... المسؤولون عن الثقافة العربية

معكم سنعمل على تحقيق كل بنود اجتماعاتنا... لكنني أهيب بكم أن يكون مؤتمرنا هذا... صدىً لدموع أطفالنا هناك، وصرخات نسائنا... تستنجد المعتصم العربي أنَّى يكون، وصدىً لعبق الدم الزكي... يهدر من عروق شهدائنا كل يوم... ومواجهةً حقيقة لعدو متغطرس لئيم، لا يعرف للسلام مكاناً في توسعه، ولا للعدالة حساباً في استيطانه وتورمه.

إنها وقفة لصياغة جديدة ممن يتعاملون مع الفكر والفن... كيف يتعاملون مع خنجر مغروس في خاصرة الأمة العربية ومع انتفاضة تذكّر الأيام بالأيام والحاضر بالماضي وألف شاعر يقول.

من دمشق... عاصمة الأمويين والليلك والسماح... عاصمة الصمود والوقفة التي لا تلين... نهج القائد الراحل حافظ الأسد... أحمل إليكم تحية السيد الرئيس بشار الأسد متمنياً لمؤتمركم كل التوفيق والنجاح.... وتحية شعبنا بكل مثقفيه... يتطلعون إلى توصيات لقائكم... العادي في دورته.... الاستثنائي في ظروفه... بعين ملؤها الأمل، وقلب ملؤه الرجاء... أن يكون مؤتمرنا أفضل ناطق عن ثقافة الأمة وفكرها والشعور... تواجه عدية الغزو للثقافة والفكر والشعور... «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» أرجو لمؤتمرنا غاية التوفيق....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

السببية والتفسير العلمي

تأليف: ماريو بونغ
ترجمة: معين رومية

نظر تقليدياً إلى التفسير العلمي على أنه تفسير سببي؛ وإن تفسير واقعة لم يكن يعتبر علمياً حتى يشار إلى أسبابها القريبة والبعيدة. وكافح المذهب الوضعي ضد هذه المطابقة الخاطئة، التي اعتمدت على الهوية المفترضة ما بين السبب والعقل. لكن كفاح المذهب الوضعي ضد التفسير السببي لم يكن على أرضية أن مجال السببية

(*) معين رومية: باحث من سورية، مهندس مدني، مدرس في كلية الهندسة المدنية بجامعة تشرين.

محدود، بل على أســـاس رفض أي نوع مـــن التفـــسير والاســـتعاضة عنه بالوصف.

القضية التي سندافع عنها هنا، ليست الرأي التقليدي ولاالوضعي، بل قضية ثالثة، أعني مايلي: إن الإجابة عن أسئلة «لماذا» لاتحتاج أن تكون سببية كي تكون علمية، على الرغم من أن التفسير السببي يشكل جزءاً هاماً من التفسير العلمي في حالات كثيرة. إضافة إلى ذلك، سنلقي نظرة فاحصة على بعض نماذج التفسير التي تستخدم في العلم. ولكن قبل أن نحاول ذلك، نعالج السؤال حول الوظيفة التفسيرية للعلم وهل هي واجبة إطلاقاً.

١- هل العلم تفسيري؟

من المفيد أن نستعيد باختصار قصة الهجوم على سعي المذهب العقلي إلى التفسير الشامل، خصوصاً لأن هذا الهجوم بعيد عن أن يكون ساذجاً، وهو مرتبط بالهجوم على السببية من وجهة نظر رجعية. لقد ألقيت ظلال الشك على الوظيفة التفسيرية للعلم من قبل فريقين متعارضين. من جهة، الكتاب الدينيون الذين تبنوا الرأي القائل بأن المعرفة العلمية لاتمتلك القدرة على الوصول إلى الأسباب الأولى أو القصوى للأشياء، لذلك فهي عقيمة. واعتبر الشكاك واللاأدريون والوضعيون الأوائل من جهتهم أن التأملات حول الأسباب المتعالية والقصوى عقيمة أيضاً، لأنهم اعتقدوا أن كامل الحقيقة هي ما يظهر لنا أو لأنهم اعتبروا أن بلوغ جوهر الأشياء غير ممكـن، أو أخيراً، لأنهم بالانسجام مع بدء حقبة الصناعة تبنوا مفهوماً أداتياً للعلم اعتبروا على أساسه أن لانفع في البحث عن الأسباب القصوى. إن الخاصية «الوضعية» للعلم كما تكشفت بشكل متطرف، تحجب وتجعل بلا نفع تأملات المدرسيين في القرون الوسطى والفلاسفة الطبيعيين اللاحقين لهم (من عصر النهضة إلى أيامنا). وتعتمد بدلاً من ذلك على الوصف الدقيق والتنبؤ. إن البحث عن أجوبة على أسئلة «لماذا» اعتبر مشروعاً مســـتحيلاً

أو على الأقل بلا فائدة واستبعد بشكل واضح من قبل الاتجاهات المتعددة لمذهب الظواهر. إن مهمة البحث العلمي -تبعاً لمذهب الظواهر- هي وصف كيف يظهر لنا حدوث الأشياء وليس لماذا تحدث الأشياء هكذا وليس بشكل آخر. لقد رفض كونت -تبعاً لهذه القاعدة- النظرية الموجية للضوء التي كانت إبداعاً علمياً تدشينياً لعصر جديد، وذلك لمجرد أنها تقدم تفسيراً للظاهرة البصرية (بلغة أدق، تفسيراً لقوانين الهندسة الضوئية بواسطة قوانين مستوى أعلى).

ليس ثمة اتجاه وحيد لمذهب الظواهر، أو على الأقل هدف وحيد يغذيه، لذلك فإن فرانسوا سانشيز كان ممثلاً متقدماً لمذهب الظواهر واللاأدرية بلغة المذهب الاعتقادي والجوهري السكولائي. من جهة أخرى، كان بيركلي ممثلاً متأخراً لمذهب الظواهر مرتبطاً بالاعتقادية، ليس في عصر النهضة كما سانشيز بل في بدايات عصر التنوير. عند هيوم وكانط الشاب، وكونت الشاب، اختلط الهدف التقدمي لعدم الثقة بالمذهب ما فوق الطبيعي والتأمل غير العلمي للقضايا التي عالجها العلم بنجاح، مع المحاولة الرجعية لوضع حدود قبلية على منظور البحث العقلي عموماً والبحث العلمي خصوصاً. لقد حاز كونت واتباعه اسم العدميين بالتزامهم الصارم ببرنامج مذهب الظواهر الذي قيد مجال البحث العلمي وربطه بالوصف الإيجابي لما هو معطى مباشرة. هكذا، عندما ضيّق مذهب الظواهر مجال البحث العلمي واختزل وظيفة العقل ورفض الإجابة عن أكثر الأسئلة أهمية، فقد وضع نفسه -شاء أم أبى- في صف الاتجاهات الظلامية. وعقد حلفاً مؤقتاً ضد مطالب المذهب الواقعي والمذهب العقلي، ونودي بنهاية السجال بين العلم والدين، وتم تقسيم كرة الثقافة الروحية إلى قطاعات غير متداخلة. وبدا العلم في دوائر متسعة، منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع

عشر يُنظر إليه على أنه ليس معنياً بشكل جوهري بالبحث عن الحقيقة وبلوغ الفهم، بل فقط باعتباره واسطة للسيطرة على الطبيعة والإنسان، أي كمساعد على الفعل، وذلك على أساس الوصف الصرف الحيادي. وطالما تم اعتبار العلم أداة فقط وليس قيمة ثقافية، فإن البحث عن أجوبة على أسئلة «لماذا» اعتبر خارج متناول العلم.

إن المعيار البراغماتي للبحث العلمي والتقليل غير المعقول من قيمة المعرفة النظرية والناتج عن جهل مبدأ الفروض في العلم، قد فتن عقول الكثير من البارزين في نهاية القرن١٩ حتى أن **ماخ** صرّح بأنه «فقط العلاقة بين الوقائع ذات قيمة، وهذا يستنفده الوصف». وقال **دانتك** بأن أفضل «لغة» هي تلك التي تحتوي الأقل من الفرضيات وتنتج الأقل من التفسيرات. وكتب الوضعي الكاثوليكي **دوهيم** بفظاظة «أن الجزء التفسيري من العلم طفيلي». وكرر **فيتزجوالد**، التابع الألماني لـ ماخ، السجال قائلاً «ليس ثمة تفسير عدا الوصف البسيط التام». وذهب بيرسون وهو تابع بريطاني لـ ماخ، أبعد من ذلك ليقول أنه «لا يوجد أي شخص الآن يعتقد أن العلم يفسر شيئاً، إننا ننظر إليه على أنه وصف مختصر أو اقتصاد في الفكر». فيما بعد، طالب **فيتغنشتين** بأن المعيار الذي يجب اتخاذه هو التالي: «لايجب أن يكون ثمة أية اعتبارات فرضية، يجب أن نتخلص من كل أثر للتفسير، ونحلّ الوصف فقط مكانه». أنصار «اقتصاد الفكر» -المبدأ الذي وضعه **أوكام** وأعيد إحياؤه من قبل ماخ- مارسوا هذه الفكرة بشكل أوسع حتى أنهم فشلوا في ملاحظة أن الأكثر اقتصاداً في كافة الإجراءات ليس التفكير إطلاقاً. كان **وليم جيمس** من أدرك ببصيرته النافذة أن حصيلة النظرة البراغماتية هي الدفاع عن أو على الأقل التسامح مع التجربة الدينية إلى جانب كافة أنواع التجارب الأخرى.

على الرغم من صفوف التابعين للمذهب الوضعي الذين مازالوا يعتقدون أن التفسير العلمي ليس إلا الوصف الخالي من الفرضية والتأويل، إلا أن الوظيفة التفسيرية للعلم قد أصبحت واضحة جداً مع التطور السريع للعلم النظري، حتى أن أكثر الفلاسفة الوضعيين الجدد المميزون وذوي العقول المنفتحة قد توجهوا حديثاً للاعتراف بأنه كان من الخطأ تبني نزعة عملية مفرطة تستتبع بالضرورة معياراً جذرياً ضد النظرية واعتباراً للتفسير على أنه لباس ميتافيزيقي غير ملائم. لكن هؤلاء التجريبيين المنطقيين الذين يقرّون بشرعية التفسير، يحصرون عادة المشكلة الفلسفية للتفسير العلمي في بنية العلم المنطقية، مهملين كلياً الجوانب الابستمولوجية والأنطولوجية التي يتمتع بها، مثل كل سؤال فلسفي آخر.

٢- بعض مظاهر مشكلة التفسير العلمي:

٢-١- شروط على التفسير كي يكون علمياً:

يهدف التفسير العلمي إلى تمثل الوقائع عقلياً، أي إلى تعقيل الواقع، ليس طبعاً بالمعنى النفسي للتعقيل، لكن من الواضح أنه ليس كل تفسير يسمح به المعنى الفضفاض للعقل يكون علمياً، بل فقط الأفكار العامة ذات المعنى والقابلة للتحقيق يمكن ضمها إلى التفسير العلمي غير الزائف. إن الفروض الواقعية - أي تلك التي تشير إلى وقائع - يمكن عدّها مثبتة ومحققة ومختبرة (ليست مبرهنة بلا أي شك بل محققة ضمن هامش غامض من عدم اليقين)، إذا لبّت على الأقل المطالب التالية:

أ- الشرط المنطقي أو العقلي للاتساق، هذا يعني التوافق مع القضايا الأخرى في النظام النظري نفسه. إن المطلوب هو اتساق جزئي فقط، وليس اتساقاً مع كامل المعرفة الممكنة، لأن القضية (الفرضية) موضع البحث قد تشير إلى اكتشاف يُبطل بعض الأفكار الراسخة المعترف بصحتها. الاتساق، وهو علامة النجاح العقلي، محطة ثانوية في تقدم المعرفة التي،

كما قال سقراط مكتشفاً ذلك منذ زمن طويل، تتواصل عبر التعارض بين الأفكار المتسقة داخلياً وأنظمة الأفكار.

ب- الشرط الواقعي المادي أو التجريبي للإقناع الكافي (ليس ضرورياً ولا ممكناً أن يكون تاماً) أو كفاية الصدق في الوقائع (بعض الأحيان تسمى وقائع علمية أو وقائع تحت السيطرة التجريبية، بالتعارض مع الوقائع العمياء). نختبر كفاية الفرضيات الواقعية بالتجربة والملاحظة، لكن الكفاية لاتعتمد على قابلية التحقيق التجريبي: إن الكفاية تعتمد على الاستقلال (وإن كان غير تام) ما بين القضايا والوقائع. إن شرط الكفاية يتحقق عبر النتائج الخاصة للمبادىء (الفرضيات الأساسية) وليس عبر المبادىء ذاتها، التي قد يكون لها نظير موضوعي، لكنها لاتحتاج نظيراً تجريبياً أثناء صياغتها، وإن صفتها العامة لاتتحقق مباشرة. إن كلا من صدق الوقائع وكفاية الفروض يمكن بالطبع بلوغه وتحسينه على الرغم من عدم ثباتهما المشترك، وإن التعارض بين الأفكار والوقائع يصبح مصدراً عميقاً لتطور العلم.

على الأقل، إن بعض القضايا التفسيرية المتضمنة في أي تفسير علمي يجب أن تكون قابلة للخضوع إلى اختبار تجريبي- عبر التنبؤ أو، بشكل أفضل، عبر إعادة إنتاجها، لكن الفرضية كي تحظى بلقب «علمية» لاتحتاج للتحقيق الفوري، إن ما هو مميز للفرضية العلمية ليس الحقيقية (حيث يطلب أن تشترك بعض الفرضيات مع بعض الافتراضات الشائعة)، ولا العصمة (التي هي علامة على الدوغمائية)، ولكن الاتساق المنطقي، وقابلية التحقيق من حيث المبدأ. تعني قابلية التحقيق إمكانية التحقيق وهذا يتضمن كلا من قابلية الدحض وقابلية التحسين (تحسين الاتساق والكفاية وبالتالي توسيع مجال التطبيق).

إن الملاحظات السابقة ستكون كافية كوصف عام للتعابير العلمية الواقعية، وسأواصل الآن تقديم الخصائص الموجزة للبنية المنطقية والمضمون الأبستمولوجي للعبارات التفسيرية في العلم.

٢-٢- البنية المنطقية والمعنى الأبستمولوجي للتفسير العلمي:

تبعاً لعلم أصول الكلمات، كلمة يفسر تعني يكشف، يظهر للعيان، يتجلى للذهن تدريجياً، يتكشف. إن المذهب المعترف به حول البنية المنطقية للتفسير العلمي يتوافق مع المعنى الأصلي للكلمة، في الواقع، إن هذا المذهب يتبنى مايلي: أن تفسر واقعة، ليس أكثر من أن تبين أن القضايا التي تقررها الواقعة هي نتيجة خاصة لواحدة أو أكثر من قضايا ذات عمومية أكبر (بالارتباط مع الشروط المتعلقة بالحالة الخاصة موضع البحث). وليس ثمة حاجة لأن يتضمن التفسير العلمي مفهوم السبب.

لنرى تفسير ليوناردو دافنشي لحركة سقوط الأجسام نحو الأسفل: «كل فعل طبيعي يتم بأقصر الطرق، لذلك فإن السقوط الحر للأجسام الثقيلة يتم بالاتجاه نحو مركز العالم: لأن ذلك هو أقصر الطرق بين الجسم المتحرك وأسفل نقطة من الكون». إن القضية التفسيرية هنا هي مبدأ الحد الأدنى (المعروف من أيام العلم الهليني)، وليس بأية حال قضية سببية.

الآن، إن القضايا العامة التي تعمل كمفسِّرات أو كمقدمات منطقية في العلم، أي القضايا التفسيرية، هي عادة من النوع الخاص من الفروض التي تسمى نصوصاً قانونية.

لذلك فإن التفسير العالمي لواقعة يتوقف، من وجهة نظر المنطق، على تبيان أنها حالة خاصة لقانون عام. بدوره، التفسير العلمي للاطراد والانتظام، سيكون إذا أمكن، متوقفاً على استنتاجه من قانون مستوى أعلى، أي على اندراجه ضمن حالة ذات عمومية أكبر. لذلك، على سبيل المثال، فإن نيوتن قد بيّن أن قوانين كبلر في الحركة الكوكبية تنتج عن اتحاد قانونه حول الحركة وقانون الجاذبية المعروف بقانون التربيع العكسي، اللذين يملكان مجالاً أوسع للتطبيق من قوانين كبلر. لذلك، فمن وجهة نظر المنطق أن تفسر يعني أن تبيّن وجود لزوم أو تضمن للخاص من قبل العام.

لذلك، فإن تفسير موضوع يعني أن تبين أنه عنصر من مجموعة محددة، وأن تعلل فكرة يعني أن تبين أنها بطريقة ما متضمنة في مجموعة مسلّم بها من الافتراضات. على ذلك، وطالما أن الاستنتاج يشار إليه على أنه تكرار (غير منتج)، فإن التفسير سيعتبر أيضاً تكراراً، هذا يعني، من وجهة نظر المنطق الصوري، أن التفسير لاينتج شيئاً جديداً، لاشيء لم يكن متضمناً بطريقة ما في نظام سابق مسلّم به من الأفكار. باختصار، إن المظهر المنطقي للتفسير يكمن في البرهان.

لحسن الحظ أو لسوئه، فإن المنطق لايخبرنا كامل قصة المعرفة. إن التفسير، كما الاستنتاج عموماً، يضيف جديداً إلى المعرفة، لأنه من الناحية الفعلية، الموضوع المفسَّر لايُحتوى مسبقاً في فئته (أو في عبارة القانون)، بل يتم إدراجه من قبلنا لاحقاً. عملية التفسير ليست مجرد انتزاع لعنصر خارج مجموعة معطاة، فمن وجهة النظر الأبستمولوجية لايعتمد التفسير على مجرد مطابقة عنصر مع فئة تظهر علناً خواصها أمامنا: بل يعتمد التفسير على تضمين الموضوع المعطى (واقعة أو فكرة) في فئته. وهذه عملية تركيبية واصطناعية تتطلب تخطيطاً مسبقاً للموضوع المعطى ومقارنة له مع موضوعات أخرى، وهكذا... الآن، في مستوى المنطق الصوري، التغير لايدخل، لأن العمليات، كالعملية الأبستمولوجية المتضمنة للتفسير، ليس لها مكان في المنطق الاستنتاجي، الذي يستغني عن مفهوم الزمن ويعالج العمليات الفعلية للتفكير على أنها تجري في الحاضر السرمدي، لكي يتفادى التعارضات التي تنشأ عن التعاقب. بمعنى آخر، إن ما هو انتقال حقيقي من الجهل إلى المعرفة من وجهة نظر الأبستمولوجيا، يظهر في المنطق الصوري على أنه علاقة تحليلية صرفة. إن الاستنتاج، والتفسير خاصة، يستلزم دائماً الجدة في المعرفة، ولهذا نهتم بالقيام به. عن إهمال المظهر غير المنطقي للتفسير

والتركيز المختصر على بنيته المنطقية، كما يفعل عادة التجريبيون المعاصرون، هو كما أعتقد، تبن لوجهة نظر أحادية.

مثل كل المبالغات الأخرى للنزعة المنطقية، فإن إرجاع التفسير إلى الاستنتاج، له نتائج أبستمولوجية وانطولوجية غريبة، (في الفلسفة، كما في الحياة اليومية، إن الامتناع عن النظر إلى الوقائع لايحذفها). بالفعل، إن وجهة النظر التي ترى أن التفسير العلمي ليس أكثر من إظهار أو كشف التماثل وسط الاختلاف و التشابه في اللاتشابه واستنتاج الخاص من العام، مثل وجهة النظر هذه، تقترح ميتافيزيقا تحمل الاعتقاد الواحدي بأنه يجب أن يكون ثمة واحد أو عدة ماهيات كلية أو جواهر نهائية أو قوانين أساسية أو لغات قاعدية، يرجع إليها كل شيء في النهاية، إن وجهة النظر هذه تنتهك بسهولة الحدود بين المستويات وتقترح أيضاً النظرية الغريبة التي ترى أن تقدم المعرفة يتوقف على التوحيد التصاعدي الذي يُرجع الصور الظاهرية الكثيرة إلى صورة أخيرة مسلوبة التنوع يمكن تصورها من قبل علم موحد مُقتصد. لقد تم تبني مثل وجهات النظر هذه ليس فقط من قبل الميتافيزيقيين التقليديين، بل من قبل الوضعيين الجدد. لنقل باختصار، إنها وجهة نظر ذات نظرة أحادية. إن تاريخ العلم يوضح لنا أن عدد القوانين والمقولات النظرية يزداد، وأن ميادين البحث تزداد أيضاً، وأن عدد المفاهيم المترابطة التي يتعذر اختزالها يزداد تبعاً لذلك. إن علامة التقدم العلمي هي نمو التنوع وليس نمو الاختزال. ولكن، كما في النمو الثقافي والبيولوجي، إن مسار العملية الحقيقية للتنوع يستدعي زيادة في تكامل العلم، أنطولوجياً وميثودولوجياً. من وجهة نظر الواقع، هناك دليل على تزايد الوحدة في المنهج، التي لاتمنع ازدياد التنوع في التقنيات الجزئية وتزايد الاكتشاف المستمر لارتباطات جديدة بين الميادين التي تبدو للوهلة الأولى منفصلة، ارتباطات لاتحتاج إلى حذف الاختلافات المتميزة. إن التكامل المتزايد (أو الوحدة) للعلم لايجب أن يمنعنا من إدراك تزايد تنوعه.

كخلاصة، إن البنية المنطقية للتفسير العلمي تعتمد على الاستنتاج من القوانين العلمية مع الأخذ بالاعتبار الشروط الخاصة. إن النواة المنطقية للتفسير هي التعميم، أي عملية إلباس الواقعة الخاصة موضع البحث ثوب نموذج عام. لكن المنطق لا يستغرق تحليل المعرفة العلمية، وليس من شأن المنطق الصوري إجراء مثل هذا التحليل. ولكي تكتمل صورة التفسير العلمي يجب علينا أن ننظر إلى مظهره الأنطولوجي، خصوصاً أن ما يميز التفسير العلمي هو أن بعض القضايا التفسيرية فيه هي قوانين يفترض أن تمتلك وضعاً أنطولوجياً.

٢-٣- الأسس الأنطولوجية للتفسير العلمي: تفسير الوقائع وتفسير القوانين

«لا يشعر» العالم عادة أنه قد فهم برهاناً ما، إذا هو قبض فقط على الآلية المنطقية له، أي على اشتقاق النتيجة من الافتراضات. من جهة أخرى، ربما «يشعر» أنه فهم اشتقاقاً ما حتى في حالة كونه لم يبحث في تفاصيل التسلسل المنطقي، أي، حتى لو أهمل عدداً من خطوات العملية. وهو يفعل ذلك عادة بهدف تفادي الوقوع في شراك الصورية. أكثر من ذلك، عندما يتم تلخيص تفسير علمي توضع جانباً تفاصيل البناء المنطقي له وكأن الأخذ بها يتم فقط للتسليم بأنه قد جرت العناية بها، وما يكون مطلوباً هو حضور مختصر للنسيج الحقيقي للتفسير. إن مثل هذا الإجراء الفعلي عند العلماء يجعل التفسير في ما يسمى العلوم التجريبية يستدعي على الأقل مشكلتين فلسفيتين:

أ- طبيعة المواد (مفردات التفسير) التي يبنى التفسير منها.

ب- العلاقات المنطقية بين هذه المواد.

إن قصر التفسير على الاستنتاج (أو التعميم) يغفل المواد الحقيقية للتفسير، إن التحليل المنطقي لتفسير علمي معطى يمكنه أن يتحقق

من الصلاحية الصورية (المنطقية) للتفسير وليس من صـــلاحيته المادية، إن التحليل المنطقي لتفسير لايكون كاملاً، لأن مفردات التفسير المنظور إليها منطقياً على أنها أولية، تؤلف موضوعاً لتحليل أنطولوجي، أقوم بإجرائه الآن. قد يتألف موضوع التفسير العلمي من: أ) فئات من الوقائع (طبيعية أو عقلية أو اجتماعية)، أو ب) القوانين ذاتها (على سبيل المثال، قد تندرج تعميمات تجريبية تحت نصوص قانونية تحتوي مفاهيم نظرية واسعة). في كل حالة، التفسير العلمي وبالتعارض مع التفسير العامي، يتم إجراؤه بلغة القوانين. وبما أن مثل هذا التفسير له مظهر أنطولوجي فيجـــب أن يكـــون هذا واضحـاً إلاّ لأولئك الذين يتبنون الرأي القائل بأن كـلا من الوقـائع والقوانين اصطناعية.

كمثال توضيحي على التفسير العلمي من النوع الأول، حيث التفسير هو فئة من الوقائع، لنأخذ حالة ارتداد البندقية عند إطلاق النار. يمكن تفسير فئة الوقائع هذه بطريقتين مختلفتين تبدوان للوهلة الأولى على أنهما مختلفتان جوهرياً. في مستوى أول من التفسير نحن نعلل حركة ارتداد البندقية باعتبارها أحد آثار تساوي الضغط المبذول في كل الاتجاهات والناتج عن الغاز الذي تولد في التفاعل الكيميائي الذي بدأ عند الضغط على الزناد. في مستوى ثانٍ من التفسير، نفسر الارتداد بأنه مجرد مثال مفرد عن قانون نيوتن في تساوي الفعل ورد الفعل. حاولنا تسمية التفسير الأول تفسيراً سببياً لأنه يستحضر سبباً كافياً اسمه ضغط الغاز. كما أننا في التفسير الثاني نكون على حافة أن ندعوه تفسيراً عقلياً، باعتباره يعتمد بشكل صريـــح على الاستنتاج من مبدأ عام. لكن، إن انقسام التفسير العلمي إلى فرعين، سببي وعقلي، ككل انقسام للقضايا العلمية إلى واقعية محضة وعقلية محضة أو تركيبية محضة وتحليلية محضة، هو أبسط بكثير من أن يكون كافياً وافياً. في الواقع، إن تفسيرنا الأول الذي أجريناه لـــم يكـــن كامــلا، لأنه لم ينص على أن السبب (أي ضغط الغاز) هو بدوره نتيجة، ليست

سببية، لـلتفاعل المتسلسل الذي استهله الضغط على الزناد في الانفجار، أكثر من ذلك، إن ذلك التفسير لايدل مباشرة وبشكل صريح على واقعة (تمدد الغاز)، لكنه يدل أيضاً بشكل ضمني غير مباشر على قانون باطن في تلك العملية، يسمى قانون التوزع المتجانس لضغط الغاز. لذلك فإن التفسير من المستوى الأول ليس ببساطة تفسيراً لنوع واحد من الوقائع بلغة وقائع ذات مدى أوسع، بل هو يتضمن دلالة على نص قانوني. باختصار، إن التفسير من المستوى الأول ليس كاملاً طالما أنه يبقى سببياً، وهو عقلي كالتفسير من المستوى الثاني لأن بنيته المنطقية استنتاجية. أيضاً، بالنسبة للتفسير من المستوى الثاني وعلى الرغم من أنه لا يتضمن دلالة صريحة مباشرة على وقائع، إلا أنه يستدعي فئة واسعة من الوقائع تشملها مسلمة نيوتن الثالثة، والتي هي مبدأ فيزيائي وليست مبدأ صورياً. إن تفسيرنا من المستوى الثاني، وهو استنتاجي بشكل واضح، ليس تفسيراً لوقائع بلغة العقل المحض، بل هو، مرة ثانية، تفسير بلغة القانون العلمي.

تفسيرات المستوى الأول مطلوبة أكثر من الناحية النفسية لأنها، تعليمياً، أكثر تأثيراً من تفسيرات المستوى الثاني لأن دلالتها المباشرة هي واقعة إضافية، لكنها تبقى مضللة طالمابقي القانون الباطن فيها غير مُلاحظ. ليس ثمة اختلاف أساسي بين كلا نوعي التفسير، في كلا المستويين نصل إلى الدلالة على الوقائع والقوانين. في تفسيرات المستوى الأول تكون الدلالة على الوقائع صريحة بينما استدعاء القانون يكون ضمنياً – وهذا ما يحجب دور الاستنتاج فيه. (أغلب تفسيرات الوقائع التاريخية تبدو من المستوى الأول حيث الدلالة على قوانين تكون مخفية، وهذا يعلل جزئياً عدم الوعي الحالي بالقانونية التاريخية). في تفسيرات المستوى الثاني، دور الوقائع ودور النصوص القانونية يكون معكوساً نسبياً إلى الحالة السابقة، وهذا ما يخلق، خصوصاً عند المنطقيين، الوهم بأن التفسير العلمي شأن منطقي محض.

سأتحول الآن إلى الحالة التي يكون فيها التفسير بذاته قانوناً علمياً. نادراً ما يبقى العلم راضياً بتفسير فئة من الوقائع بلغة مجموعة معطاة من القوانين، حتى لو تم تجريب تفسيرات مختلفة أو تمّ تفسير القوانين العلمية بلغة قوانين إضافية أكثر تعميماً. أكثر من ذلك، ليس ثمة دليل على أن عملية إيجاد قوانين القوانين قد تنتهي مع اكتشاف قوانين أساسية أخيرة قصوى، حتى على الأقل، مع كشف صيغة كلية واحدة. من الواضح أن التعميمات التجريبية تستخلص من نصوص قانونية غنية بالمفاهيم النظرية، كما في حالة استنتاج قانون سقوط الأجسام لغاليليو من مسلمة نيوتن الثانية مع الأخذ بالاعتبار الفرض الخاص حول القوة ووظيفتها، والقوانين التي لها مجال تطبيق محدد تصنف تحت قوانين ذات تعميم أكبر، كما في حالة ميكانيك نيوتن الذي تبيّن أنه حالة محددة من ميكانيك النسبية. إن القوانين ذات القدرة التفسيرية الضعيفة (تكون بشكل رئيسي، وليس حصرياً، وصفية) يتم استنتاجها من قوانين لها قدرة تفسيرية أقوى، كما في استنتاج الهندسة البصرية من النظرية الموجبة للضوء. وبشكل معاكس، قد تندرج قوانين التفسير القوية تحت قوانين تفسير ضعيفة، كما في استنتاج قوانين الحركة من مبدأ التغير. إن القوانين التي تميّز مستوى معطى متكاملاً تفسَّر كانبثاق عن قوانين مستوى أدنى، كما في حالة قوانين الترابط الكيميائي التي تتبع من قوانين الميكانيك الكمومي.

لايتوقف العلم عن التساؤل، لماذا تكون القوانين على ما هي عليه؟ إنه لايلتمس تفسيرات وراء القوانين بل قوانيناً إضافية، إذا اعتقد بأنها «نهائية» في لحظة محددة من سياق محدد تسمى مبادىء أو مسلمات أي تقريرات عن قانون المستوى الأعلى. لذلك لايبقى العلم قانعاً بالقول الفصل لأتباع مذهب الظواهر بأنه ليس ثمة ما هو إضافي ليتم فهمه في القوانين، مثل كون القوانين جائزة، أي أنها ربما تكون مختلفة عما هي

عليه. (القوانين جائزة من الناحية المنطقية، بمعنى أنه ليست هناك ضرورة منطقية فيها إذا ما أخرجناها من النظام النظري الذي تنتمي إليه، إن تغيراً في قوانين الطبيعة أو المجتمع لن يكون غير منطقي، أي لن يستلزم تناقضاً منطقياً). يبحث العلم دوماً عن السبب الكافي للقوانين ويجده أيضاً في قوانين أخرى- لاشيء يسوغ الاعتقاد بمبادىء أولى قصوى أو قوانين أساسية مطلقة، إن قوانين المستوى الثاني قد تكون أساسية في سياق معطى ولفترة محدودة، ولكن ليس بشكل مطلق وأبدي. وباندراج القوانين العلمية تحت قوانين ذات عمومية أكبر، وباشتقاق القوانين التي تميز مستوى من الواقع من قوانين تعمل في مستويات أخرى، فإن العلم يختبر النظريات الأنطولوجية حول ترابط الواقع، بالضبط كما أن تنوع وتغاير العالم توضحه حقيقة تزايد عدد الخصائص وأنظمة الخصائص، القوانين وأنظمة القوانين التي تكتشف باستمرار.

حان الآن وقت مقارنة مشكلة العلاقة بين مبدأ السببية والتفسير العلمي، أي السؤال حول المدى أو النطاق الذي يكون فيه التفسير العلمي سببياً. لهذا الغرض، يمكن تصنيف نماذج التفسير العلمي إلى الصنفين التاليين:

أ) التفسيرات التي ربما-ولكنها لاتحتاج- لأن تكون سببية.

ب) التفسيرات التي من خصائصها أنها ليست سببية بمعنى أنها لاتتضمن مقولة السبب.

٣- التفسيرات التي يمكن أن تكون سببية :

لنفحص نماذج التفسير التي قد تدخل فيها فكرة السببية. (التفسير يكون علمياً سببياً إذا كان متسقاً وكافياً وإذا استدعى قانوناً سببياً).

(A,1) الاشتمال على تعاقب الحوادث أو الحالات

مثال توضيحي:

أ) الشهر الحالي هو أيلول لأن الشهر الماضي كان آب («القانون» الذي استحضره التفسير هنا هو التعاقب المنتظم التالي «أيلول يأتي بعد آب»).

ب) صوت تشارلز يتغير لأنه يدخل مرحلة البلوغ (الاطراد الذي يخدم هنا كتفسير هو «أصوات كل الأولاد الذين يدخلون مرحلة البلوغ تتغير»).

الصيغة النموذجية لهذا التفسير هي «ب يكون هكذا لأن (أ) سبقته، وعندما يحدث أ يكون معروفاً أو مفترضاً أن يتبعه ب». لاتوجد رابطة أصل مشترك ينبغي تأكيدها في هذا النوع من التفسير، إنه يستدعي مجرد التعاقب. وهذا نوع بدائي من التفسير، لكنه على الأغلب كاف، سواءاعتبرنا الماضي سبباً أم لا، أي سواء كان التفسير سببياً أم لا. من وجهة نظر المنطق، يعتمد هذا التفسير على تعريف وبالتالي فهو نوع من التكرار. لذلك، فإن التعريف التالي «أيلول هو الشهر الذي يتبع آب»، (مقدمة تفسيرية). يسمح لنا أن نستنتج أن أول يوم بعد انقضاء آب سيكون أول أيلول. لكننا لسنا مهتمين هنا بالبنية المنطقية للتفسير بل بمظهره الأنطولوجي الذي يتركز هنا على مفهوم التعاقب (وهو ليس بشكل ضروري من النموذج السببي).

(A,2) تتبع النشوء والتطور

مثال توضيحي:

أ) «إن أ يتصرف هكذا بسبب منبته الاجتماعي وتربيته».

ب) «دعنا نفترض أن العقل صفحة بيضاء خالية من الرموز، بلا أية أفكار، كيف يحصل إذن أن تمتلىء؟. من أين يأتي ذلك المستودع الضخم الذي يمتلىء بالأهواء النشيطة اللامحدودة التي تتطبع عليه بتنوع لانهاية له؟. من أين تأتي مواد العقل والمعرفة تلك؟ على ذلك أجيب بكلمة واحدة: من التجربة، التي تتأسس عليها كامل معرفتنا ويُشتق العقل نفسه منها».

بهذا النوع من التفسير النموذجي الحديث، نعلل معالجتنا الحالية للتفسير باعتباره مرحلة في نمو القضية، قوانين النمو أو النشوء تلعب هنا دور مفسِّرات. وعلى عكس النوع السابق من التفسير (الذي يعتمد على اشتماله على التعاقب). فإن رابطة أصل مشترك تفترض هنا وتكون العلة الكافية وفقاً لها معلّلة بواسطة نشوء الشيء في لحظة معطاة ونموه اللاحق. كما في الحالة السابقة، إنما سؤال «لماذا» يتم إرجاعه هنا إلى سؤال «من أين»، والقانون الذي يدل عليه (صراحة أو ضمناً)، ربما يُصاغ سببياً، لكن دون أن يحتاج إلى ذلك.

(A,3) الربط بين وقائع متباينة

مثال توضيحي:

أ) يصدأ الحديد عندما يتماس مع الهواء والرطوبة.

ب) تشحن الكهرباء الجزيئات التي تقترب من كوكبنا، وتتحرك لولبياً تبعاً للحقل المغناطيسي للأرض.

في هذه الحالة، الواقعة المعطاة ترتبط بوقائع أخرى ليست من ذات السلسلة، (كما في النوعين السابقين)، بل بوقائع من نظام مختلف، وهذا يعمل على أنه محدِّد التغيير الذي نحن بصدده. نصل هنا إلى التفسير عن طريق وضع الحدث في السياق الفعلي الذي يفترض أن يحتويه أو، قريباً من ذلك، في سياق نظام من الترابطات الداخلية استشرفناه قبل عملية التفسير، . هذا النوع من التفسير (الذي دعاه **هيويل** التجميع) شائع في العلوم التاريخية الاجتماعية، حيث أن افتراض الترابط الداخلي يكون أداتياً عند البحث عن حوادث لم يتأسس بعد وضوحها الممكن. على الأغلب، يكون هذا النوع من التفسير سببياً بشكل مميز، لأنه ربما

يستدعي عوامل تفعل بشكل استثنائي وفريد، حتى لو كانت غالباً ما تدور حول مقولة الفعل المتبادل أو السببية المتبادلة، لأنها تعتمد على بيان وجود التواقف.

(A,4) تحليل الوقائع المعقدة إلى وقائع أبسط من الطبيعة ذاتها

مثال توضيحي:

أ) تفسير **أمبير** للحقول المغناطيسية القوية الشدة بواسطة التيارات الجزيئية التي تعمل كمغانط ثانوية.

ب) تفسير عمل الآلات المعقدة بواسطة وظائف آلات أبسط.

في هذه الحالة، تفسَّر الواقعة المعطاة بأنها مجموع أو مركب من وقائع أبسط، عادة من سلّم أصغر، معروفة أو يفترض أنها معروفة أو ببساطة توضع على أنها تخمين غير مختبر. النقطة الجوهرية هنا، هو أن القضية التفسيرية أو الوقائع التي تعمل كمفسِّرات يجب أن لاتكون مختلفة عن بعضها البعض. (عندما تكون مختلفة، نحصل على تفسيرات لاسببية من النموذج (B,4) و(B,5) الذي سنتحدث عنه لاحقاً). أحد التفسيرات التي تنضوي بشكل جلي تحت هذا النوع من التفسير، هو التفسيرات الميكانيكية التي تعتمد على تحليل الحوادث المعقدة إلى تغيرات في موضع نقاط مادية (قد تكون ذرات إنما ليس ذلك ضرورياً).

على العكس من مفهوم التفسير التقليدي باعتباره إرجاعاً للمجهول إلى المعلوم أو الجديد إلى القديم، فإن التحليل العلمي للمعقد إلى وقائع أبسط (ليس بمعنى البساطة التي تتضمن افتراضاً حول المطلق) قد يؤدي إلى صفات أو خصائص معاكسة تماماً لأنه ربما يتم إجراؤه بواسطة عناصر فرضية غير مستقرة، تدعى أحياناً «عناصر نظرية». هذا ما حصل مع النظرية

الذرية قبل القرن العشرين. إن التحليل العلمي لايحتاج إلى ارجاع الجديد إلى القديم ولاغير المألوف كما تتطلب الإرجاعية ذلك، بل إن ما يفعله التحليل العلمي هو إرجاع المعقد غير المفهوم إلى البسيط المفهوم.

٤- التفسيرات اللاسببية:

(B,1) التعرف إلى / أو المطابقة مع/ أو الاندراج ضمن فئة:

مثال توضيحي:

أ) هذا الجسم يغوص في الماء لأنه مصنوع من الحديد، والحديد أثقل من الماء.

ب) ذلك الحيوان لايغني لأنه كلب، والكلاب لاتغني.

الصيغة النموذجية لهذا التفسير هي «إذا كان a هو f، فهو g، الآن: a هي f، لذلك a هي g». هذا النوع من التفسير قد يُسمّى تصنيفاً، لأنه بشكل أساسي ينقلب إلى تصنيف (أي إلى تضمين الفئة f في الفئة g). الأسباب غائبة بشكل واضح في هذا النوع من التفسير، على الرغم من أن تفسيرات إضافية في مستويات أخرى، ربما تستحضر مفهوم السبب.

(B,2) الوصف

مثال توضيحي:

أ) إن تشكل الخيال في الأجهزة البصرية يفسر بواسطة قوانين الهندسة البصرية.

ب) تشغيل المحركات الحرارية يفسر بمساعدة قوانين الترموديناميك.

بالتعريف، إن ما يدعى قوانين ظواهرية لايحتوي على مقولة السبب. هكذا، تعتبر الهندسة البصرية أن الأشعة الضوئية حالات ثابتة أكثر

من كونها عمليات، وقوانين الانحفاظ والتطور التي تعتمد على أسس الترموديناميك لاتشير كما هو واضح إلى أي عامل سببي. على الرغم من التعارض التقليدي بين الوصف والتفسير، فإن ما يدعى قوانين ظواهرية يخدم أغراضاً تفسيرية، نرى هذا في قوانين الكينماتيكا (قوانين حركة النقطة المادية بمعنى ما، الوصف سابق على التفسير أي بمعنى آخر، إنه نوع من التفسير مع الاعتراف بأنه سطحي وخارجي. حالا أو لاحقاً، تمكننا التفسيرات الصحيحة أن نؤطر المزيد من الأوصاف الدقيقة والتامة، وربما تقترح وجود وقائع أغفلتها التقريرات الوصفية. إن الوصف المجرد، غير المشوب بالنظرية وغير المؤسس على التأويل والبريء كلياً من الفروض، هو أسطورة اخترعها المذهب الوضعي التقليدي والمذهب الحدسي والفينومنولوجيا، يجهل العلم تماماً الوقائع غير المترابطة، إن الاختيار الحقيقي للوقائع تقوده مبادىء نظرية وفرضيات ذات صيغة تفسيرية. إن تفسير قراءات مؤشر يعتمد على اعتبارات نظرية متجسدة في التركيب الفعلي لأجهزة القياس، حتى التعابير ذات السمة البروتوكولية تستلزم جملة من الافتراضات حول العلاقة بين العوامل التي تخص عادة كل حالة محددة. لايوجد معنى لعبارة علمية خارج نظام نظري. باختصار، العلم وصفي تفسيري، ويمكن التمييز بين الوصف والتفسير لكن لايمكن فصلهما.

(B,3) التفسير بلغة قوانين بنية ثابتة

مثال توضيحي:

أ) إن العلة الكافية لكل قطعة من إطار معدني تعلل بالموضع الذي تشغله القطعة ضمن الإطار كله.

ب) إن الاختلافات بين الجزيئات المتناظرة تفسر بالمواضع النسبية للذرات المكونة لها.

في هذا النوع من التفسير، يحلل الموضوع إلى عناصر يشار إلى الموضع المحدد لكل منها في بنية ثابتة، وهذا الموضع يعلل مميزات ووظائف الكل. لاشيء هنا ليقال عن التغيرات، لأن مقولة السبب غير متضمنة في هذا النوع من التفسير، والذي قد نعتبره مندرجاً ضمن التفسيرات من النوع (A,4) فقط لأن الارتباطات غير سببية.

(B,4) الاستناد إلى مستوى أدنى

مثال توضيحي:

أ) الخصائص الكتلية للمادة تفسر على أنها تنبثق من سلوك الجزيئات.

ب) قوانين العمليات الذهنية قابلة مبدئياً للتفسير بلغة قوانين الفيزيولوجيا.

الموضوع قيد التفسير هنا، يتوضح أو يفترض أنه ليس التجميع أو الجمع المجرد لحوادث من سلّم أصغر (كما في A,4)، ولكنه حصيلة حوادث مختلفة كيفياً تنتمي إلى مستوى أدنى. وفقاً لذلك تتأسس رابطة أصل، إنما غير سببية، بين مجالات مختلفة. يشار غالباً إلى هذا النوع من التفسير على أنه إرجاع. هذا المعنى مضلل إلى حد بعيد لأنه يقترح أن الكيفيات المميزة لمستوى معطى تفسر جانبياً بارتباطها بكيفيات المستوى الأدنى منها. كل تفسير إرجاع من وجهة نظر المنطق لأنه يعتمد على اشتقاق الخاص من العام، لكنه ليس دوما إرجاعاً من الناحية الأنطولوجية:

ليس كذلك، على الأقل، حتى يتبين أن عناصر المستوى الأعلى هي مجرد تجميع لعناصر المستوى الأدنى دون خصائص ذاتية لهم. عالجنا التفسيرات الإرجاعية غير الزائفة سابقاً في (A,4).

(B,5) الاستناد إلى مستوى أعلى

مثال توضيحي:

أ) القيم المقاسة للخصائص الذرية المسماة «مايمكن رصده» تعتمد ليس فقط على الموضوعات الذرية نفسها، بل أيضاً على تفاعلها مع الأجهزة الماكروسكوبية التي يتم إجراء القياس بواسطتها.

ب) إن سلوك عنصر من مجموعة (جزيء ضمن كتلة من سائل، غدّة في كائن حيّ، فرد في جماعة) يعتمد بقوة على سلوك الكل.

هذا النوع من التفسير (غالباً ما يسمى عضواني) يعتمد على اكتشاف مكان الموضوع المعطى ضمن الكل وعلى بيان أثر الكل على الجزء. والتركيب (إعادة بناء الكل) ينتج من تحليل التوافق بين الأجزاء. إن علاقة الجزء - الكل، وليس مقولة السببية، هي التي يستند إليها التفسير هنا.

(B,6) التفسيرات الإحصائية

مثال توضيحي:

أ) معادلة الحالة لغاز مثالي تفسَّر بواسطة النظريات الإحصائية والميكانيكية.

ب) إن توزع الخصائص الوراثية في جماعة محددة من كائنات حية يفسَّر بواسطة قوانين ماندل.

تعتمد التفسيرات الإحصائية بشكل أساسي على بيان أن الموضوع المعطى عنصر في مجتمع إحصائي أو عملية عشوائية. ثمة رأي واسع الانتشار يقول إن التقديرات الإحصائية وصفية محضة، أي أنها بحاجة لأن

تفسِّر، دون أن يؤهلها ذلك لأن تمتلك وظيفة تفسيرية. الآن، من المرغوب فيه أن نجد تفسيراً للقوانين الإحصائية، ولكن، عندئذٍ يجب أن ينسحب ذلك على كل نموذج آخر من القوانين أيضاً. إن التفسيرات الإحصائية مقنعة في مستواها الخاص وهي مميِّزة للعلم الحديث. سيكون عملاً غير حكيم أن نستثني التفسيرات الإحصائية وكذلك أن نعلن أنها نهائية.

(B,7) التفسيرات الغائية

مثال توضيحي:

أ) يفرز الإنسان عصارة المعدة واللعاب عندما يرى صحن طعام شهي أو يسمع وصفاً له (في حالة كلب بافلوف، يتم الإفراز عندما يسمع الكلب الصوت الذي أشرط له)، هذا الإفراز يأخذ مكانه كتحضير لعملية الهضم اللاحقة (التي يمكن أن تحدث).

ب) يتم التخطيط بشكل واعٍ لبعض الحروب لتجنب الأزمات الاقتصادية وتهدئة اضطراب اجتماعي.

لا يبدو أن هناك من يستطيع أن يقدم أرضية صلبة للشك بأن السلوك الإنساني الواعي غائي ويتوجه إلى أهداف، إن نقطة الخلاف هي حول وجود وظائف غائية ونشاطات لاواعية في مستوى الحياة. مالايتم إنكاره عادة، هو أنه، على عكس العمليات الفيزيائية- الكيميائية، ثمة الكثير من السلوكيات والوظائف النباتية والحيوانية ليست غير مبالية بالنتيجة النهائية، بل تحدث، بدلاً من ذلك، وكأن النتيجة توجهها بطريقة ما. إنها فعلياً، تتحدد بالأوضاع السابقة مباشرة وبكامل التاريخ الماضي للكائن الحي وكذلك بوظائفه العضوية والبيئية، إن السلوكيات لايمكن تحديدها بالمستقبل، طالما أن الحاجات الغائية لم توجد بعد، بل تتحدد افتراضياً

من قبل الشروط الماضية ويتم تكييفها سلفاً مع الشـروط اللاحقـة، ليس بواسطة البصيرة أو التخطيط الواعي بـل كنتيجة لتاريخ طويل من المحاولة والخطأ (النجاح والفشل).

في حالة الانعكاس الشرطي، حيث ينتج الإفراز من غدد محددة، إن الصوت (الحافز أو السبب الكافي) يستهل، ولاينتج، كامل العملية، أكثر من ذلك، تستبق هذه العملية وظيفة أخرى (هي الهضم) ربما لاتحدث إطلاقاً. مهما تكن الطبيعة الحقيقية للرابطة حافز (سبب) - استجابة (نتيجة)، فمن المؤكد أنها ليست رابطة سببية مباشرة. وما أن يحاول الفزيولوجيون والبسيكولوجيون الذهاب إلى ما وراء التخطيط البسيط لنموذج الحافز-الاستجابة، وما إن يحاولوا تفسير كامل العملية بين السبب الممكن ملاحظته والنتيجة الممكن ملاحظتها حتى يتجاوزوا بذلك ليس فقط حدود مذهب الظواهر (على سبيل المثال، السلوكية الارتباطية)، بل كذلك يتجاوزون حدود السببية.

يمكن أن ندرك بوضوح الخاصية اللاسببية القوية للعمليات البيولوجية عندما نفهم أنها، ضمن مجال واسع إنما محدود، تتوقف على الشروط البيئية الصحيحة، وحتى الوسائل الخاصة والطرق المستخدمة للوصول إلى أهداف، كالوقاية الذاتية، يكون ثباتها نسبياً. إن عمليات الحياة تكون بشكل رئيسي محددة ذاتياً ومتكيفة تاريخياً. ويبدو أن الكائن الحي، بعيداً عن أن يكون دمية سلبية للبيئة المحيطة، فهو ينتقي بفعالية أغلب الشروط المثلى ليصل إلى غاياته (الوقاية، التطور، التكاثر)، يجب لذلك أن نـؤكد أن القوانين الغائية إحصائية بالمعنى الغامض الذي ينص على أن الكائنات الحيّة لاتنجح دوماً في الوصول إلى غاياتها، وبالتالي هذه القوانين مجردة من الضرورة (الاضطراد والتفرد) التي يدعيها المذهب الحيـوي ومجردة من خصائص القوانين السببية.

لن نستطيع التنبؤ فيما إذا كانت البيولوجيا والبسيكولوجيا ستحتفظ في المستقبل بالتفسيرا ت الغائية. الحقيقة هي أن التفسيرات الغائية لم تنته من هذه الفروع العلمية. إن ما يجب على العلم الحديث فعله بالارتباط مع الغائية ليس نبذها، ولكن تجريدها من الطابع مـا فـوق الطبيـعي، لكي تندرج في المستويات المتكاملة العليا، ثم توضيح أنها غير كافية، وأكثر من ذلك. أن يوضح أن الغائية يمكن على الأغلب أن تحل محلها مقولات أخرى للحتمية.

على حد علمي فإن العلم الحديث لم يثبت أن الغـائية الداخليـة (أو الغائية المحايثة المعاكسة للخطة المتعالية) هي أسـطورة. قد يكـون من الخطأ الاستغناء عن التفسير الغائي فقط لأنه ارتبط في الماضي بالأنثرومورفيزم والغائية؛ إن المعيار غير العلمي في الغائية هو في اعتبار ثنائية الحافز - الهدف على أنها مطلقة وغير قابلة للتفسير أو أنها موجهـة من فوق الطبيعة. لايبدو أن المهمة الحالية للعلم، بالعلاقة مع الغائية، تقوم على إنكارها مسبقاً، بل في محاولة تفسير قوانين التكيف الهدفية العضوية بلغة قوانين التطور وعمليات التغذية الراجعة (FEED-BACK) وهلمّ جرا، إنها تعتمد باختصار على تفسير النماذج الغائية بلغة قوانين أخرى للطبيعة يتم وفقاً لها إقصاء مفهوم الخطة المسبقة من البيولوجيا نهائياً.

ربما أن القوانين الغائية لن تستبدل بل سيتم تفسيرها بواسطة قوانين أخرى، أي، على سبيل المثال، قد يتبين أنها تنبثق في سياق تطور الكائنات العضوية وتعاون الكائنات الحية. (على الرغم من أن الكائن العضوي الفرد ربما لم يصل بعد إلى الحالة النهائية التي تتوافق مع إنجاز الهدف الذي كان لأسلافه، وهذه الخبرة ربما صانتها الأنواع بواسطة آليات الاصطفاء والوراثة). ربما تفسّر القوانين الغائية على أنها نموذج جديد من سلوك النظم

المادية ينتج عن عملية طويلة من المحاولة والخطأ في مغامرة التكيف وقد تم الاحتفاظ بها عن طريق الآليات الوراثية. لاتتطلب فلسفة العلم إقصاء التفسيرات الغائية بالعلاقة مع المستويات المتكاملة العليا، إنها تحتاج فقط إلى تجنب التأويلات الغامضة للنماذج الغائية التي تتم بلغة عناصر روحية لاعقلية كتلك التي تمّ تصورها في الأيام المبكرة من البحث البيولوجي والسيكولوجي.

(B,8) التفسيرات الجدلية

مثال توضيحي:

أ) إن تركيب النواة الذرية هو نتيجة تناقض ميلين: الميل إلى التوازن الناجم عن اتحاد النترونات والبروتونات، والميل إلى إنقاص العدد البروتوني بسبب التنافر الكهربائي.

ب) في عملية البرهان يفصل المفكر ذاته إلى ذاتين، إنه يناقض نفسه، وفقط بعد أن ينتصر في هذا الصراع الداخلي يكون مبرهنا.

تعتمد التفسيرات الجدلية نموذجياً على كشف التناقضات الداخلية والخارجية التي تبقى عمليات محددة (ليس كل العمليات) مستمرة، أو تؤدي إلى انبثاق عناصر مزوّدة بكيفيات جديدة. على الرغم من أن التفسيرات الجدلية تطبق عدة مقولات أخرى للحتمية (مقولة الفعل المتبادل والسببية)، إلا أنها تمتلك خصائص فريدة لايمكن تفسيرها جانبياً.

٥- خلاصة:

لكي نتحقق من أن تفسيراً معطى هو سببي أم لا، فإن اختباره منطقياً -أي تحليل بنيته المنطقية- ليس فقط غير كافٍ، بل ليس له علاقة بهذا التحقق. نحن ندعو تفسيراً بأنه سببي إذا كانت مقولة السببية تتوضع

في مركزه، وهذا يتقرر وحسب عبْر اختبار السند الأنطولوجي للقضايا التفسيرية التي يحتويها، لذلك، فإن التحليلات المنطقية للتفسير السببي التي تقتصر (عندما تعترف بالتفسير والسببية) على المظهر المنطقي للسؤال، هي غير كافية، وبقدر ما تكون دقيقة فهي تطبق على كل أنواع التفسير العلمي وبالتالي فهي لاتمكننا من تمييز التفسير السببي عن التفسير اللاسببي.

لقد بين لنا الاختبار الأنطولوجي المُحكم الذي أجريناه على النماذج الحالية من التفسير العلمي أن هناك طرقاً كثيرة للفهم، أي للإجابة عن أسئلة «لماذا»، يكون اكتشاف الأسباب واحداً منها فقط أو قد يكون عنصراً واضحاً ولكنه ليس كلياً في التفسير العلمي. عرضنا في المقطع السابق ثمانية نماذج من التفسير العلمي تتأسس على قوانين لاسببية، ولكن اختباراً دقيقاً يجب أن يقدم أيضاً نماذج إضافية من التفسير العلمي لايكون لها أي استناد على مقولة السببية. أن نفترض أو أن نطلب سلفاً صياغة كل تفسير علمي بلغة سببية. ، لن يكون أكثر حكمة من الإجراء الذي يقوم به الكاهن الساحر (الشامّان) الذي يسأل السؤال المعقد التالي: «أية أرواح شيطانية تكمن في هذا الإنسان الضعيف؟».

بالنتيجة، ليس ممكناً أن نحتفظ بالهوية ما بين السبب والعقل، وعلى عكس التعليم التقليدي، فإن السببية ليست شرطاً كافياً لفهم الوقائع، على الرغم من أنها غالباً ما تكون عنصراً في التفسير العلمي. أكثر من ذلك، إن التفسير السببي، إذا كان علمياً، لن نجده فيما وراء القوانين، بل في القوانين ذاتها. وباعتبار أن الخاصية العامة للتفسير العلمي هي أنه يتم بواسطة القوانين، فإن بعضاً من هذه القوانين قد يحتوي عنصراً سببياً، بينما الأخرى تفتقر إلى ذلك. وباختصار، إن التفسير العلمي تفسير بواسطة القوانين وليس بالضرورة تفسيراً بواسطة الأسباب.

إن ما يضفي على التفسير السببي حضوراً مُضلاً ضمن النماذج المتبقية للتفسير، هو أن أغلب التفسيرات تؤطر في لغة سببية . لذلك، في اللغة الإنكليزية أغلب العبارات التفسيرية تحتوي الكلمة «لأن» [because = by cause]، إنها بالفعل من الشكل «q because p» وتحتفظ بالتفسيرات الغائية التي تكون عادة من الشكل «p in order that q» . إن السقوط في شرك اللغة كما في هذه الحالة هو علامة على السذاجة، وكذلك أيضاً علامة على الإخلاص الفلسفي في محاولة استنتاج أن الافتقار إلى السببية ناجم من الحقيقة التي لايمكن إنكارها وهي أن عبارات القوانين العلمية الخاصة لاتحتوي عادة الكلمات «سبب»، «نتيجة» التي تدل على مقولات فلسفية .

المصدر

Mario Bonge, Causality and Modern Science, Dover Publications, 3rded., Newyork, 1979.

* * *

تاريخ العلاقات الدولية: بين الحرب والسلم

موسى الزعبي

- قبل ظهور الدول:

❖ عرفت العصور القديمة علاقات دولية:

وجد قبل عصرنا طرازان من المجتمعات السياسية بصورة رئيسة: الامبراطوريات القارية، التي اشتملت على مناطق واسعة «مصر، الامبراطورية البيزنطية، بلاد ما بين النهرين؛ ثم أعقبتها الإمبراطورية الآشورية،

(*) - موسى الزعبي: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية البحوث والدراسات. من مؤلفاته: «كي لاننسى التاريخ».

فالامبراطورية الفارسية، وأخيراً الامبراطورية الرومانية». كما شكلت بعض الحواضر، امبراطورية بحرية «صور، ثم قرطاجة، ثم أثينا».

وترجع الوثائق الرئيسة في العلاقات الدولية إلى تلك الحقبة: فكانت هناك معاهدات واتفاقيات دبلوماسية. وأخذت المجتمعات القديمة تحافظ فيما بينها على علاقات صداقة، وتجارة أو منازعات. وتجري الإتصالات، بإرسال مبعوثين خاصين، يمنحون ميزات خاصة؛ سفراء. وتبرم المعاهدات بين الملوك، على أساس من المساواة، تكون مكتوبة، وتخضع لإجراءات تصديق، على شكل احتفالات دينية. وتؤدي المعاهدات خدمة في الإعداد للحرب «خاتمة التحالفات»، أو عند انتهاء مدة «معاهدة السلام». وتستخدم أيضاً في السلم.

كالمعاهدة التجاريه التي جرت بين آمينوفيس الرابع (AMENO-PHIS) وملك قبرص آلازيا (ALASIA) «في القرن الرابع عشر قبل المسيح». وهو اتفاق تجاري، يعفي المنتجات القبرصية من الضرائب الجمركية، مقابل واردات كمية معينة من النحاس والخشب. كما جرت معاهدة بين رمسيس الثاني، وملك الحثيين عام (1275) قبل المسيح، تنص على أن ملك الحثيين، لن يقبل لاجئين مصريين على أرضه، مقابل أن يكفل الفرعون التعهد بتسليم المجرمين الحثيين.

وعرفت الصين، حرباً مستمرة «بين الممالك المحاربة» التي كانت منظمة كدولة حديثة، في الواقع، وذلك بين القرن الخامس والثالث قبل المسيح. ففي تلك الحقبة، تمت كتابة فن الحرب من قبل سان تزو (SUN TZU). في الوقت نفسه، كان العالم اليوناني متجانساً في ثقافته، ومقسماً سياسياً إلى مدن. وذهب أبعد من ذلك، في تنظيم العلاقات الدولية: اخترع اليونانيون اجراءات التحكيم، والحماية الدبلوماسية «شبه منظمات» دولية، مثل منتدى المدن في اليونان، الذي كان يسمح بإدارة مشتركة دينية مقدسة، قديماً، وكذلك بإنشاء نظام دفاع جماعي بين المدن.

مثل جامعة ديلوس (DELOS) التي جرى تشكيلها بمبادرة من أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد.

لقد كان للحضارات القديمة «اليونانية، الرومانية، الصينية» جميع المظاهر المجسدة للحضارة والثقافة. وساهمت الجيوش الرومانية في توحيد حوض البحر الأبيض المتوسط. وأدى ذلك إلى إقامة عالم أكثر تجانساً، حيث قيس النجاح بإسناد المواطَنَة الرومانية إلى التابعين للإمبراطورية «الجميع الإيطاليين في عام (88) قبل الميلاد. من ثم لجميع الأفراد الأُجَراء العاملين في الإمبراطورية. بواسطة مرسوم أصدره (كارا كالا) عام (212) بعد الميلاد. وتعهدت روما بعد ذلك، بإقامة علاقات مع الخارج، خصوصاً الممالك الشرقية. وأبرمت معاهدات غير متساوية مع الشعوب المتحالفة مع روما التي صانت استقلالها مقابل مساهمتها بالرجال والمال. كما جرى عقد معاهدات مع المتآلفين من الشعوب البربرية، التي أقامت على الحدود من أجل الدفاع عن الإمبراطورية، مقابل مزايا مالية واقتصادية «التموين بالقمح، السكن لدى أناس خصوصيين» وتضمن القانون الروماني نفسه، أبعاداً دولية هامة: مثل قانون الـ«فيتيال FETIAL» يُعهد بتطبيقه إلى متعلقين بالدين، ممن هم سفراء روما. ويجب عليهم أن يقرروا، فيما إذا كانت الحرب عادلة، أم غير عادلة – وكذلك تقرير حقوق الناس» ويقومون بتسوية العلاقات العادية بين الرومان وغير الرومان «الذين يسمون بالمهاجرين». وتتضح حقوق الناس أيضاً في «القانون القابل للتطبيق في مجالات العلاقات بين الكائنات البشرية. فضلاً عن انتمائهم إلى جماعة مجموع الشعب المحدد سياسياً»(1).

❖ يهيمن العامل الديني على العلاقات الدولية، خلال جزء كبير من القرون الوسطى:

نأى العالم الروماني عن الفلسفة العقلانية الرواقية – التي تقول بأن كل شيء في الطبيعة، إنما يقع في العقل الكلي، ويقبل مفاعيل القدر

طوعاً- اعتباراً من القرن الثالث الميلادي. واستفادت من الأهمية المتزايدة للدين والتصوف في المسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للإمبراطورية اعتباراً من عام (380) بعد الميلاد، بعد اعتناقها من قبل الإمبراطور قسطنطين عام (312)م. وعندما رزح العالم الروماني تحت «الغـزوات البـربرية» في نهاية القرن الخامس الميلادي، فـإن المؤسسـة الشـاملة الوحيدة، التي استمرت في الغرب، هي الكنيسة، مع أسقف روما على رأسها. ونجحت الإمبراطورية البيزنطية في البقاء في الحالة نفسها حتى عام (751)م في إيطاليا «حتى سقوط رافين RAVENUE». ودامت حتى سقوط القسطنطينية على أيدي العثمانيين عـام (1453)م، والحضـارة الرومانية في الشرق. وابتعدت بيزنطة مع ذلك عن روما، على المستوى الديني «انشقاق بين الكاثوليك والأرثوذوكس عام (1054)م وشـروع الإسـلام في توسعه منذ عام (623)م (السنة الهجرية الأولى). حيث اجتاح الجزء الأعظم من إسبانيا وصقلية. ولم يتوقف إلا في عام (732)م في بواتييه.

في الغرب، حلت الممالك، محل المقاطعات الرومانية القديمـة. وأعاد شارلمان توحيد الإمبراطورية الرومانيـة الغربيـة للمـرة الأولى عام (800)م. لكن مع الإعتراف بعلو شأن البابا. وتقاسم أحفاد شارلمان تركته حسب معاهدة فردان عام (843)م، التي أدت إلى ولادة ثلاث ممالك! مملكة الفرنج الشرقية، ومملكة الفرنج الغربية، وما بين المملكتين لوتارنجي، سريعـة الزوال. وقـاد الإعـلان عن امبـراطورية جـديدة عـام (962)م- الإمبراطورية الرومانية المقدسة- التي ستتخذ صفة «الجرمانية» عام (1512)م - إلى المجابهة بين الإمبراطور والبابا.

❖ في هذه الأوربا السـائرة نحـو التـجـزئة، الكيـان الأساس، لم يكن المملكة بل الإقطاعية:

كان الإقطاعي يمنح حمايته إلى تابعيه، الذين بدورهم، عليهم خدمة ذلك الإقطاعي، بواسطة الرابط في الإقطاعية. وبسبب استمرار القوانين والعـادات البـربرية، إلى جـانب القـانون الرومـاني، الاعـتراف بالهـوية

الشخصية، لكون الأفراد المسجلين طبقاً لأصلهم، حسب القانون الروماني. ورسمت هذه التعددية القانونية - الهوية العرقية لبعض السكان، حتى نهاية القرون الوسطى.

في قمة الطبقة، الملك أو الإمبراطور، وهما السيدان الإقطاعيان الأولان، ويجسدان نسقاً متمماً في سلسلة نظام الإقطاع. والملك، يفرض نفسه على تابعيه كمحارب وكقاضي إقطاعي. لكن تأكدت السلطة المركزية مع مرور الزمن. وتوطدت بعد ذلك الممالك.

❖ العلاقات الدولية تنتظم بين الإمارات:

لقد شجع الإتحاد الشخصي بين الملوك على التحالفات «مثال زواج آن دوكييف، بنت الدوق الأكبر لروسيا، من ملك فرنسا هنري الأول عام (1049)م. وعن طريق لعبة القواعد الميراثية، يتم التوسع في المناطق، وتتبادل الممالك ومقاطعات الإقطاعيات الأخرى الرسل أو المندوبين، والذين سيطلق عليهم اسم السفراء، اعتباراً من القرن الرابع عشر - لقب يرجع إلى البندقية - وهم محميون طبقاً لوضع خاص. وكانت هناك علاقات بين الشرق والغرب: يتلقى شارلمان سفيراً من خليفة المسلمين عام (807)م. ويحاول ملوك فرنسا أخذ العدو من المسلمين من الخلف وذلك بالتحالف مع المغول، وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

وأبرم الملوك معاهدات فيما بينهم، وأخذوا يسوون خلافاتهم عن طريق التحكيم، من قبل شخص ملوكي ثالث - البابا أو الامبراطور في أغلب الأحيان. وتطور قانون الحرب، خصوصاً من أجل وضع حد للأعمال العدوانية «الهدنة، وقف إطلاق النار، معاهدات السلام»(2) ومن أجل «تسوياتها، ومعاملة الأسرى» ولقد أدى نمو التجارة أثناء السلم، إلى ظهور القناصل اعتباراً من القرن الثاني عشر.

❖ **وتلعب الكنيسة دوراً جوهرياً خلال فترة العصور الوسطى بالكامل:**

لم تعرف المسيحية حدوداً، عندما يتعلق الأمر بالأديرة والجامعات «المكونة انطلاقاً من الطراز نفسه، اعتباراً من نهاية القرن الثاني عشر. وكانت اللاتينية، اللغة المشتركة لرجال الكنيسة، ورجال الدين والعلمانيين من المثقفين، حتى مع مشروع اللغات الوطنية في التشكل، انطلاقاً من اللغات ذات المصدر اللاتيني «مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية»، ومن اللغات (البربرية) (الإنجليزية، الألمانية، الفلمنكية... الخ». ولم يكن البابا ملكاً دنيوياً فقط، يحكم الدول الحبرية حول روما، منذ القرن السابع، بل هو حارس العقيدة الدينية أيضاً، ويجسد بهذا الاسم، سلطة عالية.

وكان البابا ينظم الحروب، كما فعل في الحروب الصليبية ومذابحها. فكانت عمليات الإبادة ضد الإسلام، تعتبر من عمليات الهدي المسيحي. كما كان يرسل البابا الفرانسيسكانيين والدومنيكيين بحجة مطاردة الهرطقيين «هنا أصل محاكم التفتيش، كما حدث في إسبانيا».

مجتمع الدول المستقلة:

❖ **قسمة المجتمع الدولي إلى دول مستقلة، يحدث منذ نهاية القرون الوسطى:**

تطابقت نهاية القرون الوسطى، مع تحول اقتصادي وسياسي وديني في أوربا. إذ حل اقتصاد السوق محل اقتصاد القوت، أو المؤونه. حيث أخذت السلع بالانتشار، أبعد فأبعد، وبدأت الرأسمالية بالظهور في القرن الخامس عشر.

وعلى مستوى التنظيم السياسي، فرض الكيان الإقليمي الأكبر نفسه: إنها الدولة. إذ توسعت الإقطاعيات التي قامت على الروابط الإقطاعية، لدرجة أن أصبحت دولاً، حيث جرى امتصاص بعضها

للبعض. وفقدت المدن في معظم الحالات، الإستقلال الذي حصلت عليه في القرن الحادي عشر والثاني عشر. وأصبحت كلمة الشعب أو الأمة، تشير في البداية، إلى مجموعة إنسانية من أصل واحد «ولادياً»: وتجمع المشاركون في الجماعة، وفي الأسواق، وفي المجامع الكنسية من جديد، في «الأمة». وتطور استخدام الكلمة اعتباراً من القرن الرابع عشر. وشجعت حرب المائة عام (1337-1453) على ظهور الوعي الوطني الكامل في كل من فرنسا وانجلترا. ولم تعد كلمة «الأمة» مرجعاً علمياً في نصوص رجال الدين: بل أخذت تطابق إحساساً أو عاطفة تعيش شرعياً حيث تشهد عليها نصوص كثيرة.

وتَعَلْمنَت الدول «أصبحت غير دينية»، وأخذت السلطة السياسية، تصبغ بالمهابة والتقديس، على الدوام. وانخفضت قوة الكنيسة، وتراجعت اللغة اللاتينية، خصوصاً بين النخبة، وحلت محلها اللغات المحلية. وتقاسمت البرتغال وقشتالة (CASTILLE) المناطق في العالم الجديد، مع تفضيل المفاوضات بشأن معاهدة «تورد سيلاس -TORDESIL) (LASعام (1494)م. بدلاً عن احترام البراءة البابوية، للاكسندر التاسع عام (1493)م. المفروض أنه وزع هذه «المناطق بدون مالكين». وتتحالف فرنسا مع القوى البروتستانتية، ومع الإمبراطورية العثمانية من أجل الصراع ضد هيمنة هابسبورغ الكاثوليكية»(3).

❖ ظهور الدول، يغير شروط ممارسة العلاقات الدولية:

هناك، حيث كانت تمارس السلطة الإقطاعية على الأشخاص، في حين مورست سلطة الدولة على الأرض. وكان على الملك، أن يعرف، إلى أي حد تمتد سلطته. ومن أجل أن يحمي نفسه ضد التهديدات الخارجية، وجب عليه أن يقيم جبهة «للمحافظة على الحدود». فالأرض المحددة بحدود، هي إذن مشاركة في الجوهر من قبل تابعيه للدولة. والدولة كانت تدار من عائلة أميرية، أسست قوتها على الحرب، وعلى وسيلتها،

الجيش. ومن أجل تحويله، لجأ الحكام إلى فرض الضرائب، وبهذا حدث نقص في الترابط بين الإقطاعيات شيئاً فشيئاً، التي كانت تشير إلى خصوصية القرون الوسطى. وأخذت الحرب بالسماح في توسيع أراضي الدولة، وعندئذ في فرض ضرائب جديدة على السكان الذين يقطنون فيها، وبالسماح للدولة أيضاً بالعمل على احترام النظام الداخلي، مع امتلاك العنف المشروع، وتؤكد الدولة على احتكارها للوظائف، التي كان يقال عنها إنها «حق إلهي»، و«حق السلطة في تطبيق القانون وفي سك النقود».

كذلك، ترتيب العناصر التي تحدد الدولة، حسب القانون الدولي: أرضاً ومكاناً، ونظام الحكومة «السلطة الحاكمة»، وتصبح تطابق الدولة مع ملكها في القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر.

وتنتظم العلاقات الدولية نهائياً. وشغلت الحروب مكاناً هاماً في حياة الدول. وأصبح القانون الدولي مقسماً بين قانون الحرب وقانون السلم. وتستمر المعاهدة والتحكيم في الاستخدام.

وتأسست الدبلوماسية عن طريق إنشاء وزارات الخارجية والسفارات الدائمة، كذلك بواسطة تنظيم وضع الدبلوماسيين والقناصل، وتتطور العلاقات البحرية، وتتأكد القوة التجارية التي كانت لـ: «جين GENES ثم البندقية، ثم لاهاس ثم هولاندا، أخيراً لانجلترا» نتج عن ذلك، قانون البحار الذي بات محدداً أكثر «مبدأ التكافؤ» - الشكل الأول لـ«نصف الدولة الأكثر رعاية» - وقد ظهر في المجال التجاري. وفي تلك الحقبة، تصدر نظام الاحتلال الحقيقي والاستعمار، من استعمار أمريكا، الاستيلاء على الأراضي من قبل الملوك. وتحددت المبادىء الكبيرة في (القانون الدولي)، في نهاية القرن الثاني عشر، وهو تعبير اخترع من قبل جيرمي بنتام «JEREMY BENTHAM»:

❖ وتحل الأمة محل الملوك كأساس للسيادة:

لقد حلت شرعية الأمة محل الشرعية الملكية كحق إلهي، مع إنجاز نظرية الدولة/ الأمة، كنتيجة للثورة الفرنسية - مبدأ كل سيادة. يكمن في الأمة بصورة رئيسة «الفقرة الثالثة في تصريح إعلان حقوق الإنسان والمواطن»(4) - ومن الجدير بالملاحظة أن عبارة الأمة قد تغلبت على عبارة الشعب: ففي حين كانت السيادة الوطنية، في قلب إعلان حقوق الإنسان والمواطن لعام (1789)م، فإن «سُيادة الشعب» لم تفرض نفسها، إلا في دستور عام (1793)م في فرنسا. ولم تدخل مطلقاً في التطبيق العملي.

وسيحاول الاتجاه الاشتراكي معارضة الفكرة القومية، لكن دون نجاح وذلك بالتضامن البروليتاري «العمال ليس لهم وطن، ولا يمكن أن تقتطع منهم، ما ليس لديهم [...] الغوا استغلال الإنسان من قبل الإنسان، وبأنكم تلغون استغلال أمة من قبل أمة أخرى. وستسقط كذلك العداوة بين الأمم نفسها ...» بيان الحزب الشيوعي عام (1848)م.

التوازن عن طريق القوة النظرية الواقعية في العلاقات الدولية:

الواقعية مؤيدة للعقلية في السياسة. ويُستوحى تحليلها من فلسفة مكيافيلي، وخصوصاً هوبس HOBBES، وحيث وصف ليفياثان LEVIATHAN العالم في الوضع الطبيعي، عام (1651)م كخلعة للغرائز النرجسية -المغرورة- للإنسان «حيث هناك لا وجود لحق، فليس هنالك ظلم». والمجتمع الدولي مشكل من دول، بدون قوة مشتركة، بالنسبة للواقعيين، إذن هو من الطبيعي فوضوي. فالدولة بتلاحق مصلحتها الخاصة، وبالدفاع عن مصالحها، يقود ذلك، إلى التعدي على أولئك الآخرين، وليس هنالك سوى خطوة لتجعل من الدولة قوة. وقد وصف توسيديد THUCIDYDE من قَبْلُ، عملية تطور العالم اليوناني: تبدأ الدولة بتسليح نفسها من أجل أن لا نقع تحت طغيان دولة أخرى، وما أن تصبح مجهزة بمعدات عسكرية

قوية، فإنها تصل إلى ذلك الهدف بالاستدلال لتكون محمية أكثر، وما أن تقوم بذلك، حتى تنتقل لوضع الدول المجاورة لها تحت وصايتها، وتصبح بالتالي امبريالية، لأنها لا تبحث إلا عن الدفاع عن مصالحها. وإن الموازنة الوحيدة لوقف هيمنة قوة كبرى تكمن في نتيجة تحالف الآخرين، ومن هنا البحث الدائم لتوازن القوى.

تقود هذه الرؤيا التي تسمح باستخدام القوة في العلاقات الدولية، وبسهولة، إلى سياسة مجردة من القيم الأخلاقية. ولقد نظر كل من هيجل وهانس مورغانتو في «سياسات بين الأمم (1948)م، ورايمون آرون، في سلام وحرب بين الأمم (1962)م، نظروا للواقعية في السياسة الدولية. إذ لا يلعب القانون الدولي، بالنسبة لهؤلاء الكتّاب، سوى دور مُتَخَلِّف. ويعتبر هيجل أن «حق الناس» يمكن أن يؤدي خدمة، في أن ينقذ ما يمكن أن يكون لهم من حريات، خاصة بالنسبة للأشخاص العاديين في حالة النزاعات أو الأزمات، لكن لا يمكنه أن يبطل النزاعات بين الدول، نزاعات حيث فيها الحرب هي الحل الطبيعي، ويتجنب رايمون آرون، الخوض في دور حق الدول في العلاقات الدولية.

لقد سمحت الواقعية بممارسة الحرب في العلاقات بين الدول ولزمن طويل:

تحافظ الدول على علاقات، وصفها رايمون آرون - على أنها «الدبلوماسية الاستراتيجية»، فالدبلوماسي والعسكري، هما الفاعلان في العلاقات بين الدول، ويأخذ كل منهما الدور الأول بالتناوب، طبقاً لما تكون عليه الدول، في حالة حرب أم سلم، «وأيضاً بحيث لا تكون الدبلوماسية غائبة تماماً عن الحرب مطلقاً، وبحيث يكون للجيش دور الردع أو التهديد زمن السلم» فالحرب هي إذن استمرار للدبلوماسية بطرق أخرى» طبقاً للصيغة المشهورة لكلوزفيتس، فما أن تعجز دولة ما عن تحقيق ما تصبو إليه، بالطرق الدبلوماسية، «على سبيل المثال تعجز عن تحقيق سياسة موفقة

عن طريق التحالف، أو طريقة أخرى، عندها تلجأ للحرب، عسى أن تسمح بتحقيق ما تصبو إليه.

وقد فتح القانون الدولي، الطريق أمام الحرب على نحو متزايد كعلامة لتطوره، كما نظم القانون الدولي، وضع الحياد الدائم للدول، كما هو الأمر بالنسبة لسويسرا عام (1815)م، وبلجيكا عام (1831)م.

يعتقد المفكرون الواقعيون بـ «حدود النظام الدولي»:

النظام، هو مجمل عناصر مترابطة، يمكن أن تكون مستقرة أو متحركة. وتتحرك طبقاً لقوانين محددة. فالسلطة المحددة من قبل رايمون آرون هي: «قدرة وحدة سياسية ما، على فرض إرادتها على وحدات أخرى»(5). وهي توزع بين الدول تبعاً لعوامل مادية بصورة رئيسة «مناطق، ثروات، سكان، جيوش»، ولا تعتبر المنظمات الدولية، فاعلة حقيقية عن طريق النظام، بل كانعكاس لتقاسم السلطة بين الدول. كما أن النظام بين الدول، بالنسبة لبعض المحللين، الموضوع الأساس فيه، هو معرفة قوانين النظام ومفاتيح استقراره! «سواء عن طريق توازن القوى، أم عن طريق هيمنة قوة ما»(6).

التحليل الليبرالي للعلاقات الدولية: السلام عن طريق الترابط:

لقد استند المختصون في هذا الموضوع، وبدرجات مختلفة، على القانون، منظم العنف بين الدول، كما بين الأفراد. إذ يعتبر كونفوشيوس، الفيلسوف الصيني «من القرن الرابع قبل الميلاد» أن النظام الاجتماعي يجب أن يكون متناغماً مع نظام الطبيعة. ويجب على هذه القاعدة أن تطبق، ليس فقط على الناس، بالنسبة للشعب نفسه، بل أيضاً على الشعوب في العلاقات التي ترعى ذلك. ويدين الفيلسوف الصيني ما أوتسو (MAO TZU)، بعد قرن من ذلك، بشدة، الطبيعة الإجرامية للحروب، في قلب حقبة الممالك.

ويقترح غروتيوس (GROTIOS) أحد مؤسسي القانون الدولي، في أوربا، في القرن السابع عشر، انشاء جمعية أمم، حيث ستسمح بالتحكيم، وبالعمل أن يسود النظام، وضمان احترام حقوق الإنسان.
ودعا الراهب امريك كروسيه EMERIC CRUCÉ في عام (1623)م اليهود والأفارقة والهنود في كتابه LE NOUVEAU CYNÉE إلى اتباع مشروعه الدولاتي بالذي يضعه تحت إدارة البابا، على أن تكون البندقية كعاصمة، كنظام دولي للتحكيم الإجباري، وسيكون له كنتيجة طبيعية، القيام بإجراء من التدخل الجماعي ضد الملك الذي يرفض التحكيم. ويعطي كروسيه لهذا المشروع بعداً اقتصادياً، يستند على حرية التجارة، والنقد الموحد.
وصاغ العديد من الباحثين مشاريع «خطط» من أجل جعل السلام محدداً: فكتب غوتفور دويلهلم فون ليبنتز كتابه CONSILIUM AEGYTIANORUM عام (1670)م. كما كتب ويليام في مؤلف كتاب محاولة باتجاه السلام الحاضر والمستقبل في أوربا عام (1694)م. وهناك آخرون كثيرون.

ويستبدل الليبراليون، الحرب بالترابط:

لقد جرى تفسير التقدم في المدرسة الليبرالية في العلاقات الدولية، بمأزق الحرب، ففي حين يفكر الواقعيون «علـى رأسـهم كلوزفيتـز»، بأن الحرب، استمرار طبيعي للسياسة بين الدول، فإن تحديث التقنيات وتعبئة الجماهير، جعلت الحرب أكثر دموية، ومكلفة جداً في جميع المجالات. إذ تسببت الحرب العالمية الأولى بـ (10) ملايين قتيل، بما في ذلك القتلى من المدنيين، في حين تسببت الحرب العالمية الثانية بمقتل (40) مليون. وتتحدى «الحرب الشاملة» التي تتقاوم فيها الإيديولوجيات المتناقضة – ويجري تعبئة الأمم بالكامل فيها، وبهذا فإنها تتحدى كل استخدام عقلي للحرب. وانتهى الأمر، بأن جعل ظهور السلاح النووي في عام (1945)م، جعل الحرب الشاملة غير معقولة.

ويعارض الليبراليون الترابط و«التضامن الدولي»، على ضوء الرؤيا الواقعية للعلاقات الدولية، بل يجب إقامة ثلاثة عوامل للتقارب بين الشعوب: الديموقراطية، والتجارة، وعمليات المجتمعات الدولية المؤسساتية.

تناقضات القانون الدولي:

تلازَم التفكير بالقانون الدولي مع ظهور الدول المستقلة. وكما فكر أرسطو، فالدولة في اليونان، جمعياً سياسياً ومتجانسة ثقافياً. ويعتبر أرسطو بأنه الأب لمدرسة القانون الطبيعي. وبالنسبة له، الطبيعة اجتماعية، والإنسان كائن اجتماعي بالسليقة - «حيوان سياسي» - يطمح بالعيش في مجتمع. ودمج القديس توما الكويني «من القرن الثامن» الميلادي، هذا المفهوم مع رؤيا مسيحية، وأسس عقيدة للعدل الاجتماعي أيضاً. ثم جرت «عَلْمَنَةُ» القانون الطبيعي في العصر الحديث. وتتحقق الطموحات الجديدة للسلام والنظام عبر الدولة في نطاق القانون الطبيعي، الذي لا يعتمد على الدين، بل على العقل.

وطبق الراهب الدومينيكاني فرانسيسكو دوفيتيريا (1480-1546)م مدرسة القانون الطبيعي، على «المجتمعات في الدول ذات السيادة». فالدول ذات السيادة حرة، لكنها بحاجة للعيش في مجتمع، كما هو الحال بالنسبة للأفراد. فمجتمعات الدول ذات السيادة هي ضرورة - تماماً كحق الناس الذين يسوسونها، والذين يشكلون جزءاً متكاملاً من القانون الطبيعي. كما يرفض فيتوريا استخدام العنف لفرض العقيدة المسيحية على الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين، بحيث يجب أن تكون الكرامة الإنسانية معترف بها. وهو يسمح بالمقابل، باسم الحرية بالانتقال، كحق الإسبان في الإقامة في مناطق الهنود الحمر، وكذلك حق هؤلاء الآخرين بالمجيء لإسبانيا والعيش فيها. ويسمح أيضاً باسم حرية التبشير، بحق البعثات التبشيرية الإسبانية بالوعظ بالعقيدة المسيحية، دون أن تُقْبل هذه العقيدة بالتبادل.

ويعتبر الهولندي هوغو دو غروت - المسمى غروتيوس- (1583 - 1645) م الأب للقانون الدولي، وأثَره الرئيس في هذا المجال، المعاهدة المكتوبة باللاتينية في عام (1652)م، تحت اسم «الحق في الحرب وفي السلم»، وترجمت إلى جميع اللغات الأوربية عام (1758)م، حيث جاء فيها: «لكون الدول ذات سيادة، يجب أن تكون هذه السيادة محددة بقوة وحيدة هي القانون، إذا لم توجد منظمات عالمية تجمع الدول. لكن غروتيوس، علّمَنَ الحق الطبيعي، بخلاف أسلافه، وقال: «يتشكل القانون في بعض مبادئه الرئيسة، القانون العقلي الذي يجعلنا نعترف بأن عملا ما هو أخلاقي، وهو شريف أو غير شريف، وذلك طبقاً لتلاؤمه أو عدم تلاؤمه، بالضرورة، مع ما له طبيعة معقولة أو اجتماعية». ويتميز هذا القانون الطبيعي، عن القانون الإرادي الذي ينتج عن إرادة الأمم، ويتوضح، بواسطة الاتفاقيات بين الأمم. وتحدد القواعد العملية للقانون الإرادي، العلاقات الدولية، لكن يجب أن تكون متطابقة مع مبادىء القانون الطبيعي.

❖ الوضعية LE POSITISME

وهي فلسفة أوغست كونت التي تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية، مهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة. وتعتمد كل فلسفة على معرفة الوقائع، وعلى التجربة العملية، كفلسفة سبنسر وستيوارت ميل ورينان ... الخ.

لهذا، فالقانون الإيجابي المعارض للقانون الطبيعي، هو القانون مهما يكن، وليس ذلك الذي يجب أن يكون، إنه قانون كيفي وعارض، وإذا كان كذلك، فهو دون منطق، ويمكن أن يعتبر السفسطائيون والكلبيون في القديم، كالمخترعين للقانون الإيجابي: فبالنسبة لهم، كل شيء هو شأن من المشاركة، أو الاتفاق، والدولة هي تَشَكّل مصطنع، وليس طبيعياً. وجعل المفهوم الوضعي في القانون الدولي، وسرعته كبيرة على نجاحات،

على نحو أكثر من مدرسة القانون الطبيعي. وإنه صحيح أن ذلك قد تطابق مع مصالح الملوك المستبدين.

وهناك كاتبان آخران نَهَّجا القانون الدولي الإيجابي في عصر النور! موزير (MOSER)، (مبدأ حق الناس) (1750-1752)م وجورج فريدريك دومارن في «ملخص حقوق الناس الحديث»، القائم على المعاهدات. ويعتبران، مثلهم مثل فاتل، أن المجتمع الدولي، مجتمع مشكل من دول ذات سيادة ومتساوية. والقانون الدولي لا يهتم بالأفراد، وهو نتيجة إرادة وموافقة الدول ذات السيادة «الموضحة بالمعاهدات ضمنياً» وتقدر الدول التزاماتها تجاه العلاقات الدولية، وتستطيع استخدام الحرب من أجل تسوية اختلافاتها.

ووصل الوضعيون الإراديون إلى قمتهم، في القرن التاسع عشر إذ تخلصوا من ورقة التوت التي كانت المرجع في القانون الطبيعي، وذلك باعترافهم بأنه لا وجود إلا للحق الإيجابي. ويعتبر (جيلنك تربيل) العالم الألماني، زعيم المدرسة الإيجابية الألمانية، أن الدولة هي مصدر القانون، فالقانون يصدر إذن عن إرادة الدولة. ويعمق تربيل تحليل القانون الدولي الإيجابي بتزاوجه مع المنطق الإرادي لفاتل.

وانتهت العقيدة الوضعية إلى أن القانون الدولي، المسمى (الكلاسيكي) هو ذلك النظام الذي يشكل حجر الزاوية في مبدأ سيادة الدولة في علاقاتها مع الدول الأخرى. وأن القانون الدولي يؤدي خدمة في «تسوية الخلافات بهدف التعايش» ومتابعة «الأهداف المشتركة» وتربط الدول في مجال التسويات ضمن القانون الدولي، والصادرة عن إرادة الدول. وتتوقف حرية دولة ما إذن عند بدء حرية دولة أخرى.

❖ ويحاول رجال القانون تجاوز هذه التناقضات في الحقبة المعاصرة:

يتساءلون بصورة أقل عن القانون -وعن أساسه الإيديولوجي- إن السمو والعظمة هي المشيئة الوحيدة للدول - أكثر من المشيئة بوظيفته. وإن وجود القانون الدولي، هو ليؤدي خدمة لتأطير عمل الدول في مجال العلاقات الدولية. وتميل تحليلات رجال القانون نحو الذرائعية، فالدول ذات سيادة، ومع ذلك فهي تخضع للقانون الدولي.

ويرفض هانس كلسون ومدرسته «المعيارية NORMATIVISTE». المؤسسة في ڤيينا، اعتبار أي شيء آخر غير القانون الدولي. ولا تتميز الدولة عن القانون، هي إذن القانون، إذن فالقانون الدولي مندمج فيها، وتنتهي سيادة الدولة إلى الذوبان في المعايير التي ساهمت الدول في إقامتها. ويصبح القانون الدولي، في حدوده القصوى، تتويجاً لنظام القانون الوطني. «OBJECTIVISME SOCIOLOGIQUE»وتتقارب عقيدة الموضوعية الاجتماعية الممثلة بجورج سيل -وهي العقيدة النظرية التي تؤكد على الحقيقة الموضوعية المتميزة عن الخبرة الذاتية- تتقارب مع مدرسة القانون الطبيعي: «ينتج المجتمع الدولي، ليس عن التعايش، وتجميع الدول، بل، على العكس، من تداخل الشعوب، بالتجارة الدولية». ويضيف، أن القاعدة القانونية هي «أمر اجتماعي، يترجم ضرورة تَوَلُّدَت عن التضامن الوطني، فلماذا لا تؤدي خدمة في أمور القوانين الدولية التي تطبق على المجتمعات الدولية؟. ويتحول عندئذ الرابط الاجتماعي بين الأفراد إلى شعور حقيقي بالانتماء المجتمعي»(7).

ولوحظ أيضاً، خلال العديد من السنين -أثناء المنافسة شرق- غرب السيطرة الإيديولوجية على القانون الدولي- ووجه النقد إلى القانون الدولي، بحجة أنه قد أفرط في استخفافه بحق الشعوب، وأضافوا بأنه يؤدي خدمة لهيمنة الدول الرأسمالية، فطالبوا بالتعايش السلمي.

واعترض قانونيو العالم الثالث من جانبهم على القانون الدولي، وبحثوا عن نزع الاستعمار بواسطة «حق الشعوب في تنمية نفسها بنفسها» وطالبوا بإنشاء نظام اقتصادي عالمي جديد يضمن المساواة لبلادهم مع البلدان الرأسمالية.

احترام القانون الدولي:

❖ تفوق القانون الدولي على القانون الوطني، ضرورة نظرية:

تعتمد طبيعة القانون الدولي على العلاقة بين القانون الدولي، والقوانين الداخلية للدول.

نظرياً، فلا يمكن أن يكون للقانون الدولي، صفة القانون الدولي دون أولوية على القانون الداخلي. ولأن الدولة ذات سيادة فيجب أن يكون لديها قانون. ولأنها تلتزم بالقانون الدولي، فيجب أن تحترم التزاماتها. إذن من المنطقي أن تتكيف مع حقها الخاص بالالتزامات التي اتخذتها حيال الدول الأخرى. وتعترف معظم الدول بتفوق القانون الدولي، لأن «القانون الدولي هو جزء من قانون الأرض»(8).

❖ الطبيعة الإجبارية للقانون الدولي، تفرض مشكلة التصديق:

نادراً ما تقبل الدول تحديد سيادتها في النقطة التي يمكن أن يصبح فيها خرق القاعدة مُقَرّاً من قبل المجموعة الدولية. ويخضع الإقرار ضد الدولة التي يُدّعى أنها اعتدت على السلم العالمي، إلى مزلاج مزدوج، وتستطيع القوى المهيمنة وحدها رفعه: إما- سياسيا بالتصويت في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وإما -عسكرياً ومالياً- وحدث ذلك بالنسبة لكوريا عام (1950)م والعراق عام (1990)م، وسمح ذلك بشن مثل تلك الميكانيكيات في شروط مطابقة لميثاق الأمم المتحدة، لحد ما «من الفصل الثامن»، الذي يفسر كيفياً، طبقاً لمواقف الدول الدائمة العضوية، أو بعضها، المهيمنة على مجلس الأمن وقراراته.

يضاف إلى ذلك، تكون الاجراءات نتيجة الاتهام عن مسؤولية الدولة المتهمة، وآليات التصديق المتوقعة في المنظمات الدولية معقدة، لا بل متناقضة. ونادراً ما تكون فعالة، لهذا من المفضل استخدام الدبلوماسية.

❖ تبقى القوة الحافز الأساسي في العلاقات الدولية، على الرغم مما يسمى بالعولمة، وضعف الدول وفتح الحدود:

يكرّس المبدأ القانوني للمساواة بين الدول، على أنه المبدأ المؤسِّس للقانون الدولي، لكنه متناقض مع الحقيقة الدولية. فالدول غير متساوية في كثير من المجالات! عدد السكان، المساحة، المصادر الطبيعية. وعدم المساواة الأشد بروزاً، عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية.

كل شيء يجري كما لو كنا نعيش في عالم ذي ثلاث مراحل، أو درجات، الدرجة الأولى، توجد مجموعة الأمم التي لها المساواة السامية بين الدول نظرياً من حيث المبدأ، وذلك للتعبير عن المنظمات الدولية في نظام الأمم المتحدة، لكن يراد بالجمعية العامة للأمم المتحدة، التمويه، بأنها تمثل «الديموقراطية بين الأمم»(9) فالعديد من النصوص الادعائية التي يتم تبنيها كل عام، هي مع ذلك، دون القدرة على تطبيق ما يجب من القانون على القوى الاقتصادية والسياسية.

أما الدرجة الثانية، أو المستوى الثاني، فهو محفوظ في الواقع لمجموعة صغيرة من الدول: البلدان الرأسمالية الصناعية ذات المستوى العالي. ولهذه البلدان مؤتمراتها المحافظ عليها دورياً مثل منظمة التعاون والتنمية الإقتصادية، ونادي باريس، ونادي لندن... الخ. وهي تنتظم في المجال الاقتصادي في عدة تنظيمات مثل «الاتحاد الأوروبي، ومؤتمر التعاون الاقتصادي آسيا -المحيط الهادي (APEC)... الخ. كما أنها تسيطر على المنظمات الدولية الشاملة عبر تنظيماتها الرئيسة وعلى المنظمات الأكثر أهمية»(10).

في نطاق هذه المجموعة السابقة نفسها، فيها بعض البلدان، ذات امتياز أكبر، ولها وحدها الإمكانية للإنتقال إلى المستوى الثالث في النظام الدولي. وتقسم هذه المرتبة إلى شقين: الشق السياسي، الذي لا يحتفظ به، إلا للفئة المخصصة حصراً للأعضاء الدائمين في مجلس الأمن: خمس دول، تملك مفاتيح هذه المرتبة، والتي هي - عن طريق الصدفة الغريبة - المالكة للأسلحة النووية. أما الشق الثاني، فهو الشق الاقتصادي: المشكل من مجموعة الـ «٧» «السبعة»، مشكلة من سبعة بلدان، الأغنى في الكرة الأرضية، وهي تميل أو تطمح أن تصبح «مجلس إدارة للعالم» وتفرض وجهات نظرها على الشؤون الاقتصادية المتعددة، بل أيضاً السياسية.

وهناك مستوى خاص، يحتفظ به، من الطبيعي، للأقوى من بين الدول على الكرة الأرضية، كونها القوة الاقتصادية وأيضاً السياسية وعسكرية في آن واحد. وللولايات المتحدة وحدها هذه المرتبة بالتأكيد، وأصبح لها الوسائل لفرض إرادتها على العالم منذ انهيار الإتحاد السوڤياتي. فهي تمتلك قدرات ونفوذاً لا يجاريها فيها أحد. ويعطيها دورها المهيمن في الأمن الأوربي، وفيما يسمى بالشرق الأوسط، وخاصة في منطقة الخليج العربي - الفارسي، وفي آسيا، لحماية مصالحها، وتمركز أساطيلها التي تهدد بها من يحاول التعرض لهذه الهيمنة، يعطيها أيضاً دوراً متقدماً في مجال المنافسة الاقتصادية الدولية.

ويقدم القلق والهم المستمرين الذين يهيمنان على الدول الصغرى، التي تخشى من هيمنة الدول الكبرى وحماية نفسها من هذه الهيمنة بقدر الإمكان، يقدم استدلالاً واضحاً، أن ظاهرة القوة المهيمنة لم تختف، لا بل زاد أثرها على العلاقات الدولية، إلى درجة مكشوفة. مع ذلك، فهذه الدول المسماة بالمهمشة، تحاول التعلق بدبلوماسية متعددة الجوانب، تسمح لها بالوجود وتوضيح أفكارها وزيادة صراخها، عساها تستطيع مقاومة ظاهرة (التبعية) للقوى العظمى، ووجدت الدول الصغيرة في الجمعية العامة

للأمم المتحدة، الطريقة المناسبة للتأكيد على وجودها وكذلك دورها في هذا العالم، نظرياً، على الأقل، وأن تتفاعل مع الأحداث الدولية، بمقدارما. وبالتالي أن تضمن المنظمة سير عمل دولي أكثر مساواةً، وأكثر عدلاً في المجتمع الدولي.

❖ تبدلت عوامل القوة في الحقبة الراهنة:

حيث أضحت، قوة الدولة محددة بطاقاتها على التأثير على العلاقات الدولية. كذلك في قوة تأثيرها على الحياة الداخلية. وهذا يعني قبل كل شيء، بأن تجد أمة ما المصادر التي تسمح لها بالبروز على المسرح الدولي، إذ أن القوة مفهوم نسبي، يُشْتق إذن من مقارنة جملة عوامل داخلية.

ويبدو أن الأرض فقدت مدلولها كعامل قوة، حيث كان ذلك العامل في الأرض قديماً، حينما وجدت الدولة الأساس لسيادتها. فكانت الأرض مصدراً للثروة. ليس فقط لأن الحروب دارت على الأراضي «ومن هنا الأهمية الاستراتيجية»(11) للأرض، بل كانت الأرض، رهاناً هاماً. لكن اليوم، أصبح غير مجد للبلد ما أن يمتلك مساحة واسعة ومزوداً بانتاج زراعي ومواد أولية، في عالم مفتوح ومتغير، أكثر فأكثر. فلم يتمكن الاتحاد السوفياتي السابق، من تجنب انهياره الإقتصادي على الرغم من اتساعه الهائل- في حين وطدت كل من ألمانيا واليابان، اقتصاديات قوية على أراض ضيقة، بعد الحرب العالمية الثانية. كما لم تعد المنافذ على البحر تشكل عوامل حاسمة. وأصبحت الموانيء، مثلها، مثل الشركات البحرية الكبرى، مشروعات عالمية غاطسة في عالم شديد التنافس.

فهل أصبح الاقتصاد العالمي ولهذه الأسباب، لا وطن له؟ (ATERRTORIALE)، كلا في الحالة التي يبقى على أساس أنه اقتصاد مادي. وإن إحدى الرهانات الكبرى للعولمة، هو المحافظة على المنافسة على المناطق، ولهذا، ستبقى المناطق الغنية والواسعة ورقة رابحة. باختصار، فالأرض ليست متغيراً، بل تشكل عاملاً ثابتاً في معادلة القوة.

فبدون الأرض، بالنسبة لبلد ما، بلد لا شيء، لكن لا تضمن له الأرض الواسعة، القوة.

إن الجغرافيا السياسية، التي تختصر بـ«جيوسياسية»، هي تنمية الوسط الجغرافي الذي تسجل فيه السياسة الدولية، كما يشير اسمها. وقد عرفت الجغرافيا السياسية ساعة بروزها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ويعتبر الألماني فريدريك راتزل FRIEDRICH RATZEL، بأنه عالم الجغرافيا السياسية الكبير، وكذلك الألماني كارل هوشوفر KARL HAUSHOFER، حيث يعتقدان أن الدول كمنظمات أو هيئات جغرافية، حيث الحدود مدعوة لأن تتغير، ويجردانها من مفهوم «المجال الحيوي». أما ليبنسروم LEBNSRAUM فيعتبرها ضرورة من أجل بقاء الأمة، ومن أجل أنها، في آن واحد. فالجغرافيا السياسية، بالنسبة لهؤلاء، هي «ضمير الدولة الجغرافي». ويعرض البريطاني هالفورد ماكندر (HALFORD MACKINDER) في عام (1919)م بأن الجغرافيا السياسية هي التمفصل بين الأرض المركزية. (HEART LAND) أو قلب الأرض، والجزيرة العالمية -WORLO IS) (LAND. فمن يسيطر على قلب الأرض «أوراسيا» (أي أوربا وآسيا). يمكنه أن يتسبب في فشل القوى البحرية «الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة» ويطري هاشوفر الذي يتقاسم هذا التحليل، إعادة بناء أوراسيا بواسطة تحالف (ألماني - الاتحاد السوفياتي - اليابان) في سبيل إفشال سياسة الأناكوندا (ANACONDA) التي تتبعها القوى البحرية- والأناكوندا هي أفعى ضخمة من فصيلة البوا - من أجل خنق ضحاياها.

كانت الجغرافيا السياسية قد فقدت الاعتبار بالسياسة الخارجية للنازية، لكنها تجد اليوم بعض التشجيع ثانية. وهناك لا تزال بعض المفاهيم، كالمعارضة بين القوى القارية والقوى البحرية. تحتفظ بملاءمتها، وتطبق في العلاقات الدولية المعاصرة.

الثروة الإقتصادية عامل حاسم للقوة:

يعتبر قياس الثروة الاقتصادية صعب للغاية : إذ يمكن حسابها بالناتج الداخلي الخام، وهذا ما يميز القوى الاقتصادية «المُعَولَمة» بقوة. وأدخل صندوق النقد الدولي مرشداً آخر، في عام (1993)م، الناتج الداخلي الخام (DIB) المتكافيء مع القوة الشرائية، التي تأخذ بالحساب الظواهر الأكثر قابلية للقياس «مثل الاستهلاك الذاتي»(12).

كما أن التنمية الصناعية والتكنولوجية، من العوامل النسبية للقوة، لأنها تقاس بالتقدم الذي يحققه بلد ما، بالنسبة لبلد آخر. والحالة هذه، فمن الصعب جداً المحافظة على التقدم التكنولوجي. فالولايات المتحدة، كانت في موقع ملائم لدرجة قصوى عام (1945)م، وأصبحت تحيا به مشاكل منافسة منذ مطلع الستينيات (1960)م.

ويؤثر تشكل الثروة، على القدرة، في الوقت نفسه، وتترجم القوة الاقتصادية لبلد ما، بالقدرة المالية، في أغلب الأحيان. ولقد استفادت الولايات المتحدة، زمناً طويلاً، ولا تزال تستمر بالاستفادة من دور الدولار كعملة مرجع. كما أصبح اليابان الدائن الأول عالمياً، إذ يملك سيطرة نسبية على تطور نقده.

❖ تؤثر الديموغرافيا أكثر بالنسبة للبلدان المتطورة مما تؤثر في البلدان الفقيرة:

لا تزال الصين والهند، تعتبران بلداناً نامية، مع ذلك لا تشكل الجموع السكانية، القوة، بل إن تضافر رقم السكان مع مستوى التطور هما اللذان يشكلان القوة كما هي الحال بالنسبة للولايات المتحدة اليوم، إذ أصبحت القوة العظمى الأولى على الكرة الأرضية، فهي البلد المصنع الأكثر، والأكثر سكاناً من بين البلدان المصنعة.

مع ذلك يجب أن يكون الرقم المجرد للسكان متناسباً مع النسبة المائوية للعاطلين عن العمل، لأن رقمهم يشكل عبئاً على الاقتصاد الوطني. لكن يجب التذكير، أن معظم البلدان الصناعية تعرف نقصاً في عدد الولادات، خصوصاً اليابان وألمانيا، ويقترن ذلك النقص بإطالة مدة العمر. والعجز في عدد الأطفال ينمي حصة البالغين في سني العمل، وفي نسبة الأشخاص المسنين. ويمكن أن تقود الشيخوخة الديموغرافية إلى ضعف اقتصادي وتحمل الثقل المتزايد للمتقاعدين.

❖ **تعتمد القوة العسكرية عى القوة الاقتصادية:**

يجب توفر الزمن، في الواقع، من أجل تحقيق القدرة الاقتصادية وتحويلها إلى قوة عسكرية، «وتفسر نجاحات ألمانيا واليابان في الفترة (1939-1942)م بسبب البطء في حشد خصومهما لمصادرهم المتفوقة جداً. ثم رجح التفاوت في القوى الاقتصادية، ضمن مدى قصير، عندما بدأ الحلفاء في إنتاج دبابات أكثر بأربع مرات، وكذلك في الطائرات، من إنتاج خصومهم بعد عام (1942)م، عندها لعبت هذه النتائج دورها»(13).

وإذا كان التوازن في الترسانات النووية قد فقد مدلوله، منذ نهاية الحرب الباردة، أصبحت الولايات المتحدة تهيمن اليوم في مجال الأسلحة التقليدية. فليس هنالك من بلد يعادل قدرتها على الانتشار خارج حدودها، ويعطيها هذا قدرة على التدخل في الشؤون الدولية خارج حدودها، كما يعطيها قدرة على التدخل في شؤون البلدان الأخرى، وتأمين مصالحها، وتحقيق أمنها في العالم أجمع. مع ذلك يجب أن لا نعتقد أن اكتساب هذه المميزات سيدوم طويلاً، إذا نظرنا إلى صعود الاقتصاد الصيني بقوة خصوصاً. وكذلك قد تعود روسيا للمسرح الدولي لتلعب دوراً حاسماً، وهناك احتمال تشكل تحالفات تقف أمام هيمنة الولايات المتحدة.

تمارس القوة اليوم في نطاق متعدد الجوانب:

ترجع تعددية الجوانب في العلاقات الدولية إلى مؤتمر ڤيينا، الذي نشأ عنه «ولادة حكم المديرين في أوربا»، من ثم عصبة الأمم، واليوم منظمة الأمم المتحدة. وجعلت الولايات المتحدة من تعددية الجوانب، منذ عام (1945)م، محوراً لسياستها الخارجية. ويتعلق الأمر (بفَدْرلة) حلفاء واشنطن حول قيم وقواعد مشتركة، تحت قيادتها. إذ تتجنب القوة الأمريكية الفائقة، السبيل الفظ أحياناً، من أجل الهيمنة، وتحقيق مصالحها، وذلك باتباعها طرقا فيها البراعة والحذق الدبلوماسي. فعلى سبيل المثال، تفرض الولايات المتحدة نفسها في بلدان القارة الأمريكية. كما «جَيَّشَتْ حلفاءها في حرب الخليج الثانية لتحقيق مصالحها»(14). وكانت قوى تحاول استخدام نفوذها أكثر من استخدامها للقوة، ويعطيها ذلك هيمنة على حلفائها أحياناً. كما تستخدم الولايات المتحدة شبكة التنظيمات الدولية مثل «صندوق النقد الدولي» ومنظمة التجارة الدولية، ومنظمة حلف شمالي الأطلسي، ومنظمة معاهدة جنوب-شرقي آسيا... الخ. وكذلك مجلس الأمن، لتحقيق أطماعها. ومع الزمن سوف تزداد مقاومة هيمنة الولايات المتحدة، إذ أخذت بوادر عالم جديد متعدد الأقطاب بالظهور ليحل محل الهيمنة المتفردة للولايات المتحدة.

يجب أن يصبح النظام الدولي بعد اليوم، نظاماً نتيجة ثمرة التعاون بين الدول، لا هيمنة بعضها على بعض آخر. ويجب أن تأخذ المنظمات الدولية والقوى الإقليمية دورها وتمارس نفوذاً أيضاً لتشارك في الأحداث الدولية وتساهم في حلها. وهكذا، يجب أن تتضاعف العمليات المؤسساتية في العلاقات الدولية من أجل التعايش بين الدول، وليس فقط طبقاً لمصالحها الأنانية.

ويفرض التاريخ والنظرية دواماً وتطوراً في العلاقات الدولية. ويشهد التقدم الاقتصادي والتكنولوجي والعولمة على التحول الجذري في شروط اللجوء للقوة في العلاقات الدولية، كما تشهد على تطور مستمر في المجتمع الدولي. ويجب أن يأخذ تحليل العلاقات الدولية هذين المظهرين بالحساب، ومحاولة التوفيق بينهما.

الهوامش

1 - J.COMBACU.S SUR, DROIT INTERNATIONAL PUBLIC. MONTCHRETIEN, 1995.

2 - MARCEL MERLE, SOCIOLOGIE DES RELATIONINTERNATIONALE. DALLOZ, 1988.

3 - CITÉ PAR VICTOR L. TAPIÉ. LA GUERRE DE TRENTE ANS ZEDS 1989.

4 - LE PRINCIPE DE TOUTE SOUVERAINETÉ RÉSIDE ESSENTIELLEMENT DANS LA NATION, (ARTICLE (3) DE LA DECLARATION DES DROITS DE L'HOMME ET DU CITOYEN.

5 - CF - MORTON KAPLAN, SYSTEM AND PROCESS IN INTERNATIONAL POLITICS. 1957.

6 - IN M. GRAWITZ ET JEAN LECA. TRAITÉ DE SCIENCE POLITIQUE. PUF. 1985.

7 - REFLEXIONS SUR LA RELATIONS INTERNA TIONALE. HACHET, 1991.

8 - CES EXPRESSIONS SONT RESPECTIVEMENT EMPLOYÉS PAR VATEL, F.ATTAR ET MCHEMILLIERGENDREAU. HACHET. 1987.

9- REGARS SUR LE MONDE ACTUEL 1931.

10 - LE FONCTIONNEMENT DE L(ONU).

11- PIERRE DE SENARLENS. LA POLITIQUE INTERNATIONALE, ARMAN COLIN, CURSUS, 1992.

12 - ANDRÉ CORUISIER, LA CURRE, ESSAIS HOSTORIQUE PUF, 1995.

13- DANIEL COLARD, LES RELATIONS DE (1945) Á NOS JOURS. MASSON, 1995.

14 - HENRY KISSINGER, DIPLOMATIE, FAYARD, 1996 «POUR UNE VISION RÉALISTE».

* * *

التقنيات التربوية وتحديات العصر

بهاء الدين عبد الله الزهوري

في أقل من نصف قرن اهتز العالم لحدثين كبيرين، كانا علامتين بارزتين في تاريخه الحديث، وما وصل إليه من قدرات:

الأول: القنبلة الذرية، التي ألقيت على مدينة (هيروشيما) في عام ١٩٤٥م.

والثاني: وصول الإنسان إلى القمر، في عام ١٩٦٩م.

* بهاء الدين عبد الله الزهوري: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب. عضو جمعية البحوث والدراسات. من أعماله: «الاتجاهات الجديدة في أدب الأطفال».

لقد كان الحدث الأول مدمراً ورهيباً، بينما كان الثاني سلاماً وأملاً بالمستقبل الأفضل. إلا أن كليهما كانا إعلاناً وتأكيداً لقيام عصر التكنولوجيا الحديثة.

وحالياً تتردد كلمة (التكنولوجيا) على كل لسان، الكل يهابها لمَا تأتي به من أساليب الفتك والدمار، والكل يأمل لمَا تأتي به من الخير والرفاه. وقلة هم أولئك الذين يحاولون التوقف قليلاً ليتفهموا ماهيتها، وكيف يمكن تطويعهما لخدمة المجتمع الإنساني ورفاهيته؟

ويشهد العالم في وقتنا الحاضر ثورة علمية (تكنولوجيا) متطورة، فهي ليست مجرد آلات وأجهزة (تكنولوجية)، وإنما هي عقلية جديدة، وتقنيات جديدة، كان لها انعكاساتها على التربية وأساليبها، مما جعل الدول المتقدمة تبذل قصارى جهدها لتوليد نظم تربوية جديدة، وإعادة النظر ببنية التربية، وإطارها التقليدي، ومناهجها، وطرائقها، لا سيما بعد انتشار رسائل البث الجماعية، والتقنيات السمعية والبصرية، من أجل حل المشكلات التربوية التي تجابهها.

ونحن في مطلع القرن الحادي والعشرين، نتساءل: **هل يشعر الوطن العربي فعلاً بالتحدي (التكنولوجي) الحديث، ويفهم مكوناته، ويلتمس طرق التصدي المناسبة له؟** أن مسحاً سريعاً لوضع العلم و (التكنولوجيا) في أقطارنا العربية لا يوحي بالاطمئنان، خاصة بالمقارنة بما حصل من تقدم باهر في مناطق أخرى من العالم النامي، بالأخص دول شرق آسيا، وكذلك بعض القطاعات الصناعية في البرازيل أو غيرها في أمريكا اللاتينية.

وفي هذا البحث، أحاول الإجابة عن التساؤلات التالية:

١- ما مفهوم (التكنولوجيا)؟

٢- أين تكمن أهمية تقنيات التربية؟

٣- ما مفهوم التقنيات التربوية، وما مداخلها؟

٤- مامدى الربط بين التقنيات التربوية والمستقبل؟

تطور مفهوم (التكنولوجيا)

إن كلمة (تكنولوجيا) هي كلمة إغريقية، تتألف من كلمتين، الأولى (Techno) وتعني مهارة فنية، والثانية (Logos) ومعناها علم، ودخلت هذه الكلمة اللغات الأجنبية، في أوائل القرن التاسع عشر، عصر الثورة الصناعية، وكلمة (التقنية) في العربية هي تعريب لكلمة (التكنولوجيا).

وفي العالم الغربي، كان مفهوم (التكنولوجيا) يطلق على الآلات والأجهزة التي جاءت نتيجة لتطور الجوانب التطبيقية في العلوم الطبيعية. وعندما استخدم هذا المصطلح في مجال التربية، أشار إلى الوسائل والأدوات التي واكبت ثورة الاتصال كالإذاعة، والتلفاز، وآلات العرض السينمائية، وآلات التعليم، والحسابات الإلكترونية، والكمبيوتر (الحاسب الآلي، ومختبرات اللغة، والتعليم المبرمج وغيرها).

غير أن هذا المفهوم، قد تطور ليشمل العلوم الإنسانية، بعد التقدم الاجتماعي، الذي انتشر في العالم المعاصر، وقد أبرزت الثورة العلمية المعاصرة، أهمية ربط العلم والعلوم المختلفة، بقوى الإنتاج والتنمية الاقتصادية والاجتماعية. إذ أصبح هدف العلم معالجة المشكلات الإنتاجية، وأن التغير الذي حدث في وظيفة العلم، قد ساهم إلى حد كبير في تغيير التكنيك الإنتاجي، وإعادة بناء نشاط الإنسان على أساس القوانين العلمية المترابطة مع المبادىء التكنيكية.

وأخذ مصطلح (تكنولوجيا التعليم) يتردد في الوطن العربي منذ أواخر السبعينات، مما يشير إلى اهتمام المربين في الدول العربية، بمواكبة أحدث الاتجاهات التربوية المعاصرة. كما اختلط مفهوم (تكنولوجيا التعليم) في بداية ظهوره، في الدول الصناعية، بمفهوم استخدام الآلات والأدوات في التعليم، فما تزال هناك آراء متناقضة حوله في البلاد العربية،

كما يستخدم في كثير من الأحيان رديفاً لمفهوم الوسائل التعليمية . ويستخدم حالياً وعلى نطاق واسع مصطلح (التقنيات التربوية) للتعبير عن (تكنولوجيا) التربية .

أهمية تقنيات التربية

وتتجلى أهمية تقنيات التربية في الجوانب التالية :

١- مواجهة تزايد المعرفة الهائل:

لقد ظهرت علوم جديدة، مثل **(علم السيبرنتيك)** [١] أو **(علم التحكم بالآلة والعضويات والمجتمع الإنساني)**. التي مكنت الإنسان من السيطرة على نفسه، إضافة إلى السيطرة على بيئته، ولا يتم اكتساب هذه المعرفة المتزايدة، ما لم تستخدم التربية أساليب التقنيات نفسها، وأجهزتها الحديثة في ضبط سلوك المتعلم .

٢- جعل المدرسة صورة عن الحياة التقنية الراهنة:

إننا نعيش حالياً في عصر الثورة المعرفية والعلمية والتقنية، وأصبح شائعاً استخدام أجهزة الاتصال الحديثة، في مجالات عديدة من حياتنا، لم يعدلائقاً أن تبقى المدرسة منعزلة عن هذه التقنيات التي تحسن من فاعلية التعليم وتزيد من كفايته .

٣- التخفيف من داء اللفظية في التعليم:

ويقصد بداء اللفظية، إننا كثيراً ما نستعمل (ألفاظاً) نظن أن الطلاب يفهمون مدلولاتها كما نفهمها، أو كما يفهما الشخص المرسل، ثم يتبين أنهم قد فهموا العبارات فهماً مختلفاً عما نقصد، ولا يتم تكوين المفهوم إلاَّ بإيجاد أساس حسي للخبرات التي ننقلها إلى الطلاب وهذا الأساس يتعلق باستخدام التقنيات في التعليم، حيث تتحدد المفاهيم المجردة لها، وتصبح الرسالة المنقولة من المعلم إلى المتعلم أكثر أمانة .

٤- التمكن من تعليم أعداد كبيرة من الطلاب:

إن نسبة (٤٢٪) من أفراد المجتمع العربي، هم أقل من عمر (١٥) سنة، وهم من حيث المبدأ رواد التعليم الإلزامي. وهذا يعني أن الصفوف ستكون مزدحمة بالطلاب، وسيصعب تعليمهم، من دون زيادة في النفقات، كاستخدام جهاز السبورة الضوئية، أو التعليم المبرمج، أو أشكال أخرى من التعليم الذاتي.

٥- جعل التعليم أكثر جاذبية:

لا يتعلم الإنسان إلاّ إذا توفر الدافع، أو الحافز، أو الإثارة للتعلم، وهذا ما توفره الوسائل التعليمية، فتعرض مثيرات متنوعة، سمعية وبصرية، تقضي على الرتابة والملل الذي يعاني منه الطلاب في الصفوف.

٦- زيادة فاعلية التعليم:

إن استخدام تقنيات التربية، يساهم في تحسين فاعلية التعليم، خاصة عن طريق التغذية الراجعة المستمرة، التي تبين مواضع الصواب في العمل فتعززه، ومواضع الغلط فتصححه، وتعدله نحو الأفضل [٢].

مفهوم التقنيات التربوية

إن التعريف الشائع للتقنيات التربوية هو: **أنها الوسائل والأدوات التي أنتجتها ثورة الإتصال مثل الإذاعة والتلفاز، وآلات العرض السينمائية، والتعليم المبرمج، وآلات التعليم، والكمبيوتر (الحاسب الآلي)، ومختبرات اللغة وغيرها.**

وهناك تعريف آخر يشير إلى التقنيات التربوية، على أنها عملية منهجية منظمة في تصميم عملية التعلم والتعليم وتنفيذها وتقويمها في ضوء

أهداف محددة. وتقوم أساساً على نتائج البحوث، في مجالات المعرفة المختلفة، وعلى حاجات المتعلمين، وعلى استخدام جميع المواد المتاحة البشرية وغير البشرية، للوصول إلى تعليم أقوى فاعلية، وأكثر كفاية.

ويتضمن هذا التعريف النظرة الشاملة، أي الكل المركب من الجوانب النظرية والبرامج والأجهزة، التي تستخدم بقصد الإفادة من البرامج وتخزينها وتجديدها وبهذا المعنى فإن التقنيات التربوية تتجاوز إنتاج الوسائل والأدوات من إذاعة وتلفاز وآلات عرض وبرامج تعليمية، مختبرات لغة وغيرها. لتشمل مجالات التخطيط، والتنفيذ، والتقويم، للعملية التربوية، على أساس معطيات العلم، أي التطبيق النظامي لعلم التعلم على فن التعليم.

ويتضح مما تقدم أن مفهوم التقنيات التربوية ينطوي على ما يلي

١- يشمل النظام التربوي بجميع عناصره المادية والمنهجية والفكرية.

٢- إنها وسائل عصرية تستخدم لتطوير أساليب التدريس وعملية التعلم المعاصرة لتتمشى مع حاجات التنمية الاجتماعية والاقتصادية من ناحية، وحاجات المتعلمين من ناحية أخرى.

٣- إنها إرادة فعالة في عمليات توزيع المعلومات والحقائق وتخزينها ونشرها في مختلف الصور والأشكال لمختلف مراحل التعليم.

٤- إنها تسهم بصورة إيجابية في تطوير عمليات التعليم والتعلم [٣].

وباختصار، فإن التقنيات التربوية تعبر عن تطبيق روح الثورة العلمية والتقنية على العملية التربوية، وعلى اكتساب المعلومات والآلات واستخدامها، لتطوير أساليب جديدة في البحث والتفكير، وفي التنظيم والتنقيب واتخاذ القرارات، واستثمار الموارد والإمكانيات والطاقات البشرية والمادية.

مداخل في تقنيات التربية

في موضوع التقنيات التربوية، يقصر بعضهم مفهوم التقنية على الأجهزة والآلات، والأشياء الصلبة، بينما يتوسع بعضهم الآخر بمضمون التقنية لتشمل البرامج والأساليب الفنية، بل هناك اتجاه آخر أكثر شمولاً وتكاملاً، وهو الاتجاه النظامي، الذي يرى أن التقنية هي نظام متكامل من الأجهزة والبرامج والإجراءات، التي تؤدي إلى تحقيق الأغراض بفعالية وكفاية.

وسأتناول المفاهيم الثلاثة، التي هي مداخل التقنيات التربوية، لكونها تطبيقات للعلوم المختلفة:

أولاً - تقنيات التربية كتطبيق للعلوم الطبيعية (الأجهزة والآلات):

لقد أدى تطور العلوم الطبيعية والصناعية، إلى ظهور وسائل تقنية لتحسين إنتاجية الإنسان وتيسير أعماله، فانتشرت هذه الأجهزة في الأسواق، ودخلت البيوت والمؤسسات المختلفة. فمثلاً: دخلت الأجهزة التقنية المطابخ، مما نتج عنه تناول مأكولات أفضل، وبعملية أيسر وأكفأ، وباستخدام التقنية في المواصلات تيسر نقل المعلومات إلى الآخرين لمسافة بعيدة وبسرعة كبيرة، وغير ذلك.

ولكن الإلحاح على التقنيات من حيث هي آلات وأجهزة من منتجات الصناعة والعلوم الطبيعية، قد أغفل الجانب الأهم في عملية التعليم، ألا وهو البرامج التعليمية على أسس عملية تناسب عملية التعلم. ونستخلص من هذا الاتجاه أنه يجب ألاّ تقتصر تقنيات التربية على الآلات والأجهزة من معلومات، وبرامج ظن لتحقيق عملية التعلم الصحيح.

ثانياً - تقنيات التربية كتطبيق للعلوم الإنسانية (البرامج):

ظهرت تقنيات التعليم المبرمج في أواخر الخمسينات من القرن العشرين، نتيجة تطبيق مبدأ (الاشتراط الإجرائي)[٤] مباشرة في المدارس، وكان (سكينر) صاحب هذه التقنية، والتي تطبق استخدام المبادىء الأساسية في (علم التعلم على فن التعليم).

وبعد عام ١٩٦٨م، ضعف الحماس للتعليم المبرمج بشكله التقليدي الذي طرحه (سكينر) وأتباعه، وظهرت برامج تعليمية لا تلتزم بنظرية (الاشتراط الإجرائي) السلوكية، إذ ظهرت برامج تلح على التنظيم الاقتصادي لعمليات التفكير (علم السبيرنتيك)، أو علم التحكم الآلي.

ثالثاً - تقنيات التربية كنظام شامل ومتكامل:

لقد نشأت مشكلات عديدة عن تضييق تقنيات التربية، على الأجهزة والآلات والوسائل، فارتفعت نفقات التربية، أصبحت الوسائل مزعجة للمعلم، سرعان ما كان يهجرها، وصار الاتجاه مركزاً نحو إنتاج رزم لوسائل متعددة، قابلة للحمل، ويمكن أن يأخذها المتعلم إلى البيت، ويستخدمها حسب حاجته.

كما نشأت مشكلات عن الاتجاه نحو تقنيات التربيـــة الـتي تلـــح على البرامج، سواء البرامج الذاتية أو برامج أجهزة الاتصال في التعلم، فالتعليم لا يمكن أن يقتصر على طريقة واحدة، بل يجب زيادة فاعلية الطريقة، ويفضل توسيع مفهوم تقنية التربية، بحيث تصبح نظاماً تربويـــاً، أو تدريسياً حتى تتمكن من استخدام الوسائل التقنية من آلات وبرامج لتحسين إنتاجية المتعلم، حسب الأهداف الموضوعة[٥].

ومع أن تصميم نظام التدريس، يشتق أهدافه ووسائله من التعليم المبرمج، ومن أسلوب تحليل النظم، و (السبيرنتيك) و (الكمبيوتر)، (الإيكولوجيا)[٦]، وغيرها من النظم المرنة. غير أن النظام التدريسي، ينظر إلى عملية التعلم نظرة كلية متكاملة، فالعناصر فيه متفاعلة، والكـــل أكبر

من مجموع أجزائه، و أن أي تغيير في أحد الأجزاء يودي إلى اختلال التوازن في النظام الكلي.

ويعرَّف النظام التدريسي، بأنه: **(مجموعة متكاملة من الطرق والوسائل والمعدات والأشخاص التي تنجز الوظائف المطلوبة لتحقيق غرض أو أكثر في التدريس بصورة فعالة)** (٧). وفي النظام التدريسي، يتغير دور المعلم، فلا يبقى مجرد موزع للمعلومات، بل يصبح دوره إدارياً بالدرجة الأولى، أو منظماً لشروط التعلم.

التقنيات التربوية والمستقبل

ثمة تحديان قاسيان يواجهان التعليم في الدول العربية:

الأول: إنها تريد اللحاق سريعاً بركب الدول المتقدمة، والقضاء على الهوة الكبيرة التي تفصلها عنها، وأنها تتوسل التعليم والمزيد منه سبيلاً لهذا الهدف.

والثاني: إن ما لديها من إمكانيات مالية ومادية وبشرية، يقصر عما ترجوه من تقدم سريع في هذا الميدان (٨).

ولا شك أن الجواب على هذين التحديين، ينبغي أن ينطلق من منطقه، لأن ما يومىء إليه هذا التحدي في وضوح وإصرار، هو أنه لا بد من التفكير بأساليب تعليمية جديدة، تمكن مثل هذه البلدان من **تحقيق مطلبين في آن واحد: مطلب التقدم السريع في التعليم واللحاق بالركب في وقت معقول قياساً إلى سير الزمن وخطى العصر، ومطلب الحصول على مثل هذا التقدم السريع بإمكانيات مالية وبشرية قليلة.**

ومثل هذين المطلبين لا يبدوان اليوم أمراً معجزاً، بعد تقدم الوسائل التعليمية، وبعد طرح مشكلات التربية من زاوية جديدة، ولعل البلدان

السائرة في طريق التنمية - وبينها الدول العربية - مدعوة قبل غيرها إلى اتباع وابتداع مثل هذه الأساليب الجديدة في التعليم، ولعلها المرشحة قبل غيرها لأن تكون الرائدة في هذه الشعاب الجديدة.

والمربون في الدول العربية مدعوون إلى التفكير جدياً إلى ابتداع طرق وأساليب جديدة في التعليم، متأسين بالتجربة العالمية، ومستجيبين قبل هذا لمطالب مجتمعهم ومشكلات بيئاتهم الخاصة، وهم مدعوون إلى مثل هذا التفكير اليوم قبل الغد، لأن مشكلات التعليم لاتؤجل، وقد يصلون - إن لم يكونوا قد وصلوا فعلاً - إلى طريق مسدودة. فلم يعد من الجائز، ونحن في مطلع القرن الحادي والعشرين، أن نفكر بالحاضر على ضوء الماضي، بل لا بد من نظرة مستقبلية جديدة، قوامها التفكير في الحاضر على ضوء المستقبل.

وإن صورة الغد - فيما لو استمرت الاتجاهات الحالية في التعليم - صورة قاتمة صعبة، وعصرنا كله عصر السيطرة على المستقبل، عصر ابتكار المستقبل كما يقال. وواضح أن صورة المستقبل، تشير إلى اتخاذ مبادرة جادة لاحتوائه، ولن تكون هذه المبادرة إلاّ أن نقتحم ميداناً جديداً خصباً، هو ميدان إعادة النظر في إطار التعليم وأساليبه التقليدية، من أجل ابتكار تقنيات تربوية جديدة، تتيح لنا اللحاق بالركب الحضاري، ولا تدعنا في موقف العاجز أو اليائس أمام ضخامة الهوة وضعف القدرة.

وإن هذا الربط بين التقنيات التربوية الجديدة ورسم آفاق المستقبل، ينتهي بنا إلى حقيقة هامة أساسية وهي: **أن هذه التقنيات الموعودة المرجوة، لا تعني مجرد الاهتمام ببعض الأدوات والآلات والتجهيزات، وإدخالها في البنية التقليدية للتربية، بل تعني شيئاً أوسع من هذا بكثير، إنها تعني أن نعيد النظر في بنية التربية وإطارها ووسائلها إعادة كلية، وأن تكون لنا نظرة شاملة جديدة إلى نظام التربية بكامله.**

وليس من شك في أنه قد أصبحت هناك حاجة ملحة، في كل ميدان من الميادين الرئيسة في الوطن العربي، إلى استراتيجية تحيط بمسائله

وبقضاياه، وتحدد أهدافه وتوضح المبادىء والأفكار التي ترسم مساراته، وتعين الوسائل والأساليب لاتخاذ الإجراءات الكفيلة ببلوغ غاياته، وكالشأن في كل استراتيجية صائبة، لا بد من أن يتحقق لكل استراتيجية من تلك الاستراتيجيات الشمول والتكامل في ميدانها، وأن يرتبط بعضها ببعض، وبذلك يتحقق لها الشمول والتكامل بمجموعها.

وكل استراتيجية، بحكم رؤيتها، تستند إلى الواقع الذي تنطلق منه ولكنها في الوقت نفسه تستشرف آفاق المستقبل الذي تتطلع إليه، ولذا فالرؤية الاستراتيجية السليمة لا بد لها من أن تشخص الواقع بمشكلاته وتناقضاته وإمكانياته الكامنة، ومن ذلك تمتد برؤيتها لاستطلاع ما يطوي المستقبل في ثناياه من احتمالات وتطورات. فالرؤية المستقبلية من خلال عدد من (التصورات)، أو (المشاهد) الاحتمالية، بالنسبة للصور الكامنة للمستقبل [٩].

وتنطلق استراتيجية تطوير التربية العربية من مقولتين أساسيتين:

الأولى: تؤكد على أن خير ما نواجه به تحدي الثورة العلمية التقنية وسد الفجوة التي نعانيها في مجالاتها، إنما هو تحديث العقل العربي برمته، وتمكينه من استيعاب روح العصر في صيغتها السليمة، مجردة من عيوبها وسلبياتها، إنه تحديث يؤاخي بين العلم وما يتطلبه من منهجية عقلية صارمة، وما يترتب عليه من تقنية دقيقة قابلة للتطبيق والاستثمار [١٠].

والثانية: أن منظومة التربية واحدة من جملة منظومات يشتمل عليها مجتمعها، فلا يمكن النظر إليها نظرة سليمة واقعية بمعزل عن مجتمعها، وإنما يتم فهمها على حقيقتها بإدراك صلاتها بالمنظومات الأخرى: اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية في مجتمعها. فهي بصورة عامة منظومة فرعية مع منظومات فرعية مماثلة تنبثق جميعها عن منظومة أكبر يتألف منها مجتمعها، تتبادل معه التأثيرات أخذاً وعطاء، تأثراً وتأثيراً [١١].

الخاتمة

إن المهمة الموكولة لتقنيات التربية – مهمة توليد أساليب تربوية تؤدي إلى الاستخدام الأمثل والأفضل للموارد المتاحة – تؤدي إلى زيادة مردود التربية الكمي والكيفي في آن واحد. أي أنها مدعوة – بكلمة واحدة – إلى تغيير تقنياتها المألوفة، لتأخذ بتقنيات أكفأ وأقدر وأنجع.

واللجوء إلى تقنيات التعليم، لا يعني شيئاً أقل من إعادة النظر في عملية التعليم بكاملها، ومن التطبيق المنهجي المنظم لكل حصاد المعرفة والتقنية، على عملية اكتساب المعارف واستخدامها، إنها تعني تجاوز البعثرة والهدر، واللجوء إلى استخدام كامل ومنسق لجملة المصادر والإمكانيات التي يقدمها لنا عصر (التكنولوجيا).

ولا ننسى أن شعار الأساليب التربوية الحديثة، هو الشعار الذي سرى في شتى ميادين الحياة المعاصرة، ونعني الاستخدام الأمثل للإمكانيات المتاحة، شعار الوصول إلى أفضل مردود، وأجود مردود، بأقل الموارد الممكنة.

إن عصرنا كله هو عصر السيطرة على المستقبل، ولضمان هذه السيطرة ينبغي الأخذ بمفهوم التقنيات التربوية الجديدة، المتمثلة في إعادة النظر في الجوانب التالية، التي تشكل المقومات الرئيسة للعملية التربوية:

* معرفة الطفل البيولوجية والنفسية والاجتماعية.
* بنية النظام التربوي ومراحله وأنواعه.
* مناهج التعليم ومحتوى التعليم.
* الطرائق التربوية والوسائل التعليمية.
* المعلم بوصفه أداة الإنتاج.
* وسائل التقويم: (الفحوص - الاختبارات - الاصطفاء - الخ).

❖ **الإدارة التربوية (١١):**

وينبغي أن ندرس كل مقوم من هذه المقومات، لنعرف الوسائل والتقنيات التي يمكن أن نلجأ إليها فيه، لنجعله أداة من أدوات زيادة إنتاج النظام المدرسي، ودراسة كل مقوم من هذه المقومات، من خلال نظرة تأليفية تركيبية تجمع بين أثر العوامل المختلفة.

وبعد ذلك أن خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، التي تتبناها الدول العربية، تتضمن تحقيق أهداف كمية ونوعية في الميادين المختلفة، ومنها التربية، ومن الضروري أن يرتبط هذا القطاع الحيوي بخطط التنمية سواء بعيدة المدى، أو على المدى القصير، وذلك بأن تسهم التقنيات التربوية في عمليات التحديث والتطوير، ضمن إطار التنمية الشاملة.

الهوامش ومراجع البحث

(١) د. عبد الله عبد الدائم: الثورة التكنولوجية في التربية العربية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٤م، ص١١٥.
(٢) د. فخر الدين القلا: تقنيات التعليم والوسائل التعليمية، مديرية الكتب الجامعية، دمشق ١٩٨٠م، ص٣-٤.
(٣) راجع: بحث (مفهوم التقنيات التربوية) للدكتور اسحق يعقوب القطب، مجلة الخفجي، العدد (٨)، السنة (١٤) ١٩٨٤م، ص١٥.
(٤) يقصد بالاشتراط الإجرائي، عملية التعلم التي تصبح فيها الاستجابة أكثر احتمالاً للحدوث، ومصطلح إجرائي يستخدمه (سكينر) لوصف مجموعة من الاستجابات، أو الأفعال التي يتألف منها العمل الذي يقوم به الكائن.
(٥) د. فخر الدين القلا: تقنيات التعليم والوسائل التعليمية، ص١٧.
(٦) الايكولوجيا: علم التبيؤ، أو علم الأحياء الذي يدرس العلاقة بين الأحياء والبيئة.
(٧) د. فخر الدين القلا: تقنيات التعليم والوسائل التعليمية، ص١٩.
(٨) د. عبد الله عبد الدائم: الثورة التكنولوجية في التربية العربية، ص١٠١.
(٩) مركز دراسات الوحدة العربية: صور المستقبل العربي، بيروت ط (٢) ١٩٨٥م، ص ١٢٤-١٢٥.
(١٠) انظر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: استراتيجية تطور التربية العربية، (التقرير المجمل)، ص٢٢.
(١١) المرجع السابق، ص٤٢.
(١٢) د. عبد الله عبد الدائم: الثورة التكنولوجية في التربية العربية، ص١٢٨.

* * *

العرب هؤلاء المذهلون قراءة في الكفاءات العلمية والمادية المستنزفة

د. عزت السيد أحمد

صحيح أننا لن نتساءل عن سبب تخلف العالم العربي، إلا أننا لانستطيع إلا أن نعده محركاً أساسياً من مقاصد بحثنا وإن لم يكن عليه مدار الكلام بشكل مباشر. وعلى الرغم من أننا لانتوخى الحديث عن معالم العبقرية العربية أو معلم منها، كما يوحي به العنوان، إلا أننا لانستطيع إنكار أننا نغمز

* د. عزت السيد أحمد : أديب وباحث، استاذ الفلسفة بجامعة تشرين في اللاذقية.

إلى فن من فنونها، ولكنه فن طريف غريب، لأنه واحد بأوجه متعاكسة.

تفاخر الأمم أكثر ماتفاخر بأبنائها، وتعلو بعض الأمم على بعض بهؤلاء الأبناء، بهم وحسب. وكيف يمكن أن تفخر الأمة بغير الإنسان، وهو الذي يصنع لها كل شيء.. يصنع لها هويتها؟؟ ومن أجل هذا الإنسان تذود الأمم عن حياضها، ومن أجله تستميت في الدفاع عن ثرواتها، وربما تعتدي على الآخرين من أجل هذا الإنسان؛ ابنها. فأين موضع صناع أمجاد الأمة العربية؟ وأين موضع ثرواتها؟

في برنامج على الهواء، بمناسبة وصول بث الفضائية السورية إلى أمريكا وأوروبا(١)، هتف أحد المغتربين السوريين في ألمانيا إلى البرنامج، الذي كان يديره الأستاذ خلدون المالح، للتهنئة والتعبير عن فرحة المغتربين بوصول البث إليهم. وعندما سأله الاستاذ خلدون عن عمله وعن المغتربين أجابه قائلاً:

- عدد المغتربين السوريين في ألمانيا نحو خمسين ألفاً كلُّهم ذوو شهادات عليا، ونصفهم تقريباً من حملة شهادة الدكتوراه في الطبِّ والهندسة، لدرجة أنه إذا التقى اثنان منَّا فإنَّ أولَّ سؤال يسأله الواحد للآخر هو: مااختصاصك وفي أي مشفى تعمل، أو أي مشفى تملك، أو أين عيادتك؟ فإن كان الجواب بالنَّفي أي إذا لم يكن طبيباً كان السؤال: في أي شركة تعمل أو أي شركة تملك؟

فأجابه خلدون المالح قائلاً:

- لقد ذكَّرتني بعبارة مشهورة تقول: إن أهمَّ صادراتنا إلى الخارج هي البشر.

نعم، إنَّ أهمَّ صادراتنا إلى الخارج هي البشر، ويانعم التصدير، فإن كانت الأمم تتفاخر بما تمتلكه من الثروات وبأهمية ماتصدره فليس لأمَّة في التاريخ أن تعلو على أمة العرب فخراً، لأننا نصدر للعالم أهم شريانين

(١) بثَّ هذا البرنامج يوم الأحد ٧/ ٢/ ١٩٩٩م. (هو دكتور في هندسة المدن، من مدينة منبج).

من شرايين الحياة؛ الكفاءات البشرية والنفـط، فالكفـاءات البشـرية هي الشـريان الذي يضخ الحيـاة في الارتقـاء والتـقـدم، في ديمومـة قـوة الحضارة. والنفط هو الشريان الذي يضخ الحياة في مختلف مستويات التقنية وأنواعـها. أي إن العـرب يصدرون للعـالم أهم شـريانين على الإطـلاق، وهما الأهم لا لأنهما يكفلان محض الحياة بل لأنهما يخلقان أكمل حياة.

والحق أن خوض غمار أهمية هذين الشريانين أو محاولة تأكيدها لن تخلو من الوقوع في ضرب من الدور المنطقي، فما الذي يمكـن أن نضـيفه إلى أهمية الكفاءات العلمية؟! وهما كلاهما كالشمس، وماقـول الأنـام في الشمس سوى أنها الشمس لاقول فيها؟! ولكننا لانستطيع إلا القول:

إن الأمة التي لاتدرك أهميـة هذين الشريانين أمة معتوهة إن أحسنا الظن فيـهـا. وإن نحن لم نرد الحديث في أهميـة النفط والكفـاءات لطول الحديث فيها إلى الدرجة التي قد يتعذر الوقوف فيها عند حد فإننا لانستطيع أن نغفل بعض العبارات التي تشبه المقولات أو حوامل الوجود، منها قول جـورج كليـمنصـو إبان الحـرب العـالمية الأولى: «إن النفط ضـروري كـالدم»[٢]، وقـول كولدارج رئيس الولايات المتحدة، في عـام ١٩٢٤م، عند افتتاح اللجنة الفيدرالية للنفط: «إن تفوق الأمم يمكن أن يقرر بوساطة امتلاك النفط ومنتجاته»[٣]، وكذلك قول أحد زعمـاء الـدول الغـربية في الحرب العالمية الثانية: «إن قطرة واحدة مـن النفـط تسـاوي قطـرة من الدم»[٤]، وغير ذلك الكثير من الأقوال والتحليلات والسياسات التي يبرز خطورة النفط وأهمية مكانته.

وبالمثل تماماً كـان أمر الحـديث في أهمـية الكفـاءات، وأبسـط مايمكن أن يقال في هذا الأمر - كما قال كيد - Kidd - «أنه لمن الصعب إنتاج

---

(٢) جريدة القبس - الكويت - عدد ٢٥/ ٤/ ١٩٩٠م.

(٣) عيسى درويش: البترول وأهميته في معركة الصمود والتصدي - ضمن مجلة؛ المناضل - العدد ١١٧ - كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩م - ص٨٧.

(٤) توفيق المديني: النفط العربي واغترابه عن قضايا التحرر والوحدة العربية - ضمن مجلة؛ الوحدة - المجلس القومي للثقافة العربية - المغرب - العدد ٤٢ - عام ١٩٨٨م - ص٥٢.

أشخاص مدربين تدريباً عالياً. واستيراد الكفاءات أقل من كلفة توسيع الجامعات- ولذلك- تجعل الهجرة بلوغ الأهداف الوطنية أسـهل»[(٥)]، ومن أبرز مخاطر ذلك ماذهب إليه **سان سيمون** بقوله: «إذا أضاعت فرنسا الخمسين الأوائل من علمائها، ومثل ذلك من أهل فنها وصناعتها وزراعتها [فإنها تكون قد] قطعت رأس الأمة، وأصبحت جسداً بـلا روح. ولكنها إذا فقدت جميع موظفيها الرسميين فإن تلك الحادثة تحزن الفرنسيين لطيب نفوسهم، ولكنه لا ينجم في البلد لذلك من الضرر إلا اليسير»[(٦)].

هذا من دون أن ننسى أن المبدعين لاينتجون إنتاجاً، ولايصنعون صنعا. ولذلك كانت وسائل استجلاب هؤلاء المبدعين مفتوحة الآفاق تماماً، في بدايتها الإغراءات غير المحدودة، وفي نهايتها النهـاية الوخيمة التي لايوجد ما يحول فيها دون القتل الذي يحقق أيضاً أغراضاً متعددة منها حرمان الآخر من الاستفادة من هذه الموهبة الخلاقة، وكم امتدت يد الغدر لتغتال أفذاذا من أمتنا رفضوا الانتماء إلى غير العروبة، أو أصـروا على أن لايرفدوا إلا أمتهم بثمار عبقرياتهم أمثال **حسن كامل الصباح، ويحيى المشد**، وعلي حسن أسعد.. ومؤخراً الطائرة المصرية التي ضمت على الأقل ثلاثة من نوابغ علم الذرة، والرقم المؤسف من كبار الضباط المصريين وخيرتهم!!! ويبدو، بل من المؤكد أن الموساد (المخابرات الصهيونية) تحتفظ بقائمة تتضمن أسماء العلماء البارزين؛ العرب ومن أصل عربي، في جميع دول العالم، وهذا مابدا «في عملية اختطاف **عبد القادر حلمي** أحد أهم علماء الصواريخ في العالم»[(٧)].

ولكن، إذا كان من المسلم به أن العرب يملكون نحو ثلثي الاحتياطي العالمي من النفط، وينتجون أكثر من نصف الإنتاج العالمي من النفط، فما موقع الكفاءات العربية المهاجرة/ المصدرة من الكفاءات العلمية العالمية مكانة وعدداً؟

---

(٥) أنطوان زحلان: هجرة الكفاءات العربية؛ السياق القومي والدولي- ضمن مجلة؛ المستقبل العربي- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- العدد ١٥٩- ٥/ ١٩٩٢م- ص١٧.

(٦) غوستاف لوبون: سر تطور الأمم- ترجمة أحمد فتحي زغلول دار النفائس- بيروت- ط١- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م- ص٤١.

(٧) انظر مجلة: المجلة- العدد ٥٣٧- تاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م.

أولاً: الكفاءات البشرية :

الحقيقة أننا أمام أكثر من مشكلة في هذا الصدد، ففي الدرجة الأولى تواجهنا مشكلة التكتم وعدم التجاوب من الدول المحتضنة للكفاءات؛ العربية وغير العربية، وهي مشكلة حقيقية؛ حقيقية بوصفها مشكلة تقود إلى نتائج مربكة وعدم دقة في المعطيات . . وحقيقية بوصفها مشكلة واقعية غير مختلقة، ومن ذلك؛ على سبيل المثال أن اليونسكو قررت إجراء مسح للكفاءات المغتربة فأرسلت استمارة استبيان إلى مئة وأربع وعشرين دولة ولكن الذين أجابوا على أسئلته ثمان وأربعون دولة فقط، «ومن بين هذه الدول الثماني والأربعين وردت إجابات سلبية من خمس عشرة دولة، -أي إن خمس العينة هي التي أجابت على الاستمارة، بحجة أن- الوحدات الإحصائية بها ليست في وضع يتيح لها إمكانية توفير كل البيانات المطلوبة، ولا حتى جلها أيضاً، ويصدق قصور الردود كذلك على المنظمات ذات الصلة التي وجه إليها الاستبيان»(٨).

وفي الدرجة الثانية، وهي مرتبطة بالأولى، ومنبثقة عنها إلى حد ما، نصطدم بتضارب الأرقام وتناقضها في بعض الأحيان، ففي حين يقدر بعضهم «أنه بحلول عام ٢٠٠٠م سيتجاوز عدد الخريجين الجامعيين العرب (٧) ملايين. (٤٠) بالمئة من هؤلاء سيكونون مهندسين، وعلماء، وأطباء، وطاقات بشرية أخرى. وبالفعل سيكون لدى الوطن العربي (٧٠) بالمئة مما لدى الولايات المتحدة الأمريكية من المهندسين، إلا أن امتلاك المورد لايعني أنه سيستخدم بكيفية إنتاجية»(٩). نجد أنه في الوقت ذاته تقريباً تعلن صحيفة

(٨) عثمان أبا يزيد: دراسة حالة لبعض مشاريع اليونسكو المتعلقة بهجرة الكفاءات العربية- ضمن كتاب: هجرة الكفاءات العربية -مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط٣- ١٩٨٥م- ص١٧٣.

(٩) أنطوان زحلان: هجرة الكفاءات العربية؛ السياق القومي والدولي- ضمن مجلة؛ المستقبل العربي- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- العدد ١٥٩- ٥/ ١٩٩٢م- ص١٩.

القدس العربي أن بعض التقديرات «أكدت وجود مايزيد على عشرة ملايين [مختص] علمي عربي هاجروا في العقدين الأخيرين إلى أوربا وأمريكا. وإذا أضفنا المهاجرين قبل السبعينات، كما تشير إحصائية لجامعة الدول العربية، فإن العدد قد يصل إلى عشرين مليون عالم عربي، منهم مليونان في الولايات المتحدة، بعضهم علماء في الطاقة النووية. وبالنسبة لمصر فيكفي أن نعرف أن من بين (٨٢٤٠٠٠) مصري يعملون في الخارج، فإن هناك (٣١٨٠٠٠) منهم يعملون في الولايات المتحدة الأمريكية. من هذا العدد (٨٤٤) عالماً في الطاقة النووية»(١٠).

جدول رقم (١)

عدد الكفاءات العربية في العالم حسب آخر التقديرات

توزع الهجرة / سنوات الهجرة	في جميع أنحاء العالم	في الولايات المتحدة
١٩٧٨م حتى ١٩٩٨م	١٠ ملايين كفاءة	؟
قبل عام ١٩٧٨م	نحو ١٠ ملايين كفاءة	؟
المجموع	نحو ٢٠ مليون كفاءة	مليونان

وعلى الرغم مما يبدو في هذه الأرقام من مبالغة فإنها في حقيقة الأمر لاتخلو من جانب كبير من الحقيقة، ولكن المشكلة التي تعترضنا هنا مشكلة مزدوجة، فمن الناحية الأولى نحن غير قادرين على التحقق من صحة هذه الإحصائيات على ضوء مالدينا من المعطيات، ومن الناحية الثانية أن الأرقام المتوافرة لدينا معظمها من إحصاءات قديمة غير دقيقة وتفتقر إلى كثير من المصداقية، وغالبية الإحصاءات التي عثرنا عليها تعتمد بشكل أو بآخر على مصدر واحد تقريباً هو دراسات أنطوان زحلان، وكلها قديمة، خلاف القلة التي سنوردها الآن.

(١٠) صحيفة: العربي المصري- العدد ٢٦٩- تاريخ ٨ حزيران ١٩٩٨م.

نبدأ من حديث قريب العهد «الوزير التعليم العالي والبحث العلمي المصري عن دور كبير مقبل لأكثر من ثلاثين ألف عالم مصري في الخارج»[١١]. وفي حوار مع الدكتور **فاروق الباز** نشر بعد هذا الكلام بسنتين ذكر الدكتور **الباز** أن هناك (١١٠٠) عالم في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا[١٢]. وعلى الرغم من أن عدد الأطباء السوريين وحدهم في ألمانيا وحدها، يربو على (٢٥) ألف طبيب حسب تقديرات رابطة المغتربين السوريين في ألمانيا، فإننا نفاجأ بأن عدد الأطباء العرب في الولايات المتحدة الأمريكية نحو عشرة آلاف طبيب فقط[١٣]، وعلى الرغم من أن هذا العدد من الأطباء العرب في الولايات المتحدة هم فقط من المولودين في الوطن العربي، فإنه لايستقيم منطقياً مع عدد الأطباء السوريين في ألمانيا. وأياً كان الأمر فليس هذا إلا أنموذجاً من التناقضات التي نجدنا أمامها في هذا الموضوع.

أما الإحصاءات القديمة نسبياً فقد ذكر الدكتور **محمد عبد العليم مرسي** أنه «هاجر خلال المدة من ٣٠/ ٦/ ١٩٦٧م حتى ٣٠/ ٦/ ١٩٦٨م نحو من ١٥٩٧٣ من العلماء والمهندسين والأطباء العرب. وخلال المدة نفسها من العام التالي هاجر ٣١٩٨١. أما العام الثالث فكان نصيبه ١٦٤٩٢ مهاجراً، هذا إلى أمريكا وحدها»[١٤]. أي إن نصيب أمريكا وحدها من الكفاءات العربية المهاجرة قد بلغ خلال ثلاثة أعوام ٦٤٤٤٦ كفاءة. كما هو موضح في الجدول التالي:

---

(١١) محمد عارف: **العلماء العرب يطرقون أبواب الناتوتكنولوجي**- ضمن جريدة؛ **الحياة**- الأربعاء ١٦ رمضان ١٤١٨هـ- ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨م- العدد ١٢٧٣٦.

(١٢) فريد وجدي: **حوار مع الدكتور فاروق الباز**- ضمن جريدة؛ **الاتحاد؛ الملحق الاقتصادي**- أبو ظبي- الأربعاء ١١ ذو العقدة ١٤٢٠هـ/ ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٠م- العدد ٨٩٩١.

(١٣) محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل**- ضمن مجلة؛ **المجلة**- لندن- العدد ١٠١٤- ١٨/ ٧/ ١٩٩٩م.

(١٤) د. محمد عبد العليم مرسي: **هجرة العلماء من الأعلام الاسلامي**- مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م- ص٥٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي**- دار القلم/ الدار الشامية- دمشق/ بيروت- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م- ص٧٩.

جدول رقم (٢)
خلاصة هجرة العلماء والمهندسين العرب
إلى الولايات المتحدة في فترة ١٩٦٦م-١٩٦٩م

المدى الزمني للهجرة	عدد الكفاءات المهاجرة
٣٠/٦/١٩٦٧م حتى ٣٠/٦/١٩٦٨م	١٥٩٧٣ كفاءة
٣٠/٦/١٩٦٨م حتى ٣٠/٦/١٩٦٩م	٣١٩٨١ كفاءة
٣٠/٦/١٩٦٩م حتى ٣٠/٦/١٩٧٠م	١٦٤٩٢ كفاءة
المجموع	٦٤٤٤٦ كفاءة

وفي عام ١٩٧٤م قدر الباحث إبراهيم أبو لغد، من خلال مسح أجراه، «أن عدد المهاجرين العرب ذوي الكفاءات العالية إلى الولايات المتحدة والمقيمين فيها، قد بلغ نحو مئة ألف كفاءة»[١٥]. ولكن هذا الرقم من الكفاءات العلمية العربية الموجودة في الولايات المتحدة، أي المئة ألف، يتناقض مع أكثر من إحصائية للفترة ذاتها تقريباً، على الأقل، أو بفترة مقارنة، وأول هذه التناقضات مع الأرقام السابقة، ومنها مع ماذهب إليه **آلان فيشر** من أن مجموع الهجرة العربيةكلها إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٦٦وحتى عام ١٩٧٧م لايزيد عن المئة ألف إلا بتسعة آلاف، منهم فقط (١١٥٩٦) كفاءة علمية، أي عشر المهاجرين، ونحو عشر العدد الذي قدره **أبو لغد**، وفي الجدول التالي توضيح للهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية حسب تقديرات **فيشر**:

(١٥) سميح فرعون: المهنيون الأمريكيون من أصل عربي وهجرة الكفاءات- ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية**- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط٣- ١٩٨٥م- ص٢٤٦.

جدول رقم (٣)
خلاصة هجرة العلماء والمهندسين العرب
إلى الولايات المتحدة في فترة ١٩٦٦م-١٩٧٧م[١٦]

مجموع الهجرة العربية	١٠٩٢٥٣
العلماء والمهندسون	٥٧٩٨
ومنهم: المهندسون	٣٩٣٩
علماء الطبيعيات	١٥١٣
علماء الاجتماع	٣٤٦
هجرة العلماء والمهندسين من كل الأقطار	١١٥٩٦

ولكن هذين الرقمين يتناقضان أيضاً مع ماجاء به الدكتور **مصطفى أبو لسان** الذي يتناقض هو أيضاً مع ذاته في الدراسة ذاته، بل وفي الصفحة ذاتها، ففي تحقيق نشره قبل سنوات قليلة في مجلة الوسط ذكر أن دراسة أمريكية صدرت عام ١٩٨٠م، قد «قدرت أن عدد الكفاءات العربية المهاجرة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٨م بلغ مئة ألف شخص، (٥٠) بالمئة منهم من حملة الدكتوراه»[١٧]. ولكن الدلالة غير واضحة هنا، ولانستطيع أن نعرف ما إذا كانت المئة ألف هذه قد دخلت الولايات المتحدة عام ١٩٧٨م وحدها، أم أنها مابلغه عدد الكفاءات العربية في الولايات المتحدة حتى عام ١٩٧٨م، وإن كان الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى سياق النص وحسب. وإن كنا نستطيع الجزم باطمئنان، استناداً إلى المعطيات التي ذكرناها، أن هذه المئة ألف كفاءة قد دخلت الولايات المتحدة في عام ١٩٧٨م وحده.

---

(١٦) ألان فيشر: الكفاءات العلمية العربية في الولايات المتحدة- ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية**- مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت- ط٣- ١٩٨٥م- ص٢١٥.

(١٧) د. مصطفى أبو لسان: **الأدمغة العربية؛ هجرة وتهجير**- ضمن مجلة؛ الوسط- لندن- العدد ١٨٨- في ١٤/ ٩/ ١٩٩٥م- ص٣٢.

أما تناقض أبو لسان مع ذاته فمن خلال الجدول الذي ذكره في الصفحة ذاتها من التحقيق، الذي يبين من خلاله اختصاصات الكفاءات العربية المهاجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والبلدان التي هاجرت منها بدءاً من عام ١٩٦٢م حتى عام ١٩٧٦م، إذ بلغ المجموع الكلي لهذه الكفاءات فقط (٢٣٠٩٥) كفاءة في مختلف الاختصاصات ومن مختلف البلدان العربية، وذلك حسب الجدول التالي:

جدول رقم (٤)

الكفاءات العربية المهاجرة إلى
الولايات المتحدة في الفترة ١٩٦٢م– ١٩٧٦م[١٨]

الاختصاصات / البلدان المصدرة	اختصاصيون وفنيون	مهندسون	علماء طبيعة	أطباء	المجموع
مصر	٥٢٠٠	٧٥٠	٣٤٠	٩٧٠	٧٢٦٠
لبنان	٣٧٠٠	٦٠٠	٥٠٠	٨٤٠	٥٦٤٠
الأردن وفلسطين	٢١٠٠	٢٦٠	٩٠	٢٦٠	٢٧١٠
سورية	١٤٠٠	٢٠٠	١٠	٥٣٠	٢١٤٠
العراق	١٤٥٠	٢٠٠	٨٠	١٧٠	١٩٠٠
المغرب	٤٠٠	٣٠	١٠	٣٠	٤٧٠
ليبيا	٢٠٠	٣٠	١٠	٨٠	٣٢٠
بلدان أخرى[١٩]	٢٠٠٠	٢٤٠	٤٥	٣٧٠	٢٦٥٥
المجموع	١٦٤٥٠	٢٣١٠	١٠٨٥	٣٢٥٠	٢٣٠٩٥

وعلى الرغم من أن هذا الجدول مأخوذ عن دراسة **لأنطوان زحلان** وآخرين [٢٠]، فإن أنطوان زحلان ذاته يقدم للفترة ذاتها رقماً آخر يربو

(١٨) م.س – ذاته.

(١٩) معظمها من البلدان العربية النفطية، و٨٠٪ تقريباً من المهاجرين منها هم أصلاً من بلدان عربية أخرى.

(٢٠) د. أنطوان زحلان وآخرون: **السكان والتنمية في الشرق الأوسط**– قسم التنمية الاجتماعية والسكان– اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا / بغداد– الأمم المتحدة– ١٩٨٤م– ص٣٣٦.

على مثلي هذا الرقم، ولكن للكفاءات الموجودة في أوربا والولايات المتحدة، فوفقا لحسابات أجراها منذ نحو عشرين سنة «بلغت النسبة المئوية لهجرة الأطباء والمهندسين والعلماء العرب إلى أوربا الغربية والولايات المتحدة حتى سنة ١٩٧٦م: ٥٠ و٢٣ و١٥ في المئة على التوالي، من مجموع الكفاءات العربية، وقد كانت الأعداد: (٢٤٠٠٠) طبيباً، و(١٧٠٠٠) مهندساً، و(٧٥٠٠) من المشتغلين [في] العلوم الطبيعية»[٢١]، أي إن مجموع هذه الكفاءات، كما سنبين في الجدول التالي، يبلغ (٤٨٥٠٠) كفاءة. وفي مقابل هذا نطالع خبراً، عن لجنة متابعة الشؤون الإسرائيلية في الجامعة العربية، يقول «إن إسرائيل قامت باستقدام (٩٢) ألف عالم من دول الاتحاد السوفياتي السابق خلال السنوات الثلاث السابقة، منهم عشرة آلاف متخصص في الأسلحة النووية والأقمار الصناعية»[٢٢]، أي مثل عدد العقول العربية النازقة في بعض التقديرات، ومثل ضعفيها في تقديرات أخرى.

جدول رقم (٥)
الكفاءات العربية المهاجرة إلى
الولايات المتحدة وأوربا حتى عام ١٩٧٦م

	الأطباء	المهندسون	علماء الطبيعة	المجموع
النسبة من المجموع المحلي	٥٠٪	٢٣٪	١٥٪	–
عدد الكفاءات المهاجرة	٢٤٠٠٠	١٧٠٠٠	٧٥٠٠	٤٨٥٠٠

إن هذه الأرقام كما أشرنا بداية تفتقر إلى كثير من الدقة والموضوعية، على الرغم من أنها تتشح بلبوس البحوث الميدانية والأكاديمية، مع شكر أصحابها وعدم الطعن في نزاهاتهم، ولكن إذا أخذنا بعين النظر أعداد

(٢١) أنطوان زحلان: مشكلة هجرة الكفاءات العربية- ص٢٣.

المغتربين العرب في العالم الذين يقـدرون بعشـرات الملايين لاضطررنا أن نتوقف ملياً قبل أي حكم.

نحن لاندعي أن عشرات الملايين هذه كلها من الكفاءات العلمية، ولكن يجب ألا نكون مجحفين فنظن أن كفاءاتنا النازفة أو المغتربة هي فقط مئة ألف أو حتى مئتي ألف.. فإذا مانظرنا إلى بعض الإحصائيات عن المغتربين العرب في أوربا والولايات المتحدة تتراوح مابين عامي ١٩٨٠م و١٩٩٠م، لتبين لنا مدى قصور الأرقام السابقة عن الحقيقة، ففي التقديرات التي حصل عليها برهان غليون، كلها من إحصائيات لم تتجاوز عام ١٩٩٠م[٢٣]، بلغ عدد الجاليات العربية في أوربا نحو أربعة ملايين نسمة، منهم مالايقل عن الثلث، حسب تقديرات الإحصائيات ذاتها، من الكفاءات العلمية، وهي موزعة على النحو التالي: في **فرنسا** (٢) مليون، الغالبية فيها من العمال العاديين، ونحو الربع من الكفاءات العلمية. وفي **إنجلترة**، حسب إحصاء ١٩٨٠م. يوجد (٢٥٠) ألف مغترب، و(٥٠٠) ألف مغترب حسب إحصاء ١٩٨٨م، غالبيتهم العظمى من الكفاءات العلمية، وأقل من الخمس من العمال العاديين. ويوجد في **ألمانيا** نحو (٢٥٠) ألف مغترب. وفي **بلجيكا** نحو (٢٠٠) ألف مغترب. وفي هولندا نحو (١٥٠) ألف مغترب. ومثل هذا العدد تقريباً في كل من **إيطاليا وإسبانيا واليونان** وبلدان **أوربا الشمالية**. أما الولايات المتحدة الأمريكية فيبلغ «تعداد الجالية العربية فيها- حسب إحصاء ١٩٩٠م- زهاء

(٢٢) جريدة «**الاتحاد**- أبو ظبي- الاثنين ١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م- العدد ٨٩٦٨.
(٢٣) برهان غليون: مستقبل الجاليات العربية في أوربا- ضمن مجلة «المستقبل العربي»- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- العدد ٢٠٩- ٧/ ١٩٩٦م- ص٥٨- ٦٠..

ثلاثة ملايين نسمة»[٢٤]. فيما بلغ عدد المغتربين العرب في البرازيل وحدها ١٦ مليون مغترباً حسبما ذكرت **كلود حجار** الممثلة الجوالة لمنظمة فاأرب أمريكا [٢٥].

على أن ماتجدر ملاحظته على هذه الأرقام، التي سنظهرها في الجدول التالي، هو أنها أولا خالية من الدقة أيضاً فعدد المغتربين اللبنانيين وحدهم حسبما «تقول المصادر الرسمية يزيد عن (١٤) مليون مغترب موزعين في أنحاء العالم»[٢٦]، وفي تقدير آخر فإن «عدد اللبنانيين المهاجرين مابين عامي ١٩٧٥م و١٩٩٨م، قد قارب المليونين»[٢٧]. وعدد الجزائريين وحدهم في فرنسا وحدها، كما أشارت بعض الإحصائيات، يتجاوز المليونين[٢٨]، فكيف يكون عدد العرب كلهم في أوربا مليونين فقط؟! وبغض النظر عن ذلك الآن، فإن عدد الكفاءات العربية وفق معطيات هذه التقديرات يقارب المليونين في بلدان التقديرات فقط.

(٢٤) إياد القزاز: **اللوبي العربي في الولايات المتحدة الهوية السياسية والمشاركة في العمل السياسي**- ضمن مجلة؛ المستقبل العربي- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- العدد ٢٠٩- ٧/ ١٩٩٦م- ص٨٠.

(٢٥) من لقاء أجراه معها التلفزيون العربي السوري- برنامج على عيني- يوم الأحد ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٠م.

(٢٦) يبدو هذا الرقم غريباً ومبالغاً فيه إلى حد كبير، ولاسيما أن عدد سكان لبنان لايزيد عن الأربعة ملايين، ولكنه لايعني ابتعاده عن الحقيقة، وقد أدركت صاحبة التحقيق ذلك فجعلت العنوان الرديف لتحقيقها: (عدد المقيمين يقل عن الأربعة ملايين نسمة فيما يزيد عدد المغتربين على ١٤ مليون). انظر: سناء الصباح: **الطفر يحول لبنان إلى حقيبة سفر**- ضمن جريدة؛ **الأنوار**- بيروت- العدد ١٣٩١٩- يوم الأحد ٦ شباط ٢٠٠٠م.

(٢٧) انظر مجلة: حياتنا والشباب- العدد ٥٣- شباط ٢٠٠٠م.

(٢٨) وقد أعلن هذا الرقم أيضاً الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة في زيارته الأخيرة إلى فرنسا، في شباط ٢٠٠٠م.

جدول رقم (٦)

أعداد المغتربين العرب في بعض دول العالم

حسب إحصائيات تتراوح مابين ١٩٨٠م - ١٩٩٠م

مكان الاغتراب	عدد المغتربين
إسبانيا	١٠٠ألف مغترب
ألمانيا	٢٥٠ ألف مغترب
إنجلترة	٥٠٠ ألف مغترب
إيطاليا	١٠٠ألف مغترب
بلجيكا	٢٠٠ ألف مغترب
فرنسا	٢ مليون مغترب
هولندا	١٠٠ألف مغترب
الولايات المتحدة الأمريكية	٣ مليون مغترب
البرازيل	١٦ مليون مغترب
اليونان	١٠٠ألف مغترب
دول أوربا الشمالية	١٠٠ ألف مغترب
المجموع	٢٢٤٥٠,٠٠٠ مغترب

ولذلك يجب أن نأخذ في حسابنا هنا مجموعة من الاعتبارات:

أولها: نسبية مفهوم الكفاءة، إذ تبين لنا من خلال الأرقام والتقديرات السابقة أن ثمة تفاوتاً وتبايناً في معنى الكفاءة العلمية، فبعضهم يقتصر على العلماء كما فعل العالم **فاروق الباز**، وبعضهم يقتصر على حملة الشهادات العليا والأساتذة الجامعيين، وبعضهم يعمم أكثر ليشمل مفهوم

الكفاءة كل مختص أو كل حامل إجازة جامعية كما بدا في تقدير صحيفة القدس العربي. وهذا مايضعنا في حقيقة الأمر أمام بعض التساؤلات، فالأطباء العرب المغتربون على سبيل المثال ربما يصلون إلى نصف المليون، فهل نعد الجميع كفاءات، أم المتميزون منهم، أم المبدعون منهم أم ماذا؟ صحيح أننا لانستطيع أن نضعهم جميعاً على درجة واحدة، وهذا مالايجوز منطقياً، ولكن ذلك لايعني أن نحذفهم من حساباتنا.

ثانيها: أن مفهوم الكفاءات العربية المهاجرة يحمل أكثر من معنى، فلدينا بالدرجة الأولى الكفاءات التي هاجرت من البلدان العربية وهي كفاءات جاهزة ناجزة، ولدينا ثانياً الكفاءات التي أوفدتها دولها لتتكون أو لتختص في الخارج، أي في الدول المتقدمة، ولكنهم لم يعودوا، وهؤلاء في الأغلب الأعم خامات كفاءات لأن المفترض في الموفدين أن يكونوا من المتفوقين أو المؤهلين ليكونوا كفاءات، ولدينا ثالثاً الكفاءات العربية التي تكونت في الخارج وهي من أصول عربية سيان أكانت مولودة هناك في الخارج، أو هاجرت وهي صغيرة السن.

ثالثها: أن هجرة الكفاءات والأدمغة العربية قد ازدادت بشكل ملحوظ في العقود الثلاثة الأخيرة السابقة، ولكنها بلغت أوجها، حتى الآن، في العقد السابق الذي لانملك عنه أية إحصائيات. وظاهرة طفرة الزيادة في الكفاءات المهاجرة ليست عربية وحسب، وإنما هي ظاهرة شهدها العالم الثالث كله، ففي حين كان وسطي الكفاءات المهاجرة (٢٤٥) ألف كفاءة سنوياً من العالم الثالث إلى العالم المتقدم، «فقد زاد في العقود الثلاثة الأخيرة إلى مليون ومئتي ألف سنوياً»(٢٩). ومن ذلك أيضاً على سبيل المثال، فيما يخص واقعنا العربي، أنه «يقدر عدد العراقيين الذين

(٢٩) الأدمغة المهاجرة... **تعود إلى مواطنها عبر الإنترنت** - ضمن جريدة؛ **الاتحاد** - أبو ظبي - عدد الجمعة ١٠ رجب ١٤١٩هـ/ ٣٠ تشرين الأول ١٩٩٨م.

هاجروا إلى خارج العراق- حسب تقدير الدكتور **سلمان سلمان**- بما يزيد عن المليون منذ بداية الحرب العراقية الإيرانية إلى الآن، وتشكل الكفاءات العلمية نسبة مهمة من هذا الرقم»[٣٠]، ونحو ضعفي هذا الرقم، أي نحو المليونين، كما ذكرنا قبل قليل، هو عدد المهاجرين اللبنانيين إلى الخارج في مابين عامي ١٩٧٥م و١٩٩٨م، ولكن ليس كل هذا العدد من الكفاءات.

رابعها: أن جزءاً غير يسير من الدول التي يمكن أن توجد فيها كفاءات علمية عربية بأعداد كبيرة أيضاً غير مشمولة مثل: أمريكا الجنوبية بمجملها، وأوربا الشرقية، واستراليا، ونيوزلندا، وكندا، وغيرها. والسبب في استبعاد هذه الدول من الإحصاءات، وحتى التقديرات، يرجع في الدرجة الأولى إلى بعد معظمها عن الدرجات العليا في سلم التطور والتقدم العلمي والتقاني، إلا أن هذا البعد عن مصاف الدول المتقدمة لاينفي أبداً أهمية الكفاءات العربية ومكاناتها في مختلف الميادين؛ العلمية والمعرفية والإدارية، على أصعدة هذه الدول أولاً، وعلى الصعيد العالمي ثانياً.

خامسها: ولعله الأكثر أهمية، أن عدد الكفاءات العربية المهاجرة، على أهميته، ليس المؤشر الوحيد على أهمية الموقف وخطورته، وجسامة الخسارة العربية، بل المكانة التي تلعبها هذه الكفاءات في بلاد المهجر، وحساسية هذه المكانات، والأدوار التي يؤدونها، والإنجازات التي يحققونها... والأمثلة على ذلك كثيرة من الأعلام المشهورين مثل عالم الفضاء **فاروق الباز**، وعالم الفيزياء النووية **أحمد زويل** الحائز على جائزة نوبل، وأكبر وأعرق وسام أمريكي وهو جائزة بنيامين فرانكلين، باكتشافه الذي أذهل العالم وأحدث انقلاباً مدوياً في كل الأوساط العلمية[٣١]، و**عبد القادر حلمي** أحد أهم علماء الصواريخ

(٣٠) د. سلمان رشيد سلمان: العولمة وهجرة الكفاءات العلمية العربية- ضمن جريدة؛ الاتحاد- أبو ظبي- الثلاثاء ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م- ص٢٥.
(٣١) د. سلمان رشيد سلمان: العولمة وهجرة الكفاءات العلمية العربية- ضمن جريدة؛ الاتحاد- أبو ظبي- الثلاثاء ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م -ص٢٥.

في العالم[٣٢]، وعالم الفيزياء **رمال رمال** الذي كاد أن يصل إلى جائزة نوبل في الفيزياء[٣٣]، وعالم الإلكترونيات **يوسف أبو الحدود** الذي صمم القوة الكهربائي في المركبة الفضائية (ماريتر ٧) ومهدت لإطلاق أول مركبة حملت الإنسان إلى القمر عام ١٩٦٩م[٣٤]، و«الدكتور **محمد صوان** الذي يقود فريقاً كندياً لابتكار عين صناعية تعيد البصر للمكفوفين»[٣٥]، و«السير **بيتر مدور**، اللبناني الأصل، الذي نال جائزة نوبل في الطب عام ١٩٦١م»[٣٦]، و«الدكتور **ريكاردو ميلادي (ملحم)** الحائز على جائزة نوبل في الطب مرتين بالمشاركة»[٣٧]. و«السير **مايكل عطية** الذي نال أعلى الجوائز العالمية في الرياضيات وتسنم المناصب العلمية في بريطانيا، و**مصطفى شاهين** رئيس العلماء في مختبر الدفع النفاث التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، والدكتور **فخري البزاز** أستاذ الأحياء في جامعة هارفارد وعضو أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية، والدكتور **منير نايفة** أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة إيلينوي أربانا شامبين الذي ارتبط اسمه برصد الذرات المنفردة وتحريكها.. وصالح الوكيل الذي قال عنه بيان انتخابه عضواً في الأكاديمية القومية للعلوم في الولايات المتحدة

---

(٣١) محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي** - ضمن مجلة؛ **العربي** - وزارة الإعلام - الكويت - العدد ٤٩٤ - كانون الثاني - ٢٠٠٠م - ١١٦.

(٣٢) مطر حلمي: **قصة القبض على أحد أهم خمسة علماء صواريخ في العالم** - ضمن مجلة؛ **المجلة** - العدد ٥٣٧ - ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م - ص١٨.

(٣٣) سعيد الصباح: **لبنان والعرب يخسرون علماءهم** - ضمن مجلة؛ **الشراع** - العدد ٩١٣ - كانون الثاني - ١٩٩٩م - ص٣٩ - ٤١.

(٣٤) سعيد الصباح: **عالمان لبنانيان آخران في عالم النسيان** - ضمن مجلة؛ **الشراع** - العدد ٩١١ - كانون الثاني - ١٩٩٩م - ص٤٣ - ٤٧.

(٣٥) جريدة؛ **الاتحاد** - أبو ظبي - الثلاثاء ١٩ شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م - العدد ٨٩٦٩.

(٣٦) محمد عارف: **نجوم عربية في سماء الهندسة والعلوم العالمية للقرن العشرين** - ضمن جريدة؛ **الحياة** - لندن - العدد ١٣٤٤٩ - الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ/ ٥ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٠م.

إنه أحدث ثورة في علوم الطب، و**مصطفى السيد** (صاحب) الأبحاث الرائدة في الطاقة الشمسية، و**رمزي قطران** مؤلف كتاب: (أسس علم الأمراض)، الكتاب المقرر للتدريس في معظم كليات الطب، وترجم إلى أكثر من أربعين لغة بينها الصينية واليوغسلافية والفارسية، و**زهاء الحديدي** التي تعد أشهر مهندسة في العالم، والدكتور **مصطفى كمال** الذي قاد برنامج الأمم المتحدة للبيئة فترة (١٨) عاماً..»[٣٨]، و«**جاك نصر** مدير عام شركة فورد العالمية للسيارات»[٣٩]، وغيرهم كثير ممن تضيق مثل هذه المساحة عن سردهم؛ ممن غاب عن البال ذكرهم، أو ممن لم يصل إلينا ذكرهم كالمهندسين الكبار والكثر الذين يمثلون **نصف مهندسي** شركة مايكرو سوفت كما جاء على لسان **حسام السكري** أحد المدراء الفرعيين في الشركة[٤٠].

وعلى غرار ماسبق من قلة المعطيات وعدم توافرها نتوقف عند إحصائية، لاندري مدى دقتها، عن البحوث التي أنجزها الباحثون العرب في الوطن العربي والعالم، لنتبين جانباً من جوانب خطورة نزيف الأدمغة وهجرتها، ففي مدخله لدراسة التوزع الجغرافي للباحثين العلميين العرب أورد حافظ قبيسي إحصائية أجريت عام ١٩٧٧م جاء فيها، كما سيأتي مفصلاً في الجداول اللاحقة، أن البحوث التي أنجزها الباحثون العرب ضمن الوطن العربي قد بلغت (٣٠٥٦) بحثاً في ميادين مختلفة.

أما الأبحاث التي أنجزها الباحثون العرب خارج الوطن العربي، وبشكل خاص تقريباً في بعض دول أوربا وأمريكا، لافي مختلف أماكن

---

(٣٧) محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل**- م.س-ص٦٠.

(٣٨) محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي**- ص١١٤-١١٥.

(٣٩) محمد علي صالح: **من أميون في لبنان إلى رئاسة إمبراطورية فوردث** ضمن مجلة؛ **المجلة**- العدد ١٠٠٩- تاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٩٩- ص٥٤.

(٤٠) أن يكون نصف مهندسي شركة مايكرو سوفت من السوريين أو العرب بشكل عام أمر بدا لبعضهم مبالغاً فيه، وبدا لبعض آخر نسبة خيالية، ولكن هذا ماذكره حسام السكري؛ أحد المدراء الفرعيين في الشركة، في واحد من لقاءاته المتعددة مع إذاعة لندن، برنامج مقهى الكومبيوتر.

وجـودهم، وفي الميـادين المحـصـاة ذاتهـا فـقـد بلغت (٤٤٠٤) بحثـاً، أي أكثر مما أنجز في الوطن العربي بمرة ونصف تقريباً، هذا في عام ١٩٧٧م لا في سنوات الأوج اللاحقة!!

فلماذا يحدث ذلك ومامعناه؟؟

جدول رقم (٧)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث المنجزة

في بعض الدول العربية موزعة حسب الميادين العلمية(٤١)

الميدان العلمي / القطر	علوم هندسية وتقنية	علوم زراعية وبيئية	علوم فيزيائية ورياضية	علوم كيميائية	علوم الحياة	المجموع
الأردن	٢	٣	٢	١٣	١٢	٣٢
تونس	–	٨	١٠	١٥	١٥	٤٨
الجزائر	–	–	٣	٥	٢	١٠
ليبيا	٢١	١	٥	١٧	٤	٤٨
السودان	٨	٥٨	١٣	٦	٣٩	١٢٤
العراق	٤٧	١٠٣	٣٧	٣٨	٥٢	٢٧٧
الكويت	٩	٥	٧	٣٠	١٨	٦٩
لبنان	٣	٧	٩	٨	٥٢	٧٩
مصر	٣٠٧	٦٦٨	١١٤	٤٦٩	٦٤٥	٢٢٠٣
المغرب	١	٣	–	١	٣	٨
بقية الدول العربية	٩	٤	–	–	٥	١٨
المجموع	٤٧٠	٨٦٧	٢٢٦	٦٢٧	٨٦٦	٣٠٥٦

(٤١) حافظ قبيسي: مدخل لدراسة التوزع الجغرافي للباحثين العلميين العـرب - ضمن كتاب: هجرة الكفاءات العربية - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط٣ - ١٩٨٥م - ص٢٠٥.

جدول رقم (٨)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث التي أنجزها علميون عرب في بعض دول أمريكا موزعة حسب الميادين العلمية (٤٢)

الميدان العلمي	الولايات المتحدة	كندا	بقية أمريكا	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٢٩٦	١٢	١	٣٠٩
علوم زراعية وبيئية	٢٤٠	٤٢	٢١	٣٠٣
علوم فيزيائية ورياضية	٢٥٥	١٠٤	٧	٤٦٦
علوم كيميائية	٢٨٢	٦٩	١٢	٣٦٣
علوم الحياة	٩٢٤	١٠٩	٢١	١٠٤٥
المجموع	٢٠٩٨	٣٣٦	٦٢	٢٤٩٥

جدول رقم (٩)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث التي أنجزها علميون عرب في بعض دول أوربا موزعة حسب الميادين العلمية (٤٣)

الميدان العلمي	فرنسا	ألمانيا	إنجلترة	بقية دول أوربا	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٢٣	٢٤	٩٢	٢٠	١٥٩
علوم زراعية وبيئية	٤٧	٥٥	٢٨	٣٣	١٦٣
علوم فيزيائية ورياضية	١٢٠	٣٦	١٢٦	٤١	٣٢٣
علوم كيميائية	١١٤	٣٩	١٤١	٣٥	٣٢٩
علوم الحياة	١٤٨	٧٦	٢٨٢	٧٣	٥٧٩
المجموع	٤٥٢	٢٣٠	٦٦٩	٢٠٢	١٥٥٣

(٤٢) م.س- ص٢٠٦.

(٤٣) م.س- ص٢٠٧.

جدول رقم (١٠)
عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث التي أنجزها علميون عرب في مختلف أنحاء العالم موزعة جغرافياً وحسب الميادين العلمية (٤٤)

الميدان العلمي	دول عربية	أمريكا	أوربا	مختلف	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٤٧٠	٤١٧	١٥٩	٧٨	١١٢٤
علوم زراعية وبيئية	٨٦٧	٣٠٣	١٦٣	٤٧	١٣٨٠
علوم فيزيائية ورياضية	٢٢٦	٤٦٦	٣٤٣	٣٨	١٠٧٣
علوم كيميائية	٦٢٧	٣٧٣	٢١٩	١٩	١٣٣٨
علوم الحياة	٨٦٦	١٠٥٤	٥٧٩	٤٦	٢٥٤٥
المجموع	٣٠٥٦	٢٦١٣	١٥٦٣	٢٢٨	٧٤٦٠

ترى من المستفيد من هجرة هؤلاء العلماء؟ ومن المستفيد من أبحاثهم التي لانستطيع إلا التأكيد بأنها تشكل مفاصل مهمة من سيرورة التطور العلمي المعاصر؟!

قد نبالغ إذا قلنا إن الكفاءات العلمية العربية، بمختلف أطرها وميادينها، هي التي تحمل حضارة الغرب على أكتافها، ومن المؤكد أننا نبالغ إذا زعمنا ذلك. ولكن المؤكد أيضاً أننا نكون مغفلين إذا لم نعتقد أنهم يشكلون جزءاً صميمياً من السيرورة العلمية في الحضارة الغربية، تماماً كما كان المسلمون غير العرب يشكلون جزءاً صميمياً من السيرورة الفكرية والعلمية في الحضارة العربية.

ونعود فنتساءل: من المستفيد؟

لقد فرحنا أيما فرح عندما فاز **أحمد زويل** بجائزة نوبل، ولكن هل هذا مانصبو إليه ونرجوه؟

(٤٤) م.س - ص٢٠٧.

لاشك أبداً في أن الغرب وحده المستفيد، إذ حتى ولو فازت كل كفاءاتنا العلمية في الخارج بجائزة نوبل، وكل جوائز العالم فلن نحصد إلا الفخر الذي يشبه رنين النقود ثمناً للاستمتاع برائحة الشواء.

قد يتخيل الكثيرون أننا نعتب على الكفاءات العربية المهاجرة، أو أننا نطعن في انتماءاتها، ولكننا في حقيقة الأمر نرثي لحالهم أولاً، ثم لحالنا ثانياً، لأننا نحن الذين لفظناهم من بيننا كما نلفظ عقب السيكارة، عندما لم يجدوا «بعد المرار والأسى إلا الغربة ملاذا، وتفريغ طاقاتهم الذهنية والإبداعية في مخابر الغرب، ثم. . . ثم كلما سمعنا عن نابغ عبقري عربي لمع في الغرب لطمنا الخدود وشددنا الشعور وقلنا: لقد قتلنا الغرب باستنزاف العقول العربية المبدعة»[(٤٥)]. ثم نصحو من سكرة الخبر لنغرق في سكرة الواقع لنلتمس المسوغات والأعذار، فندعي أننا غير قادرين على استيعابهم مادياً، وغير قادرين على تأمين المخابر العلمية اللازمة لهم. . وهلم جرا من هذه الأعذار.

فهل العرب فقراء؟

ثانياً: الكفاءات المادية:

لعله سؤال مسربل بالسذاجة، بل هو أكثر من ساذج، لأن العرب، ولعلهم الأمة الوحيدة في التاريخ، لم يعرفوا الفقر. . .

إن الحديث في الثراء العربي متاهة لاحدود لها في حقيقة الأمر، فلانعرف من أين نبدأ، ولاأين ندخل، ولاأين ننتهي. ومايثيره هذا الموضوع أكثر من أن تحده حدود، ولاسيما أن كل مدخل من مداخل الكلام ينشعب إلى موضوعات إن خلت من الحرج لم تخل من التعقيد، وإن خلت من التعقيد لم تخل من عدم توافر المعلومات والمعطيات.

(٤٥) عزت السيد أحمد: انهيار دعاوى الحداثة- دار الثقافة- دمشق- ط٢-١٩٩٩م- ص٨٩.

على أن الذي تجدر الإشارة إليه هنا، وقبل خوض غمار الموضوع، هو أننا لانتناول هذه المعطيات طمعاً ولاحسداً كما يتوهم ذوي الشأن، الذين يتواثبون فوق الأرض ضجراً وتخوفاً من طمع المتكلمين، إن كانوا عرباً، أما إن كانوا غير عرب فلهم الحق في كل شيء فهم منزهون من الطمع، وموضوعيون لامصلحة لهم في شيء مما يتبادر إلى أذهان ذوي القربى!!! ولذلك أرجو أن يعد كلامي هذا من قبيل كلام غير ذوي القربى.. ولكنني لاأستطيع أن أنكر أبداً أنه لو كان عدو أمتي قد ورد عليه ماورد إلى العرب، وهدر ماهدره العرب لما استطعت مطلقاً أن أشمت به، بل لما استطعت إلا أن آسف عليه، وربما أبكي عليه ألماً وحزناً، من قلب صادق في حزنه وألمه!!!

بداية، لعل كل مواطن عربي من أدنى أداني الوطن إلى أقصى أقاصيه، بل تسع البشر، يتساءل: ما مقدار مداخيل العرب من النفط، هذه الثروة التي كثر الكلام فيها، كثر تعظيمها، وكثر التهويل في قيمتها ومردودها..

الحق أن الأرقام المتوافرة غير دقيقة، إلى جانب عدم خلوها من التناقض، ففي حين ذكرت صحيفة الفاينتشل تايمز في مطلع التسعينات أنه «بين ارتفاع سعر النفط عام ١٩٧٣م ونهاية عقد الثمانينات تلقى العالم العربي (٥,١) تريليون [أي مليون مليون] دولار بشكل عوائد نفطية»[٤٦]. نجد أن **محمد حسنين هيكل** يؤكد «أن «مبيعات النفط العربي، خلال عشرين سنة خلت، بلغت ثلاثة تريليون دولار، المبلغ الذي لم يتجمع لدى أية امبراطورية- في العالم- حتى الآن»[٤٧]. ويذهب **مصطفى بازركان**[٤٨]

(٤٦) د. عدنان مصطفى: **أزمة البحث العلمي؛ هل إلى خروج من سبيل؟**- ضمن مجلة؛ **شؤون عربية** - الجامعة العربية- القاهرة- العدد ٦٥ - نيسان/ إبريل ١٩٩١م- ص٩.

(٤٧) جريدة: الوطن- الكويت- عدد ١/ ٢/ ١٩٩٠م.

(٤٨) مصطفى بازركان (خبير نفطي واقتصادي): في برنامج أكثر من رأي في محطة الجزيرة الفضائية يوم الثلاثاء ٢٣ شباط ١٩٩٩م.

إلى التساؤل قائلاً: «أين ذهبت الألف مليار [= ألف بليون] دولار عائدات النفط السعودي خلال العشرين سنة الأخيرة أين ذهبت ؟؟!!، وتؤكد الإحصاءات الرسمية غير الموثوقة أن عائدات الصادرات النفطية العربية قد بلغت (١٢٩) مليار دولار في عام ١٩٩٦[٤٩]، وبلغت (١١٠) مليار دولار في عام ١٩٩٧م[٥٠]، أي نحو تريليون دولار كل نحو سبع سنوات. أما التقارير الاقتصادية لصندوق النقد العربي، وتقارير منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط فتقودنا إلى أن عائدات النفط العربي فيما بين عامي ١٩٧٠م ١٩٨٦م قد بلغت نحو (١,٥) تريليون دولار[٥١].

يبدو أن ثمة تناقضاً بين هذه الأرقام، ولكنه، على كل حال وإلى حد ما، تناقض طفيف، ولاسيما إذا ما أخذنا بعين النظر عدم اشتراك فترات القياس إلا بتقاطعات لاتسمح في بعض الحالات باستنتاج وجه التناقض أو التضارب في الأرقام، ومهما يكن من أمر فإن في مكنتنا القول، استناداً إلى المعطيات السابقة، وبعد إجراء بعض التقاطعات وسد الثغرات: إن عائدات النفط العربي وحدها في الثلاثين سنة السابقة، أي من عام ١٩٧٠م حتى عام ١٩٩٩م، لم تقل في حال من الأحوال عن أربعة تريليون دولار، وإن كنت، لأسباب كثيرة، غير مطمئن إلى مصداقية هذا الرقم، ولاسيما أن مثل ربع هذا المبلغ يملكه شخص عربي واحد الآن هو الأمير **الوليد بن طلال**، ونحو ربعه أيضاً كانت تملكه أسرة آل الصباح عند الاحتلال العراقي للكويت كما طالعتنا الصحف والمجلات حينها، فكيف ستصح القسمة، وبأي حساب؟!!

---

(٤٩) جريدة: **الاتحاد** - أبو ظبي، عدد الاثنين ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٧م.

(٥٠) جريدة، الحياة - لندن - الأحد ١٢ تمز/ يوليو ١٩٩٨م - العدد ١٢٩١٣.

(٥١) عبد الحميد محفوظ الزقلعي: استثمار رؤوس الأموال العربية في الدول العربية - ضمن مجلة: **شؤون عربية** - القاهرة - العدد - ٦٥ - نيسان/ أبريل ١٩٩١م - ص ٥٠-٥١.

وعلى افتراض قبولنا بهذا الرقم الفلكي من الدولارات التي أوقف ثلثها محرر الفاينتشل تايمز مندهشاً ودفعه للتعليق باستغراب قائلاً: «ومع ذلك لم يظهر أي بلد عربي في جوار عتبة مرحلة الإقلاع الاقتصادي الذي تكشف في أقطار الشرق الأقصى بصورة نماء سريع»(٥٢).

وعلق **محمد حسنين هيكل** مذعوراً أمام نحو نصف هذا المبلغ قائلاً: إن هذا «المبلغ لم يتجمع لدى أية إمبراطورية -في العالم- حتى الآن»(٥٣)، هذا النصف الذي فاق مارصد لمشروع **مارشال**، لإعمارأوربا بعد الحرب العالمية الثانية، بأضعاف مضاعفة.

فأين ذهب هذا المبلغ الأسطوري، وماذا استفاد العرب منه؟؟!!!

سؤال لاينفك الكثيرون عن طرحه بمزيد من الحسرة، وربما الألم، وربما شكل هاجساً يعصف دائماً بمخيلات بعضهم!

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد من الإجابة عن سؤال آخر سابق منطقياً على هذا السؤال وهو: هل هذا المبلغ أسطوري حقاً؟

أياً كان الأمر، وقبل أي مقارنات يكفينا أن نعلم « أن الاحتياجات المالية لتمويل البنية التحتية في الدول العربية في السنوات العشر القادمة- الأولى من الألفية الثالثة- يقدر بنحو (٢٥٠) مليار [= بليون] دولار»(٥٤)، لنحكم بأن هذا المبلغ أسطوري حقاً، لأن ربع ربعه يقيم دنيا العرب ويضمن حسن ختامهم.

ولكن، إذا علمنا أن الناتج القومي للولايات المتحدة الأمريكية قد كان في عام ١٩٩٣م نحو (٦,٢٥٩) ترليون دولار، وارتفع في عام ١٩٩٧م إلى (٧,٧٨٣) ترليون دولار. وأن الناتج القومي لليابان في عام ١٩٩٣م كان (٤,٢١٤) ترليون دولار، وارتفع في عام ١٩٩٧م إلى (٤,٨١٢)

(٥٢) د. عدنان مصطفى: أزمة البحث العلمي؛ هل إلى خروج من سبيل؟ -ص٩.
(٥٣) جريدة: الوطن- الكويت- عدد ١/ ٢/ ١٩٩٠م.
(٥٤) جريدة؛ البيان- العدد ٦٩٨١- تاريخ ٣٠ تموز/ يوليو ١٩٩٩م.

ترليون دولار. فيما راوح الناتج القومي الإجمال للوطن العربي كله في مكانه أذ بلغ (٣٢٣)مليار [= بليون] دولار في عام ١٩٩٣م، وزاد ملياراً [= بليوناً] واحداً خلال الأربع سنوات التالية فبلغ (٣٢٤) مليار [= بليون] دولار في عام ١٩٩٧م(٥٥). كما في الجدول التالي:

الجدول رقم (١٠)

الناتج القومي الإجمالي

للولايات المتحدة واليابان والوطن العربي في عامي ١٩٩٣م و١٩٩٧م مقداراً بمليار دولار أمريكي(٥٦)

البلد	الولايات المتحدة الأمريكية	اليابان	الوطن العربي
العام			
عام ١٩٩٣م	٦٢٥٩,٩	٤٢١٤,٢	٣٢٣
عام ١٩٩٧م	٧٧٨٣,١	٤٨١٢,١	٣٢٤,٢

يبدو لنا من خلال المعطيات المقارنة في هذا الجدول أمران على أقل تقدير، أولهما أن المبلغ الذي ظنناه أسطورياً ليس بأسطوري، وإنما أقل من عادي إذا ماقورن مع أحد اقتصادي أعظم دولتين اقتصادياً في العالم.

ولكن، وفي الوقت ذاته، يبدو عدم مصداقية المعطيات المنشورة تقارير الأمم المتحدة، ولأسباب كثيرة، أولها أن هذه الأرقام ليست حقيقية بالضرورة لأن مصادرها هي الدول صاحبة الشأن وليس ثمة مقاييس ولامعايير تسمح بالوقوف على مدى مصداقية هذه الأرقام، ومنها أن عائدات النفط العربي وحدها حسب بعض التقارير، في تلك الفترة،

(٥٥) تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٦، وعام ١٩٩٩م- الأمم المتحدة.

(٥٦) تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعامي ١٩٩٦م و١٩٩٧م.

تربو على هذا الناتج القومي العربي كله، وحسب التقارير الرسمية عن تلك الفترة فإن عائدات النفط وحدها أكثر من نصف هذا الناتج القومي، وهذا ماينطوي على شيء من التناقض إذ كيف يتسق، في هذا السياق مثلاً، «أن عائدات النفط العربي كلها في عام ١٩٩٩م قد بلغت نحو (١١٠) مليارات دولار»[٥٧]، فيما «العائدات النفطية للسعودية وحدها قد بلغت (٢٠٤) مليار دولار في عام ١٩٩٧م، ونحو (٢٠٠) مليار دولار في عام ١٩٩٨م»[٥٨]، وحسب تقديرات التقرير السنوي الذي تعده المخابرات المركزية الأمريكية تحت عنوان (حقائق العالم) بلغ الناتج القومي السعودي ١٩١ مليار دولار في عام ١٩٩٩م[٥٩]، مع ذلك فإن «الناتج القومي العربي في العام ذاته، حسب التقرير الاقتصادي العربي، ومثله لعدة أعوام سابقة، قد ناف عن (٥٨٩) مليار دولار»[٦٠]؟؟ومن جهة أخرى أيضاً فإن الوثبات في إنتاج النفط بشكل خاص وفي تطور الانتاج القومي العربي في تلك الفترة كانت بعشرات المليارات فكيف يراوح مؤشر الإنتاج القومي العربي في تلك الفترة عند زيادة بليون واحد؟!!

والذي يؤكد تناقض هذه الأرقام وعدم مصداقيتها مؤشرات ومعطيات كثيرة، منها مايكشف عن بعض جوانب تبديد الثروة العربية الهائلة، ولو أننا تتبعنا هذا الموضوع تتبعاً دقيقاً منذ عشر سنوات فقط لكان لدينا من المعطيات الكثير الكثير الذي يحضر بعضه في أذهاننا، ولكن يغيب التوثيق، ولذلك حسبنا ماحضر توثيقه، وهو على قلته ليس بالسهل تعقله أبداً:

(٥٧) التقرير الاقتصادي العربي، نقلاً عن جريدة؛ الاتحاد- أبو ظبي- العدد ٨٩٥٤- الاثنين ١٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.

(٥٨) جريدة؛ البعث- دمشق- الأربعاء ٧/ ١/ ١٩٩٨م- العدد ١٠٥١٤.

(٥٩) سمير كرم: عندما يتسول الأثرياء- ضمن جريدة الكفاح العربي- عدد ١٣/ ٩/ ٢٠٠٠م.

(٦٠) التقرير الاقتصادي العربي، نقلاً عن جريدة؛ الاتحاد- أبو ظبي- العدد ٨٩٥٤- الاثنين ١٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.

ففي الدرجة الأولى ليس من العسير على المستثمرين الغربيين تبديد هذه المبالغ وتضييعها بوسائل متعددة ومتباينة، فهناك- كما قال نقولا سركيس مدير عام المركز العربي للدراسات النفطية: «الخسائر الناتجة عن غبن الشركات وسيطرة الدول الصناعية، تلك الخسائر التي تحققت ضمن ألف باب وباب، فمنها على سبيل المثال مايتعلق بانهيار الأسعار، وقد فقدت منظمة الأوبك جراء انهيار أسعار النفط بين أعوام ١٩٨٦م-١٩٨٩م أكثر من (٢٠٠) مليار دولار»[٦١]. ولاننسى في هذا الصدد فقدان الأوبك «نصف القوة الشرائية للدولار جراء انهيار أسعار صرفه بين أعوام ١٩٨٥م- ١٩٨٩م. ونصف القوة الشرائية لما تبقى من إيراداتها عام ١٩٨٢م نتيجة ارتفاع صادرات الدول الصناعية»[٦٢]. وقد «خسرت البلدان العربية (٩٢٩) مليار دولار فيما بين عامي ١٩٨٧م و١٩٩٨م بسبب السياسة النفطية لبعض دول الخليج»[٦٣]. وفي كل ذلك مايؤكد أن مبلغ (٤٠٠٠) مليار [= بليون] دولار، أي الأربعة تريليونات دولار أقل بكثير جداً من العائدات الحقيقية للنفط، والحقيقة أننا نركز هنا على العائدات النفطية لا لسبب إلا لأن الدول النفطية هي وحدها التي تحقق فائضاً في الميزان التجاري بين الدول العربية التي تقع كلها تقريباً في عجوز كبيرة في الميزان التجاري.

وفي مسلسل الهدر والخسائر نقف على بعض الأرقام البسيطة التي تمكنا من الحصول عليها، وكلها حسب المصادر الرسمية التي نصر على عدم الثقة فيها، فقد ذكرت صحيفة الحياة أن العرب لعدم فهمهم حق استرجاع الضريبة المضافة فقط، هذا الحق الأبسط من البسيط والأقل من القليل، يخسرون (٢٥٠) مليون دولار سنوياً[٦٤]، ومنها حسب تقدير

---

(٦١) جريدة: البعث- دمشق- عدد ٢/ ٣/ ١٩٩٠م.

(٦٢) جريدة: القبس- الكويت- عدد ٢٥/ ٤/ ١٩٩٠م.

(٦٣) أحمد أبو صالح: من السبب وراء انهيار أسعار النفط؟- صحيفة: الأسبوع- العدد ١٠٩- الاثنين ٢٦ ذو القعدة الموافق ١٥ آذار ١٩٩٩م- ص٧.

(٦٤) جريدة: الحياة- الأحد ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٩٨م- العدد ١٢٨٢٩.

نشرة الأنباء العربية اليومية أن العرب خسروا في عام ١٩٩٩م بسبب انخفاض أسعار النفط فقط (٣٣) مليار دولار [٦٥]. . . ولن نطيل الحديث في الإنفاقات الفلكية من السائحين العرب في العالم التي منها حسب تقديرات رسمية غير دقيقة، أن العرب الذين يزورون أوربا سنوياً يتجاوز (٥,١) مليون زائر، ينفقون أكثر من (٨,١) بليون دولار [٦٦]، أي بمعدل (١٢٠٠) دولار للسائح العربي الواحد، وهذا كلام لامعنى له منطقياً ولاواقعياً لأن الألف ومئتي دولار هذه ليست أكثر من ثمن بطاقة سفره في أي وسيلة نقل كانت إلى أوربا، فأين ذهبت تلك المبالغ الخيالية التي ينفقها كثير منهم في أماكن ومناسبات مختلفة وكثيرة سياحية فقط كما تطالعنا الصحف والمجلات، ولاسيما أن الذين يذهبون إلى أوربا من السياح العرب هم الأكثر ثراء منهم؟؟!!!

ومما يتضافر مع ماذكرنا ويؤكده أيضاً الأموال العربية المهربة والمستثمرة خارج الوطن العربي، وليس لدينا في حقيقة الأمر أية معطيات حقيقية أو دقيقة، شأننا في ذلك كشأننا مع العائدات العربية، فقد ذكر الدكتور **عدنان مصطفى** في مطلع التسعينات من القرن العشرين «أن رجال الأعمال العرب، في الأقطار العربية الغنية، دون حكوماتها، يدخرون في الخارج (١٢٠) مليار دولار، ويعتقد بأن أمثالهم من الأقطار العربية الفقيرة يدخرون مالايقل عن (٥٠) مليار دولار» [٦٧]. ولن نناقش مدى مصداقية هذا الرقم لأن المعطيات قد تغيرت كثيراً وإن ظلت غير كاملة ولادقيقة، ففي عام١٩٩٦م ذكرت صحيفة الحياة أن الأسواق العربية تجتذب فقط (٥٠) بليون دولار من أصل (٦٧٠) بليون دولار من الأموال العربية

(٦٥) جريدة: الكفاح العربي- الخميس ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٩٩م- العدد ٢٣٣٥.
(٦٦) جريدة: الحياة- الأحد ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٩٨م- العدد: ١٢٨٢٩.
(٦٧) د. عدنان مصطفى: أزمة البحث العلمي: هل إلى خروج من سبيل؟ -ص٩-١٠.

المستثمرة في الخارج في مطلع التسعينات(٦٨). أما في أواخر التسعينات فتشير «تقارير إحصائية موثوق [فيها]- حسب زعم صحيفة القدس العربي - إلى أن حجم الأموال العربية خارج الوطن العربي وصل إلى (٨٥٠) مليار دولار.. تدعم اقتصاد العالم الغربي بشكل خاص، بينما حالنا [نحن العرب والمسلمون] لايحتاج إلى إشارة»(٦٩).

قلت حسب زعم الصحيفة لأن هذا الرقم (الموثوق فيه) خال من المصداقية أيضاً، والذي يؤكد ذلك أن **الوليد بن طلال**؛ سادس أغنى رجل في العالم، يملك وحده مثل هذا المبلغ، حسب كلامه هو وفي أكثر من موقع ومكان، «فقيمة موجودات الشركات التي يملكها (٨٠٠) مليار دولار.

- وإجمالي أرباحها (١٧) مليار دولار»(٧٠).

- (٢٥٪) منها فقط ضمن الوطن العربي. (٧٥٪) منها خارج الوطن العربي»(٧١).

والوليد بن طلال ليس المستثمر العربي الوحيد خارج الوطن العربي، إنه واحد من عشرات وربما من مئات، هذا من جانب، ومن جانب آخر أن هذا المبلغ يشير فقط إلى الأموال المستثمرة دون الأموال المهربة والحسابات السرية أو غير السرية. ولذلك عندما قال أحد المفكرين في محاضرة ألقاها في مطلع الألفية الثالثة إنه قرأ في مجلة ألمانية في بحر عام ١٩٩٩م أن الأموال العربية المهربة إلى الخارج تربو على (١٢٠) ألف مليار دولار، أي (١٢٠) تريليون دولار، أي (١٢٠) مليون مليون دولار... لم يصفر أحد دهشة، ولم تبد أية علامة استغراب، على الرغم من هول هذا الرقم وأسطوريته الأكثر من خيالية.

(٦٨) جريدة؛ الحياة- الأحد ١١ شباط/ فبراير ١٩٦٦م- العدد ١٢٠١٤.

(٦٩) جريدة؛ القدس العربي- القاهرة- العدد ٤٢٣- تاريخ ٦/ ٨/ ١٩٩٩م.

(٧٠) حسن صبرا: حوار مع الوليد بن طلال- ضمن مجلة؛ الشراع- بيروت- العدد ٨٩٧- ١٩٩٩م- ص١-٥-١٩ من الملف.

(٧١) م.س- ص١٣.

وعلى الرغم من ذلك كله تطالعنا بعض المجلات العربية على أرقام مؤسفة من العجز في ميزانيات الدول العربية الثرية بشكل خاص - لأن الدول الفقيرة تغرق في الديون والعجز منذ زمن بعيد إذ بلغت «ديون هذه الدول في عام ١٩٨٨م نحو (١٤٠) مليار [= بليون] دولار»[٧٢] - ومن ذلك على سبيل المثال أن السعودية، حسب التقديرات الرسمية، حتى منتصف عام ١٩٩٨م كانت تقع في عجز قدره (١٠) مليارات دولار[٧٣]، وحتى الفترة ذاتها كانت الكويت تقع في عجز قدره (٦) مليارات دولار[٧٤]، ونقرأ في خبر رسمي المصدر أيضاً أن دول الخليج العربي تقع في عجز مقداره (٢٠) مليار دولار[٧٥]. وفي مطالع عام ١٩٩٨م طالعتنا صحيفة تشرين السورية بخبر يقول إن الديون العربية تزيد (٥٠) ألف دولار في الدقيقة[٧٦]، أي، ومن دون خدمات الديون، أي تراكمات الفائدة، نحو مليار ومئة مليون دولار سنوياً، وعلى هذا الأساس كان من المتوقع أن تبلغ الديون العربية، من دون الطفرات والطواريء، في عام ٢٠٠٠م نحو (٢٦٢) مليار دولار[٧٧]، ولكنها في حقيقة الأمر زادت عليه بنحو الضعف إذ بلغت «(٤١٠) مليار دولار»[٧٨]، وقيمة خدمة الديون العربية أكثر من (٤,١٥١) مليار دولار[٧٩].

---

(٧٢) د. عدنان مصطفى: أزمة البحث العلمي... -ص٩.

(٧٣) جريدة؛ الميزان -عدد آب/ أغسطس ١٩٩٨م.

(٧٤) جريدة؛ الميزان -عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨م.

(٧٥) جريدة؛ أخبار اليوم- السبت ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٩م.

(٧٦) جريدة؛ تشرين -الأحد ١١/ ١/ ١٩٩٨م، العدد ٧٠٠٧.

(٧٧) م.س ت ذاته.

(٧٨) أحمد الخشن: العرب والقرن الواحد والعشرون- ضمن جريدة؛ الاتحاد- أبو ظبي- العدد ٨٩٧٧- في ٢/ ٢/ ٢٠٠٠- ص٧.

(٧٩) التقرير الاقتصادي العربي، نقلاً عن جريدة؛ الاتحاد- أبو ظبي- العدد ٨٩٥٤- الاثنين ١٠ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٠م.

وأخيراً:

أليس العرب مذهلون حقاً؟ ألا يسلبون العقول بما يمتلكونه من القدرة على الإدهاش، والإدهاش الفعلي؟

لاشك في أنهم مدهشون! مذهلون . . مذهلون حقاً!!

ولكن من منهم المذهلون؟ أهم النوابغ الذين استطاعوا أن يشكلوا مفاصل مهمة في السيرورة الفكرية والعلمية والاقتصادية في مختلف أصقاع العالم الواقعة خارج الوطن العربي؟ أم هم القابعون في الوطن، الذي أخرجوا هؤلاء العباقرة، وأخرجوا ثروات الوطن؟؟!!

ثبت المراجع

١ . أحمد أبو صالح: من السبب وراء انهيار أسعار النفط؟- صحيفة: **الأسبوع**- العدد ١٠٩- الاثنين ٢٦ ذي القعدة الموافق ١٥ آذار ١٩٩٩م.

٢ . أحمد الخشن: العرب والقرن الواحد والعشرون- ضمن جريدة: **الاتحاد**- أبو ظبي- العدد ٨٩٧٧- في ٢/ ٢/ ٢٠٠٠م.

٣ . أنطوان زحلان (الدكتور) وآخرون: **السكان والتنمية في الشرق الأوسط**- قسم التنمية الاجتماعية والسكان- اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا/ بغداد- الأمم المتحدة- ١٩٨٤م.

٤ . أنطوان زحلان: **مشكلة هجرة الكفاءات العربية**. ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية**- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط٣- ١٩٨٥م.

٥ . أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السياق القومي والدولي**- ضمن مجلة: **المستقبل العربي**- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- العدد ١٥٩- ٥/ ١٩٩٢م.

٦ . إياد القزاز: **اللوبي العربي في الولايات المتحدة؛ الهوية السياسية والمشاركة في العمل السياسي**- ضمن مجلة: المستقبل العربي- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- العدد ٢٠٩- ٧/ ١٩٩٦م.

٧. برهان غليون: مستقبل الجاليات العربية في أوربا - ضمن مجلة؛ المستقبل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - العدد ٢٠٩ - ١٩٩٦/٧م.
٨. تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٦، وعام ١٩٩٩م - الأمم المتحدة.
٩. تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعامي ١٩٩٦م، و ١٩٩٧م - الأمم المتحدة.
١٠. توفيق المديني: النفط العربي واغترابه عن قضايا التحرر والوحدة العربية - ضمن مجلة؛ الوحدة - المجلس القومي للثقافة العربية - المغرب - العدد ٤٢ - عام ١٩٨٨م.
١١. جريدة أخبار اليوم - السبت ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٩م.
١٢. جريدة الاتحاد - أبو ظبي - عدد الاثنين ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧م.
١٣. جريدة الاتحاد - أبو ظبي - العدد ٨٩٥٤ - الاثنين ١٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.
١٤. جريدة الاتحاد - أبو ظبي - العدد ٨٩٦٨ - الاثنين ١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.
١٥. جريدة الاتحاد - أبو ظبي - العدد ٨٩٦٩ - الثلاثاء ١٩ شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.
١٦. جريدة الاتحاد - الأدمغة المهاجرة... تعود إلى مواطنها عبر الأنترنت - أبو ظبي - عدد الجمعة ١٠ رجب ١٤١٩هـ/ ٣٠ تشرين الأول ١٩٩٨م.
١٧. جريدة البعث - العدد ١٠٥١٤ - دمشق - الأربعاء ٧/ ١/ ١٩٩٨م.
١٨. جريدة البعث - دمشق - عدد ٢/ ٣/ ١٩٩٠م.
١٩. جريدة البيان - العدد ٦٩٨١ - تاريخ ٣٠ تموز / يوليو ١٩٩٩م.
٢٠. جريدة تشرين - الأحد ١١/ ١/ ١٩٩٨م، العدد ٧٠٠٧.
٢١. جريدة الحياة - العدد ١٢٠١٤ - الأحد ١١ شباط / فبراير ١٩٦٦م.
٢٢. جريدة الحياة - العدد ١٢٨٢٩ - الأحد ١٩ نيسان / أبريل ١٩٩٨م.
٢٣. جريدة الحياة - العدد ١٢٨٢٩ - الأحد ١٩ نيسان / أبريل ١٩٩٨م.
٢٤. جريدة الحياة - العدد ١٢٩١٣ - لندن - الأحد ١٢ تموز / يوليو ١٩٩٨م.

٢٥ . جريدة **العربي المصرية**- العدد ٢٦٩ -تاريخ ٨ حزيران ١٩٩٨م .
٢٦ . جريدة **القبس**- الكويت- عدد ٢٥/ ٤/ ١٩٩٠م.
٢٧ . جريدة **القدس العربي**- القاهرة - العدد ٤٢٣- تاريخ ٦/٨/١٩٩٩م.
٢٨ . جريدة **الكفاح العربي**- العدد ٢٣٣٥- الخميس ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٩٩م.
٢٩ . جريدة **الميزان** -عدد أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨م.
٣٠ . جريدة **الوطن**- الكويت- عدد ١/ ٢/ ١٩٩٠م.
٣١- حافظ قبيسي: **مدخل لدراسة التوزع الجغرافي للباحثين العلميين العرب**- ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية**- مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت- ط٣- ١٩٨٥م.
٣٢. حسن صبرا: **حوار مع الوليد بن طلال**- ضمن مجلة؛ **الشراع**- بيروت- العدد ٨٩٧- ١٩٩٩م.
٣٣ . سعيد الصباح: عالمان لبنانيان آخران في عالم النسيان- ضمن مجلة؛ **الشراع**- العدد ٩١١- كانون الثاني- ١٩٩٩م.
٣٤ . سعيد الصباح: لبنان والعرب يخسرون علماءهم- ضمن مجلة؛ **الشراع**- العدد ٩١٣- كانون الثاني- ١٩٩٩م.
٣٥ . سلمان رشيد سلمان (الدكتور) : **العولمة وهجرة الكفاءات العلمية العربية**- ضمن جريدة؛ **الاتحاد**- أبو ظبي- الثلاثاء ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.
٣٦ . سميح فرعون: **المهنيون الأمريكيون من أصل عربي وهجرة الكفاءات**- ضمن كتاب: هجرة الكفاءات العربية- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط٣- ١٩٨٥م- ص٢٤٦.
٣٧ . سمير كرم: **عندما يتسول الأثرياء**- ضمن جريدة **الكفاح العربي**- عدد ١٣/ ٩/ ٢٠٠٠م.
٣٨ . سناء الصباح: **الظفر يحول لبنان إلى حقيبة سفر**- ضمن جريدة؛ **الأنوار**- بيروت- العدد ١٣٩١٩- يوم الأحد ٦ شباط ٢٠٠٠م.
٣٩ . عبد الحميد محفوظ الزقلعي: **استثمار رؤوس الأموال العربية في الدول العربية**- ضمن مجلة؛ **شؤون عربية**- القاهرة- العدد ٦٥- نيسان/ أبريل ١٩٩١م.

٤٠ . عبد الكريم بكار (الدكتور): **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي**- دار القلم/ الدار الشامية- دمشق/ بيروت- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٤١- عثمان أبا يزيد: **دراسة حالة لبعض مشاريع اليونسكو المتعلقة بهجرة الكفاءات العربية**- ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية**- مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت- ط٣- ١٩٨٥م.

٤٣ . عزت السيد أحمد: **انهيار دعاوى الحداثة**- دار الثقافة- دمشق- ط٢- ١٩٩٩م.

٤٤ . عيسى درويش: البترول وأهميته في معركة الصمود والتصدي- ضمن مجلة؛ **المناضل- العدد ١١٧- كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩م.**

٤٥ . غوستاف لوبون: سر **تطور الأمم**- ترجمة أحمد فتحي زغلول- دار النفائس- بيروت- ط١- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٤٦ . فريد وجدي: حوار مع **الدكتور فاروق الباز**- ضمن جريدة؛ **الاتحاد؛ الملحق الاقتصادي**- أبو ظبي- الأربعاء ١١ ذو القعدة ١٤٢٠هـ/ ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٠م- العدد ٨٩٩١.

٤٧ . **مجلة المجلة**- العدد ٥٣٧- تاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م.

٤٨ . مجلة حياتنا والشباب- العدد ٥٣- شباط ٢٠٠٠م.

٤٩ . محمد عارف: **العلماء العرب يطرقون أبواب النانوتكنولوجي**- ضمن جريدة؛ الحياة- الأربعاء ١٦ رمضان ١٤١٨هـ/ ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨م- العدد ١٢٧٣٦.

٥٠ . محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي**- ضمن مجلة؛ العربي- وزارة الإعلام- الكويت- العدد ٤٩٤- كانون الثاني- ٢٠٠٠م.

٥١ . محمد عارف: **نجوم عربية في سماء الهندسة والعلوم العالمية للقرن العشرين**- ضمن جريدة؛ الحياة- لندن- العدد ١٣٤٤٩- الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ/ ٥كانون الثاني/ يناير- ٢٠٠٠م.

٥٢ . محمد عبد العليم مرسي (الدكتور): **هجرة العلماء من العالم الاسلامي**- مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٥٣ . محمد علي صالح : **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل** - ضمن مجلة ؛ المجلة- لندن- العدد ١٠١٤ - ١٨/ ٧/ ١٩٩٩م .

٥٤ . محمد علي صالح : **من أميون في لبنان إلى رئاسة إمبراطورية فوردت** ضمن مجلة ؛ المجلة- العدد ١٠٠٩ - تاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٩٩م .

٥٥ . مصطفى أبو لسان (الدكتور) **الأدمغة العربية؛ هجرة وتهجير** - ضمن مجلة ؛ الوسط- لندن- العدد ١٨٨ - في ١٤/ ٩/ ١٩٩٥م .

٥٦ . مطر حلمي : **قصة القبض على أحد أهم خمسة علماء صواريخ في العالم** - ضمن مجلة ؛ المجلة- العدد ٥٣٧ - ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م .

* * *

الحاجة إلى طاقة نووية

ريتشارد روديس ودينيس بيلر
ترجمة: د. هشام الدجاني (*)

انطلاقة نظيفة (**):

يحتاج العالم الى مزيد من الطاقة. فالطاقة تضاعف العمالة البشرية وتزيد الانتاجية. إنها تبني المدارس وتضيئها، وتنقي المياه، وتشغل الآليات الزراعية، وتسيرّ آلات

(*) د. هشام الدجاني: باحث ومترجم من فلسطين، له عدة مؤلفات مترجمة، من أهمها: «عصر النهايات القصوى».

(**) مجلة فورين أفيوز- Foreign Affairs: عدد ك٢/ شباط ٢٠٠٠. عنوان المقال: The Need for Nuclear Power.

الخياطة والروبوت، وتخزّن المعلومات وتنقلهـا. يزداد سـكان العـالم على نحـو مضطرد، وقد تجاوز تعدادهم ستة بلايين من البشر في عام ١٩٩٩. ومع هذ ايفتقر ثلث هؤلاء أي بليونان من البشر- الى الكهرباء. يعتمد التطور على الطاقة أما بديل التطور فهو معاناة الفقر والمرض والموت. مثل هذه الظروف تولد عدم الاستقرار واحتمال انتشار العنف ولذا فإن الأمن القومي يتطلب أمماً متطورة كي تساعد في زيادة إنتاج الطاقة لدى نظيرتها النامية الأكثر سكانا. ومن أجل السلامة والأمن معا لابد أن تأتي هذه الزيادة في الطاقة من مصادر متعددة الأشكال.

وتقدر «الجمعية الملكية البريطانية» و« الأكاديمية الملكية للهندسة» في تقرير صدر عام ١٩٩٩ حول الطاقة النووية والتبدل المناخي «أننا نستطيع أن نتوقع على المستوى العالمي أن يتضاعف استهلاكنا للطاقة على الأقل في السنوات الخمسين القادمة، وأن يزداد بمقدار ٥ مرات في السنوات المائة القادمة مع تزايد تعداد السكان في العالم ومسعاهم الى تحسين مستويات معيشتهم». أما انتاج الطاقة العالمي فإنه مع التخطيط الشديد يكاد يزداد بمقدار ثلاث أمثال في عام ٢٠٥٠ لدعم الاستهلاك بمقدار الثلث فحسب من معدل استهلاك الفرد الأمريكي اليوم.

وتتنبأ «الوكالة الدولية للطاقة»(IEA)التابعة لـ«منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية»(OECD) بزيادة مقدارها ٦٥٪ على الطلب العالمي للطاقة في عام ٢٠٢٠، يأتي ثلثاها من الدول النامية. وتحذر الجمعية الملكية والأكاديمية الملكية قائلة: « نظراً لمستويات الاستهلاك المحتملة في المستقبل سيكون علينا أن نواجه تحديا جسيما لتلبية الطلب العالمي من الطاقة بدون إضرار طويل المدى بالبيئة». ذلك الضرر يشمل التلوث على سطح الأرض وفي الهواء وتسخين حرارة الجو في العالم. تأتي معظم الطاقة العالمية اليوم من النفط (بنسبة ٣٩,٥٪) والفحم (بنسبة ٢٤,٢٪) والغاز الطبيعي (٢٢,١٪) والطاقة الكهربائية المائية ٦,٩٪ والطاقة النووية (٦,٣٪). ورغم استمرار سيطرة النفط والفحم فإن نسبتهما في السوق بدأت تتناقص منذ عقود. بينما نرى أن الغاز الطبيعي والطاقة النووية تتزايد نسبتهما باطراد

وينبغي أن يستمر ذلك. وخلافاً لتأكيدات المنظمات المناهضة للذرة فإن الطاقة النووية ليست ميتة ولا تعاني من الموت.

ففرنسا تولد ٧٩٪ من كهربتها بالطاقة الذرية، وبلجيكا ٦٠٪، والسويد ٤٢٪، وسويسرة ٣٩٪ وإسبانيا ٣٧٪ واليابان ٣٤٪ والمملكة المتحدة ٢١٪، والولايات المتحدة (أكبر منتج للطاقة النووية في العالم) بنسبة ٢٠٪. وقد أعلنت كل من كوريا الجنوبية والصين عن خطط طموحة لتوسيع إمكاناتها من الطاقة النووية، حيث ستقوم الأولى ببناء١٦ مصنعاً جديداً مما يعني زيادة الطاقة بنسبة تفوق على المائة في المائة. وتلبي الطاقة النووية، من خلال المفاعلات النووية الـ٤٣٤ المنتشرة في مختلف أصقاع العالم، الاحتياجات السنوية من الكهرباء لما يزيد على مليار نسمة.

وفي أمريكا وأرجاء أخرى من العالم جرى تحسين شروط السلامة النووية والفعالية بدرجة كبيرة منذ عام ١٩٩٠. ففي عام/ ١٩٩٨/ بلغ عامل قدرة الوحدة (أي الجزء من طاقة الإنتاج الذي يولد الطاقة فعلياً) لتشغيل المفاعلات مستويات قياسية. فقد بلغ معدل انتاج الطاقة في الولايات المتحدة عام ١٩٩٨ نسبة ٨٠٪ في ما يزيد على ١٠٠ مفاعل، بالمقارنة مع ٥٨٪ في عام ١٩٨٠، و ٦٦٪ في عام ١٩٩٠. وعلى الرغم من تقليص عدد مصانع الطاقة فإن الصناعة النووية الأمريكية قد ولدت ما نسبته ٩٪ من الزيادة من الكهرباء النووية عام ١٩٩٩ على ما تم إنتاجه عام ١٩٩٨. ويصل معدل كلفة إنتاج الطاقة النووية الآن ١,٩ سنت أمريكي فقط للكيلو واط الساعي (KWh)، في حين أن انتاج الكهرباء من الغاز يكلف ٣,٤ سنت لكل كيلو واط ساعي. وفي الوقت نفسه، تناقصت من جديد نسب تعرض العمال للاشعاع والنفايات المنتجة للوحدة الواحدة من الطاقة.

ولما كانت التقنيات المعقدة الكبرى قد احتاجت لأكثر من نصف قرن كي تنتشر في أرجاء العالم فإن الغاز الطبيعي سوف يشارك الطاقة النووية في موقع الصدارة لتوليد الطاقة. ولم يتبيّن بعد أي منهما سيحظى بالحصة

الأكبر. بيد أن كليهما يعتبر أكثر نظافة وأماناً من زيت الوقود (الفيول) الذي أخذا يحلان محله، ولسوف تتعزز سيطرتهما. وحتى البيئيون ينبغي أن يرحبوا بهذا التحول ويعيدوا النظر في اعجابهم الشديد بمصادر الطاقة المتجددة.

أمم الفحم :

يعتبر الفحم المصدر الأكثر اضرارا بالبيئة من بين مصادر توليد الطاقة الكهربائية. (يحل النفط، المصدر الأساسي للطاقة اليوم، عبء المواصلات، مما يجعله يصنف في فئة منفصلة). وتشير دراسات أخيرة أعدتها «مدرسة هارفرد للصحة العامة» إلى أن الملوثات من جراء احتراق الفحم تسبب حوالي ١٥ ألف حالة وفاة مبكرة كل عام في الولايات المتحدة وحدها. ويطرح الفحم الذي يستخدم لانتاج قرابة ربع الطاقة الأولية للعالم، كميات من النفايات السامة الهائلة بحيث يصعب احتواؤها بأمان. مثل هذه النفايات تتناثر مباشرة في الهواء أو تجفف وتلقى في المزابل. وبعضها يمزج مع مواد البناء. وتعتبر المصانع التي تعمل باحتراق الفحم بالاضافة إلى الكيماويات الضارة المنبعثة على صورة غازات أو ذرات سامة- كالكبريت وأكاسيد الأزوت (مكونات المطر الحامضي والضبخن*) والزرنيخ والزئبق والكادميوم والسيلينيوم والرصاص والبورون**) والكروم والنحاس والفلور، والموليبديوم والنيكل والفاناديوم والتوتياء وأول وثاني أوكسيد الفحم وغازات البيت الزجاجي الأخرى- هي أيضاً المصدر الأول في العالم للنفايات المشعة في البيئة. كما أن الأورانيوم والثوريوم وهما من

(*) -الضبخن: (Smog) هو الضباب الممزوج بالدخان. وهذه المفردة (الضبخن) هي المستخدمة في أدبيات منظمة الصحة العالمية.

(**) - البورون: ويعرف باسم حامض البورق. المترجم

العناصر المشعة الخفيفة المتواجدة بكثرة في القشرة الأرضية، يتشران كلاهما عند استخراج الفحم. وينشر مصنع للطاقة بحجم ألف ميغا واط من الكهرباء، يعمل بالفحم المحترق، من المواد المشعة في البيئة بما يزيد بمقدار ١٠٠ مرة على مصنع يعمل بالطاقة النووية. وتبلغ نفايات العالم من الأورانيوم والثوريوم المنبعثة من احتراق الفحم حوالي ٣٧,٣٠٠ طن (طن متري) سنوياً، منها ٧,٣٠٠ طن تأتي من الولايات المتحدة. ولما كان الأورانيوم والثوريوم هما وقود نووي شديد الفعالية، فإن الفحم المحترق يهدر من الطاقة الكامنة أكثر مما ينتج.

والانتشار النووي هو نتيجة محتملة أخرى قد أُغفلت لاحتراق الفحم. فاليورانيوم المتسرب من مصنع واحد يعمل بالفحم بقدرة ١٠٠٠ ميغاواط (Mwe) في سنة يحتوي على حوالي ٧٤ باوند من اليورانيوم، وهي كمية تكفي لانتاج قنبلتين ذريتين على الأقل. هذا اليورانيوم ينبغي أن يخصّب قبل أن يصبح بالامكان استعماله، وهي عملية معقدة ومكلفة. ولكن البلوتونيوم يمكن أن يتولد من الأورانيوم المستخلص من الفحم. والأكثر من ذلك- يكتب الفيزيائي الكس غابارد من «مخبر أوك ريدج الوطني»- «ان جمع رماد الفحم ومعالجته لاستعادة المعادن يمكن أن يجريا بدون إثارة انتباه خارجي أو إثارة أي اهتمام أو تدخل، وذلك لأن الاستخدامات الكهربائية لا تعتبر من المرافق رفيعة المستوى. اذ تستطيع أية دولة تملك مصانع تعمل باحتراق الفحم أن تجمع مشتقات احتراق وتجمّع مواد كافية للأسلحة النووية لبناء ترسانة بالغة القوة». وفي بداية الخمسينات عندما كان يُعتقد أن الفلزات الأغنى متيسرة، أجرت «لجنة الطاقة النووية» الأمريكية بالفعل تحقيقاً حول استخدام الفحم كمصدر لانتاج اليورانيوم لاستخدامه في الأسلحة النووية، واستنتجت اللجنة أن احتراق الفحم من شأنه أن يركز المعدن، الذي يمكن أن يستخلص عندئذ من الرماد.

مثل هذا السيناريو قد يبدو بعيد المنال. ولكنه يؤكد المساوىء السياسية التي تعمل في إطارها الطاقة النووية. فالقوانين السارية ترغم المرافق النووية، خلافاً للمرافق العاملة بالفحم، على أن تستثمر في أنظمة مكلفة تحد من تسرب النشاط الاشعاعي. والوقود النووي لا يجري تدويره بشكل فعال في الولايات المتحدة بسبب المخاوف من الانشطار. هذه العوامل غطت على تطور اقتصاديات الطاقة النووية وخلقت مشكلة تصريف نفايات صعبة سياسيا. ولو أن مرافق استخدام الفحم أجبرت على اتخاذ تكاليف مشابهة لما عادت الكهرباء المتولدة بالطاقة النووية أغلى من تلك المتولدة عن طريق الفحم.

تراجع المصادر القابلة للتجدد وانتشارها :

مصادر الطاقة القابلة للتجدد- كالطاقة الهيدرو كهربائية، والشمسية، وطاقة الرياح، والطاقة الحيوحرارية والكتلة العضوية- ذات تكاليف باهظة من حيث رأس المال المستثمر، وعواقب بيئية جسيمة، وإن كان لا يجري الاعتراف بذلك عادة. فالطاقة المائية لا يمكن أن تعتبر حقاً طاقة قابلة للتجدد نظراً لأن السدود بالنتيجة تكون مشبعة بالرواسب الطينية. ومعظم المصادر القابلة للتجدد تجمع طاقة مخففة الى حد كبير، مما يتطلب مساحات واسعة من الأرض وحشوداً من العاملين على تركيزها. وإن تصنيع آلات التجميع الشمسية، وهب الاسمنت لأرضيات طواحين الهواء، وانحراف كثير من الأميال المربعة من الأرض خلف السدود تسبب الضرر والتلوث.

والخلايا الخاصة بتوليد الكهرباء المستخدمة في المجموعة الشمسية هي بمثابة ناقلات وسيطة ضخمة، وتصنيعها يفرز ذوائب نفايات معدنية عالية السمية تتطلب تقانة خاصة لتصريفها. إذ يولد كل مصنع بطاقة ألف ميغاوات لتوليد الكهرباء بالطاقة الشمسية: ٦,٨٥٠ طناً من النفايات الخطرة الناجمة عن معالجة المعادن وحدها على مدى ٣٠ عاماً من التشغيل. ويتطلب مصنع مشابه يعمل بالطاقة الشمسية الحرارية(مستخدماً مرايا مركزة

على برج مركزي) معادن للإنشاء تولد ٤٣٥ ألف طن من نفايات التصنيع، منها ١٦,٣٠٠ طن ملوثة بالرصاص والكروم وتعتبر خطرة.

ان نظاماً عالمياً للطاقة الشمسية من شأنه أن يستهلك ٢٠٪ على الأقل من موارد الحديد المعروفة في العالم. وهذا ما يتطلب قرناً من الزمن لبنائه وحصة كبيرة من الانتاج العالمي من الحديد لمواصلة العمل. والطاقة الضرورية لتصنيع جامعات شمسية كافية لتغطية نصف مليون ميل مربع من سطح الأرض وتوصيل الكهرباء عبر شبكات نقل بعيدة المدى سوف تزيد في حد ذاتها بشكل فادح مما يعانيه العالم من عبء التلوث وغاز البيوت الزجاجية. كما أن شبكة عالمية للطاقة الشمسية بدون مساندة نووية أو مستحاثية (نفط) سوف تكون عرضة على نحو خطر الى نفاذ من الاشعاع الشمسي الآتي من حوادث بركانية مثل الانفجار البركاني الذي حدث عام ١٨٨٣ في كراكاتوا والذي سبب تضرر المحاصيل على نطاق واسع خلال «السنة بدون صيف» التي تلت.

ومزارع الرياح غير مجدية وذات طاقة منخفضة (لكونها متقطعة)، هذا فضلا عن تطلبها لملايين الأرطال من الأسمنت والفولاذ لبنائها (مما يولد كميات هائلة من النفايات). وهي تسبب أيضاً تلوثا بيئياً بصريا وسمعيا بالاضافة إلى فتكها الشديد بالطيور. اذ تفتك سنويا بضع مئات من الطيور، ومن بينها العشرات من النسور الذهبية التي تموت كل سنة بسبب مزرعة كاليفورنيا وحدها التي تدار بطواحين الرياح. كما قُتلت أعداد من النسور بسبب المولدات التي تعمل بطاقة الرياح أكبر مما فُقد جرآء انسكاب النفط الكارثي لشركة اكسون Exxon في فالديز. وقد شنت «جمعية اوديوبون الوطنية» حملة لانقاذ النسر الأمريكي (الكوندور) في كاليفورنيا من مشروع بناء مزرعة تدار بطواحين الهواء كان من المقرر بناؤها شمال لوس أنجليس. إن مزرعة تدار

> *إن الاستثمار الضخم في المصادر المتجددة كان من الأفضل أن ينفق في مصانع الفحم ومنظفات السيارات*

بالرياح يعادل انتاجها وطاقتها محطة تنتج ألف ميغاواط بالوقود أو الذرة، سوف تشغل مساحة ألفي ميل مربع من الأرض، هذا عدا عن الموارد الأساسية وتكاليف التلوث الخفي، تكلف ضعفي أو ثلاثة أضعاف تلك التي تشغل بالنفط.

على الرغم من أن ربع الاحتياطي العالمي الكامن على الأقل من الطاقة المائية قد جرى تطويره، فإن الطاقة الكهرومائية التي تنتجها السدود التي تغمر مساحات شاسعة من الأرض وتشرد السكان الريفيين، وتبدل بيئة الأنهار، وتقتل الأسماك، وتهدد بانهيارات كارثية، قد فقدت لسبب مفهوم مسانده البيئيين في السنوات الأخيرة. وقد استجاب «مصرف التصدير والاستيراد» الأمريكي جزئياً لقوى الضغط البيئية عندما رفض تحويل مشروع «السدود الثلاثة» الصيني بطاقة ١٨ ألف ميغاوات.

وفي الوقت نفسه فإن المصادر الجيوحرارية- التي تستغل الحرارة الداخلية للأرض المنبعثة في مناطق الينابيع الحارة أو تحت البراكين- محدودة بالأصل وتتوافق غالباً مع المواقع ذات المشاهد الطبيعية (مثل حديقة الحجر الأصفر الوطنية) والتي يريد المحافظون لسبب مفهوم الحفاظ عليها.

بسبب هذه المساوىء وغيرها تتنبأ منظمات من مثل مجلس الطاقة العالمي ووكالة الطاقة الدولية (IEA) بأن يستمر توليد الطاقة الكهرومائية بما لا يزيد عن حصته الحالية ٦,٩٪ من امداد الطاقة العالمي، في حين أن مصادر الطاقة المتجددة، بالرغم من الدعم المادي الشديد، سوف ترتفع نسبتها الحالية ٠,٥٪ بما لا يزيد على ٥ إلى ٨٪ في عام ٢٠٢٠. وفي الولايات المتحدة الدولة الرائدة في العالم في توليد الطاقة المستجدة، نجد أن مثل هذا الانتاج يتناقص فعلا بنسبة ٩,٤٪ ما بين عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨، حيث تناقص إنتاج الطاقة المائي بنسبة ٩,٤٪ والإنتاج

الجيوحراري بنسبة ٤ , ٥٪ وانتاج الطاقة بواسطة الرياح بنسبة(٥ , ٥٠٪) والانتاج بالطاقة الشمسية بنسبة ٧ , ٢٧٪ .

وكشأن حلم الانصهار الحراري النووي الخاضع للسيطرة ، فإن حقيقة عالم يعتمد علة طاقة أصلية متولـدة من المصـادر المستخدمة تستمر في التراجع على الرغم من الأبحاث وأعمال التطوير المكلفة والمخصصات الكبيرة . إذ بلغت ميزانية البحث والتطوير الأمريكية عام ١٩٩٧ لكل ألف كيلو واط ساعي ما يعادل ٥ سنتات فقط للذرة والفحم ، و ٥٨ سنتاً للنفط ، و ٤١ سنتاً للغاز ، فيما بلغت ٧٦٩ , ٤ دولار لطاقة الرياح و ٠٠٦ , ١٧ دولار للطاقة الكهروضوئية . هذا الاستثمار العام الضخم في الطاقات القابلة للتجدد كان من الأفضل انفاقه على مصانع الفحم ومنظفات السيارات . واستنادا إلى ما يقوله روبرت برادلي من «معهد هوستون لأبحاث الطاقة» فإن جهود الصيانة والمصادر غير الكهرومائية القابلة للتجدد قد استفادت من استثمار متراكم لدافع الضريبة على مدى ٢٠ عاماً وصل الى ما يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ مليار دولار ، وهو «أكبر انفاق حكومي في زمن السلم على الطاقة في تاريخ الولايات المتحدة» . ويقدر برادلـي أن مبلغ الـ ٨ , ٥ بليون دولار التي أنفقت من قبل وزارة الطاقة على مخصصات الطاقة الشمسية وطاقة الرياح «وحدها كان يمكن أن تدفع على استبدال ما بين ٥ آلاف و ١٠ آلاف ميغاوات من طاقة الفحم القذرة بوحدات من الدارات الغازية المتصلة التي كان من شأنها أن تخفض من انتشار ثاني أكسيد الفحم بمقدار يتراوح ما بين الثلث والثلثين» . واستبدال الفحم بتوليد الطاقة النووي كان من شأنه أن يخفف من مقدار انبعاث الغازات الكلي بما يزيد على ذلك .

وعلى الرغم من الاستثمار الضخم فإن الصيانة ومصادر الطاقة المستجدة غير الكهرومائية تظل بعناد غير تنافسية ولا تساهم الا جزئيا بامدادات الطاقة في أمريكا . فإذا كانت أغنى أمة في العالم لا تقدر على علاج ذلك فمن يستطيع؟ من الواضح أنها ليست الصين والتي يتوقع

أن تولد أقل من ١٪ من طاقتها التجارية من مصادر مستجدة غير مائية في عام ٢٠٢٥ . وسيظل الفحم والنفط يشكلان الحجم الأكبر من امدادات الصين بالطاقة في تلك السنة الا اذا قدمت الدول المتطورة حوافز لاقناع الدولة الأكثر سكانا في العالم بتغيير خططها .

تخفيض الحجم :

يتمتع الغاز الطبيعي بعدة مزايا كوقود بالمقارنة مع الفحم والنفط ، ولسوف تزداد حصته بالتأكيد في الانتاج العالمي للطاقة في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين . بيد أن امداده محدود وغير عادل التوزيع ، وهو مكلف كمصدر للطاقة بالمقارنة مع الفحم أو الأورانيوم . فضلا عن أنه يلوث الهواء . ذلك أن مصنعا بطاقة ألف ميغاواط يعمل بالغاز الطبيعي يطرح في اليوم الواحد ٥,٥ طن من أوكسيد الكبريت و ٢١ طنا من أكاسيد الآزوت ، و ١,٦ طن من أول أكسيد الفحم ، و ٩,٠ طن من الهباب . وفي الولايات المتحدة طرحت الطاقة الناتجة عن الغاز الطبيعي حوالي ٥,٥ بليون طن من النفايات عام ١٩٩٤ . كما أن النيران والانفجارات المتولدة عن الغاز الطبيعي تشكل مخاطر جسيمة . فخط أنابيب من الغاز بطول ميل واحد ومحيط مقداره ٣ أقدام بضغط مقداره ألف رطل في الانش المربع (PSI) يحتوي على ما يعادل ثلثي كيلو طن من الطاقة المتفجرة . ويحيط مليون ميل من خطوط الأنابيب الضخمة هذه بالكرة الأرضية . المزية الأساسية للطاقة النووية هي قدرتها على تحويل مقدار ضخم من الطاقة بقليل من الوقود . فالانشطار النووي ، أي تحويل المادة مباشرة إلى طاقة ، يعادل الاحتراق الكيميائي الذي يكسر السلاسل الكيماوية فحسب ، بمقدار بضعة ملايين من المرات . إذ ينتج طن واحد من الوقود النووي طاقة تعادل ما بين اثنين الى ثلاثة ملايين طن من زيت الوقود . وحرق كيلو غرام واحد من الحطب يمكن أن يولد كيلو واط ساعي واحد من الكهرباء ، وكغ من الفحم ، يولد ٣ كيلو واط ساعي من الكهرباء ، وكيلو غرام من النفط

يولد ٤ كيلو واط ساعي. ولكن كيلو غراما واحدا من وقـود الأورانيـوم في مفاعل حديث للمـاء الخفيف يـولد ٤٠٠ ألف كيلـو واط سـاعي من الكهرباء. واذا ما أعيد تدوير ذلك الأورانيوم فإن كيلو غراما واحدا يمكن أن يولد مـا يزيد على ٧ مـلايين كيلو واط سـاعي. هـذه الفـروق الهـائلة في المقدار تساعد على تفسير الفرق الهائل في التأثيرات البيئية للذرة في مقابل الزيوت المستخرجة من باطن الأرض. كما أن تشغيل مصنع بطاقة ألف ميغاواط لمدة سنة يتطلب ألفي عربة قطار من الفحم، أو ١٠ ناقلات ضخمة من النفط، ولكنه لا يحتاج الا الى ١٢ مترا مكعبا من الأورانيوم الطبيعي. وينتج عن المصانع التي تعمل بالوقود، حتى تـلك المصـانع التي توجد فيها أنظمة مكافحة التلوث، آلاف الأطنان من الغازات الضارة، والهباب، والرماد المشبع بالمعادن (والاشعاعات) بالإضافة الى النفايات الصلبة الخطرة. وينتج ما يصل الى ٥٠٠ ألف طن من الكبريت من الفحم، وأكثر من ٧٠٠ ألف طن من النفط، و٢٠٠ ألف طن من الغاز الطبيعي. بالمقابل، فإن مصنعا نوويا بطاقة ألف ميغاواط لا يطرح أية غازات ضـارة أو ملوثات سُمِّية كما لا يطرح الا مقدارا من الإشعاع للشخص الواحد يقل كثيرا عـما يصدر عن رحلة جوية، أو مكشاف الدخان المنزلي أو جهاز التلفزيون. انه ينتج حوالي ٣٠ طنا من النفايات الشديدة (الوقود المستهلك) و ٨٠٠ طن من النفايات ذات المستوى المتوسط والمنخفض أي حوالي ٢٠ م٣ بالمجموع عندما تُرَصّ (أي ما يعادل حجم سيارتين). وتنتج جميع المصانع النووية في العـالم مـا يقـارب ٣ آلاف مـتـر مكعب من النفـايات سنويا. وللمقارنة فإن الصـناعة الأمريكية تولـد سـنويا حوالي ٥٠ مليـون م٣ من النفايات السمية الصلبة.

المستوى العالي من النفايات شديد الاشعاعية بالطبع (النفايات ذات المستوى المنخفض يمكن أن تكون أقـل إشـعاعية من رمـاد الفحـم والذي يستخدم لصنع الاسمنت والجص وكلاهما يدخل في مواد البناء).

ولكن بسبب حجمه الضئيل وعدم طرحه في البيئة ، فإن هذا المستوى العالي من النفايات يمكن عزله بعناية خلف حواجز متعـددة . فالنفايـات الناتجة عن الفحم تتناثر فوق الأرض في صورة دخان أو تُدفن قرب السطح ، وتظل سمية على الدوام . أما النفايات النووية المشعة فتتفسخ بصورة مطردة فاقدة ٩٩٪ من سميتها بعد ٦٠٠ عام . وهذا أمر جيد في اطار الخبرة البشرية بالعناية والصيانة كما يتبين من مبان مثل البانثيون الروماني وكاتدرائية نوتردام . ان تصريف النفايات النووية هو مشكلة سياسية في الولايات المتحدة بسبب المخاوف الواسعة الانتشار وغير المتناسبة مع حقيقة الخطر . ولكنه ليس مشكلة هندسية كما تبين مشروعات متطورة نفذت في فرنسا والسويد واليابان . وكانت منظمة الصحة العالمية قد قدرت أن تلوث الهواء الداخلي والخارجي يسبب ما يقارب ثلاثة ملايين حالة وفاة فـي السـنة . ان استبدال كميات ضخمة متناثرة من النفايات السمّية الناتجة عن الوقود بكميات صغيرة محكمة التخزين من النفايات النووية لهو بمثابة تحسن واضح للغاية في ميدان الصحة العامة يذهل أولئك الأطباء الذين لم يطالبوا من قبل بمثل هذا التحول . إن الكلفة الانتاجية للكهرباء النووية المتولدة من المصانع القائمة في الولايات المتحدة منافسة تماما للكهرباء المنتجة عن طريق زيت الوقود، على الرغم من أن الطاقة النووية الجديدة هي أكثر كلفة بعض الشيء . لكن هذا السعر الأعلى يبدو مضللا . فمصانع الطاقة النووية الكبيرة تتطلـب استثمارات لرأس المال أكبر بالمقارنة مع مصانع الفحم أو الغـاز ، كما تتطلب المرافق النووية بنـاء وصيانة أنظمـة مكلـفة لحمـاية البيئـة من نشاطها الاشعاعي .

ولو كانت المصانع التي تعمل بالنفط تتطلب عزل الملوثات التي تفرزها بصورة مشابهة ، فإنها ستكلف أكثر بكثير من المصانع العاملـة بالـذرة . وقد أكد كل من الاتحاد الأوربي والوكالة الدولية للطاقة الذريـة (IAEA) أنه : «من أجل كميات متساوية من توليد الطاقة ، فإن مصانع النفط

والفحم ... مع ما تطرحه من ملوثات شديدة في الهواء، ونظـرا لما تتطلبه من وقود ووسائط نقل، فهي ذات تكاليف ظاهرية باهظة تعادل ما تسـببه من الوفيات. فالتكاليف الخارجية تزيد بمقـدار عشـر مـرات تقريبـا على تكاليف مصنع يعمل بالطاقة النووية وهي تشكل جزءا مهما من تكاليف التوليد» . أما في مجال معدل الوفيات لكل جيجاواط مولدة (أي توقع الوفيات بسبب التعرض للملوثات) فإن الفحم يقتل ٣٧ شخصا سنويا والنفط ٣٢ شخصا والغاز شخصين والطاقة النووية شخصا واحدا. وبكلمات أخرى، فإن زيت الوقود (والمصادر المستجدة) قد حظي بفترة حرة بالمقارنة بالطاقة النووية في البلدان الأخرى فيما يتعلق بحماية البيئة والصحة العامة والسلامة.

حتى التقدير بخسارة حياة واحدة بسبب الطاقة النووية قابل للمناقشة. فمثل هذا التقدير يعتمد، مع استمرار نظرية «خط عدم تخطي العتبة» (LNT)، على ما إذا كان التعرض الى مقادير من الاشعاع تقل كثيراً عن المستويات الطبيعية الموجودة سابقا يزيد من خطر السرطان. فعلى الرغم من LNTتفرض أنظمة ترشيح (تنقية) محكمة ومكلفة لعمليات الطاقة النووية وتصريف النفايات، ليس ثمة دليل على أن التعرض للاشعاع المنخفض يزيد من خطر السرطان. والواقع أنه يوجد دليل على عكس ذلك. بل ثمة دليل قوي على أن التعرض الى مقادير منخفضة من الاشعاع **يحسن** الصحة ويطيل العمر، وربما عن طريق تقوية جهاز المناعة بمثل ما توفره اللقاحات (اكتشفت أفضل دراسة حول خلفية مستويات الرادون* في مئات من آلاف البيوت في أكثر من ٩٠٪ من مقاطعات أمريكا، أن معدلات سرطان الرئة تتناقص بدرجة كبيرة مع ارتفاع مستويات الرادون بين المدخنين وغير المدخنين). وهكذا فإن المستوى المنخفض من الاشعاع الناجم عن توليد الطاقة النووية لا يمثل في أسوأ الحالات الا خطرا طفيفا. وتجري السلطات

* الرادون: عنصر غازي عديم اللون ينتج من تدائر الراديوم. -المترجم-

المختصة بالفحم والهندسة مناقشة مماثلة حول المستوى الاشعاعي المنخفض المنبعث من احراق الفحم. وتستخلص وثيقة لـ «المسح الجيولوجي» على سبيل المثال، أن «العناصر الاشعاعية في الفحم والرماد المتطاير ينبغي ألا تعتبر مصدرا للخطر». مع هذا فإن تطور الطاقة النووية قد خُمِع وتأخر تصريف النفايات النووية على نحو غير ضروري بقيود لم تطبق على صناعة الفحم.

ليس ثمة نظام تقني محصن ضد الحوادث. ففيضانات السدود والاخفاقات التي حدثت مؤخرا في كل من إيطاليا والهند أدت في كل منهما الى بضعة ألوف من الوفيات. وحوادث مناجم الفحم والحرائق في مصانع الغاز والنفط وانفجارات خطوط الإمداد بالطاقة تقتل المئات في كل حادث. وقد أودت كارثة مصنع بوبال Bhopal الكيميائي في عام ١٩٨٤ بحياة ٣ آلاف شخص على الفور وسممت بضع مئات الآلاف من الناس. ووفقا لمعطيات «وكالة حماية البيئة الأمريكية» حصل ما بين عامي ١٩٨٧ و ١٩٩٦ ما يزيد على ٦٠٠ ألف حالة تخلص عرضية من النفايات الكيميائية السمية في الولايات المتحدة أودت بحياة ما مجموعه ٢,٥٦٥ من البشر وأصابت ٢٢,٩٤٩ آخرين بأضرار.

وتعتبر الحوادث النووية بالمقارنة قليلة وضئيلة الأهمية. والحادث الذي جرى مؤخرا في اليابان وأثار كثيرا من اللغط لم يقع في مصنع نووي، ولكن في مرفق يصنع الوقود لمفاعل أبحاث. ولم ينجم عن الحادث المذكور أية وفيات أو إصابات. أما بالنسبة لانفجار (مفاعل) تشيرنوبيل فقد نجم عن خطأ بشري في تشغيل مفاعل مصمم أساسا بشكل خاطىء على نحو ماكان من الممكن أن يجاز تشغيله في الغرب. فهو قد سبب أضرارا بشرية وبيئية بالغة على المستوى المحلي، بما في ذلك ٣١ حالة وفاة، معظمها بسبب التعرض للاشعاع. وتزايد سرطان الغدة الدرقية، والذي كان يمكن الحيلولة دونه بمعالجة سريعة باليود الوقائي، بين أطفال أو كرانيا الذين تعرضوا للغبار

الذري . وتم تشخيص ما يزيد على ٨٠٠ حالة، وظهرت بضع آلاف من الحالات الأخرى، ومع أن المرض كان قابلا للشفاء الا أن ثلاثة أطفال لقوا حتفهم. وأظهرت الحسابات القائمة على «خط عدم تخطي العتبة» (LNT) ٣٤٢٠، حالة وفاة بالسرطان بين سكان منطقة تشرنوبيل وعمال التنظيف فيها. وكان مفاعل تشيرنوبيل يفتقر الى البناء الاحتوائي، وهو نظام أساسي للسلامة لابد من وجوده في المفاعلات الغربية. وتشير حسابات ما بعد الحادث أن مثل هذا البناء كان يمكن أن يحصر الانفجار، وبالتالي الاشعاع، وعندئذ لا تحدث اصابات أو وفيات.

هذه الأرقام في أسوأ حادث طاقة نووية هي بالمقارنة أقل بكثير من أرقام حوادث جسيمة في صناعات أخرى. ويشير التشغيل التجاري للطاقة النووية على نحو ما يزيد على ٤٠ سنة الى أن الطاقة النووية أكثر أمانا بكثير من أنظمة التشغيل التي تعمل بالنفط من حيث عدد الحوادث الصناعية، والأضرار البيئية، والآثار الصحية، والمخاطر طويلة المدى.

أشباح في الآلة:

معظم الأورانيوم المستخدم في المفاعلات النووية هو من النوع الهامد، وغير قابل للانشطار ويتعذر استخدامه في الأسلحة. بيد أن تشغيل المفاعلات، يولّد البلوتونيوم المنشطر الذي يمكن استخدامه في القنابل، ولهذا فإن التعميم التجاري لاستخدام الطاقة النووية قد أثار الاهتمام حول انتشار الأسلحة. ففي عام ١٩٧٧ أرجأ الرئيس كارتر الى أجل غير محدد إعادة تدوير الوقود النووي «المستهلك»، منوها بمخاطر الانتشار. وأنهى ذلك القرار بصورة نافذة إعادة التدوير في الولايات المتحدة، مع أنها تقلل من حجم السمية الاشعاعية للنفايات النووية ويمكن أن تطيل إمدادات الوقود النووي لآلاف السنين. وهناك أمم أخرى قومت المخاطر بصورة مغايرة ولم يتبّع معظمها مثال الولايات المتحدة. ففرنسا والمملكة المتحدة تقومان في الوقت الحاضر بإعادة تصنيع الوقود المستهلك، وروسيا تخزن

الوقود وتفصل البلوتونيوم من أجل قفزة مستقبلية لتدوير سريع لوقود المفاعل، وبدأت اليابان باستخدام الأورانيوم المدور ووقود البلوتونيوم ذي الأكاسيد المختلطة (Mox) في مفاعلاتها، وأجازت مؤخرا بناء مصنع جديد للطاقة النووية يستخدم وقود الأكاسيد المختلطة بنسبة مئة في المئة عام ٢٠٠٧.

على الرغم من أن بلوتونيوم مفاعل الطاقة يمكن نظريا أن يستخدم لصنع متفجرات نووية، الا أن الوقود المستهلك تصعب معالجته، وهو شديد الاشعاعية ولا يستطيع الإرهابيون تشغيله. والأسلحة المصنوعة من بلوتونيوم المفاعل ستكون ساخنة وغير مستقرة وذات نتيجة غير مؤكدة. لقد استطاعت الهند استخراج بلوتونيوم الأسلحة من مفاعل كندي للخام الثقيل وقضبان التفتيش من بعض المفاعلات المزدوجة الغرض التي كانت بنتها. ولكن لم يجر أي تحويل للبلوتونيوم الى جهة أخرى من مرافق إعادة التشغيل البريطانية أو الفرنسية كما لم يجر أي شحن للوقود لإنتاج الأسلحة، وذلك لأن أعمال التفتيش التي تقوم بها وكالة الطاقة الذرية (IAEA) صارمة وتحول دون أي نقل لتلك المواد الى جهات أخرى. وقد خلصت الوكالةالى استنتاج مفاده أن خطر الانتشار (النووي) «ليس في درجة الصفر لن يكون كذلك حتى لو توقفت الطاقة النووية عن الوجود. إن نظاما لمنع الانتشار يجري تعزيزه باستمرار سيظل حجر الزاوية للجهود الرامية الى منع انتشار الأسلحة النووية».

من دواعي السخرية أن دفن النفايات النووية ليس من شأنه الا أن يزيد من خطر الانتشار.

من دواعي السخرية أن دفن الوقود المستهلك بدون استخراج مادة البلوتونيوم الموجودة فيه خلال إعادة تصنيع من شأنه أن يزيد فعلاً من الخطر البعيد للانتشار النووي نظراً لأن انحلال النظائر الأقل قابلية للانشطار والأكثر اشعاعاً في الوقود المستهلك بعد ما بين قرن أو ثلاثة قرون سيحسن

الخصائص التفجيرية للبلوتونيوم الذي تحتويه، وتجعل استخدامه في السلاح أكثر اغراءا . الى جانب توسع موارد العالم من الأورانيوم بصورة تكاد تكون غير محدودة، فإن إعادة التدوير ستجعل من الممكن تحويل البلوتونيوم الى طاقة مفيدة في الوقت الذي يجعلها تنحل وتتحول إلى نفاية نووية أقصر حياة، وغير قابلة للانشطار وغير مهددة بالخطر النووي.

إن مئات الأطنان من البلوتونيوم الخاص بتصنيع السلاح والتي كلف انتاجها القوى النووية العظمى مليارات الدولارات قد أضحت فائضا عسكريا في العقد الماضي. وبدلا من دفن بعض هذه الكميات المقلقة استراتيجيا ولكنها القيمة كمصدر طاقة- كما اقترحت واشنطن - ينبغي إعادة تدويرها الى وقود نووي. وإن نظاماً دوليا لتدوير هذا الوقود ومعالجته سوف يحول دون الانتشار الخفي. وكما بين لنا كل من ادوارد آرثر وبول كامنغهام وريتشارد واغنر من «مختبر لوس الاموس الوطني» فإن نظاما كهذا من شأنه أن يجمع المخزون القابل للاسترداد والمراقب دوليا، ومعالجته جميع البلوتونيوم المتفرق في الوقود المتعدد الأكاسيد (MOX) لمفاعلات الطاقة، وإن يجمع على المدى الأبعد، المواد المتكاملة المتقدمة التي يتلقاها تشغيل المفاعلات، ويضبط ويشغل كل الوقود الخارج من المفاعلات في مختلف أرجاء العالم، ويولد الكهرباء، ويخفض الوقود المستهلك الى نفايات نووية قصيرة الأجل جاهزة للتخزين الجيولوجي الدائم.

الجديد كل الجدة :

إن جيلا جديدا من مصانع الطاقة الصغيرة المعدلة- تنافس الغاز الطبيعي ومصممة من أجل السلامة ومقاومة الانتشار وسهلة التشغيل- ستكون ضرورية لتوسيع فوائد الطاقة النووية بالنسبة للبلدان النامية الصغيرة التي تفتقر الى البنية التحتية النووية. وكانت «إدارة الطاقة» قد أجازت تمويل ثلاثة تصاميم لمثل هذه المصانع التي تعرف بـ «الجيل الرابع». وكان مرفق جنوب أفريقي يدعى «ايسكوم» قد أعلن عن خطط لتسويق مفاعل

ذي أرضية حصوية يبرد بالغاز لا يتطلب أنظمة طوارىء لتبريد قلب المفاعل، ولا ينصهر» فيزيائيا. ويقدر «ايسكوم» أن ينتج هذا المفاعل طاقة كهربائية بكلفة سنت ونصف لكل كيلو واط ساعي، أي أقل من كلفة الكهرباء المولدة بواسطة مصنع غازي متعدد الدورة. ويطور كل من «معهد ماسا تشوستس للتقانة» و «مخبر ايداهو الوطني للهندسة والبيئة» تصميما مشابها لتزويد عمليات صناعية مثل توليد الهيدروجين وتحلية مياه البحر بطاقة حرارية عالية.

ويُستخدم النفط اليوم مبدئيا في النقل، بيد أن محرك الاحتراق الداخلي قد وصلت درجة التنقية فيه الى غايتها. وتوفير مزيد من التخفيض في التلوث الذي تحدثه وسائل النقل لا يمكن أن يتحقق الا بالتخلي عن النفط وتطوير أنظمة للطاقة غير ملوثّة للسيارات والشاحنات. كما أن إعادة شحن بطارية السيارات الكهربائية من شأنه ببساطة أن يحول التلوث من مصادر متحركة الى مصادر مركزية الا اذا كان المصدر المركزي للكهرباء نوويا. فخلايا الوقود، والتي باتت قريبة الآن من التشغيل التجاري، يمكن أن تكون حلا أفضل. إذ لما كانت هذه الخلايا تولد الطاقة الكهربائية مباشرة من الوقود الغازي أو الوقود السائل، فإن من الممكن إعادة تزويدها بالوقود على الطريق كما هو الحال بالنسبة لمحركات الاحتراق الداخلي الحالية. فعند تشغيلها بالهيدروجين النقي فإن خلايا الوقود لا تنتج الا الماء كنفاية. ولما كان من الممكن توليد الهيدروجين من الماء باستخدام الحرارة أو الكهرباء يستطيع المرء أن يتصور بنية تحتية لطاقة ضئيلة التلوث، باستخدام الهيدروجين المنتج بالطاقة النووية للنقل، واستخدام الكهرباء النووية وحرارة عملية التشغيل لمعظم الاستعمالات الأخرى، واستخدام الغاز الطبيعي والأنظمة المستجدة كاحتياطيات. مثل هذا الالتزام الواسع بالطاقة النووية لا يمنع استمرار تولد الفحم في الهواء فحسب، بل ويعكسه بالنتيجة. وفي الوقت نفسه فإن خلايا الوقود المستخدمة للغاز الطبيعي يمكن أن تخفّض تلوث الهواء بدرجة كبيرة.

توليد طاقة المستقبل :

من أجل مواجهة احتياجات العالم المتزايدة من الطاقة، يقترح تقرير الجمعية الملكية والأكاديمية الملكية «تشكيل هيئة دولية لأبحاث الطاقة وتطويرها، تمول بأسهامات الدول على أساس ناتجها القومي الاجمالي أو مجموع استهلاكها المحلي». وهذه الهيئة ستكون بمثابة «وكالة تمويل تدعم البحث والتطوير والقائمين بالعمل في المجالات الأخرى، وليس مركز أبحاث في حد ذاتها». ويمكن وضع ميزانيتها على أساس سنوي بنحو ٢٥ مليار دولار «أي ما يعادل واحدا في المئة من مجموع ميزانية الطاقة العالمية». ومثل هذه الهيئة، اذا كانت تريد أن تضطلع حقا بتطوير امدادات كافية للطاقة يعتمد عليها، ينبغي أن تركز على الخيار النووي، وعلى اقامة نظام اعادة تشغيل وتخزين دولي للوقود النووي آمن، وعلى تزويد البلدان النامية بالخبرة لإقامة وتمويل واجازة شبكات متماثلة للطاقة النووية.

واستنادا الى كل من ارنولف غروبلر ونبيوجسا ناكيسينوفيتش وديفيد فيكتور، الذين يقومون بدراسة ديناميات التقانة النووية فإن «حصة الطاقة المتولدة بالكهرباء ستنمو بسرعة في معظم البلدان وفي العالم كله». فقد نزعت البشرية بالتدريج عبر التاريخ الفحم من أنواع وقودها الغالبة، مبتعدة باطراد عن المصادر الغنية بالفحم الأكثر تلوثا. وهكذا انتقل العالم من الفحم (الذي يتكون من ذرة هيدروجين في كل ذرة فحم وكان الوقود المهيمن خلال الفترة ما بين ١٨٨٠ و ١٩٥٠) الى النفط (الذي يتكون من ذرتي هيدروجين في كل ذرة فحم، والذي ظل مهيمنا من عام ١٩٥٠ حتى يومنا هذا). وتزداد حصة الغاز الطبيعي (أربع ذرات في الفحم) في السوق على نحو مطرد. أما الانشطار النووي فلا ينجم عنه أي فحم على الإطلاق.

إن الحقيقة المجسدة- وليس الجدل حول الجشع المشترك، أو المخاطر المفترضة، أو التعرض للاشعاع، أو تصريف النفايات- ينبغي أن تُنْبي عن قرارات حيوية بالنسبة لمستقبل العالم. ولما كان التنوع والوفرة مهمين من أجل السلامة والأمان، فإن مصادر الطاقة المتجددة ينبغي أن تحتل مكانا في اقتصاد الطاقة في القرن المقبل. على أن الطاقة النووية ينبغي أن تكون المصدر الأساسي. فعلى الرغم من سجلها البارز، فقد حُطَّ من قدرها من قِبل خصومها إلى الدرجة المعتمة ذاتها من النزاع العقائدي المستمر حول الاجهاض والنشوء. إنها تستحق ماهو أفضل من ذلك. فالطاقة النووية آمنة بيئياً وعملية ومتاحة. إنها ليست مشكلة، بل على العكس إنها واحدة من أفضل الحلول.

* * *

الدراسات والبحوث

البنيات الحيوية في وحدة القصيدة العربية

الدكتور: وليد مشوّح

توصل النقاد القدماء والمحدثون إلى شبه إجماع يقول بقيام البنيات الحيوية في وحدة القصيدة العربية على اللفظ وموقعه في البيت بكامل إيحاءاته النفسية والصورية والموسيقية، كذلك على وحدة المعنى والمشهد في البيت الواحد، وتضافر هذه الوحدات لتشكيل الغرض الرئيسي بكل ما يحمله من معانٍ ومشاهد وأحاسيس وأخيلة.

(*) د. وليد مشوّح: أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر. من مؤلفاته: «أعيش كما تشتهون، أموت كما أشتهي».

فابن رشيق القيرواني يرى «أن الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار، لأن الموسيقا الصوتية ذات دلالة خاصة على نظم الكلام وعلى معاني ذلك النظم؛ فقول عمرو بن كلثوم -على سبيل المثال لا الحصر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنما دلّت على معناه الموسيقا الصوتية بمعنى أن الموسيقا الصوتية تعطي دلالة للمعنى، والمعنى -بدوره- يعطي صورة متخيلة في ذهن المتلقي كما أرادها الشاعر أثناء إبداعها. فاللفظ بتلازم حروفه وتساوق موسيقاها والمعنى المراد يُشكّل الأساس البنيوي للقصيدة (فأحرف الشين والخاء والراء والقاف والضاد- على سبيل المثال) لا تصلح لنسيب أو غزل أو نجوى، وإلا ضعف الأساس أصلاً.

ويأتي البيت بوحدته المعنوية يشكّل الداعم الرئيسي للبنيان الشعري الذي يقوم على تراتبية المعنى والموسيقا والمشهد بأبعاده النفسية والإيحائية والشعورية والخيالية والتخيلية، الظاهرة والباطنة، حتى ليبدو البيت الواحد بأبعاده المعنوية المفتوحة غرضاً نصيّاً قائماً بذاته... وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون إذ رأى أن البيت الشعري يمثل وحدة القصيدة: «لأن بعض الأبيات تشكّل غرضاً متكاملاً، يمثل أفقاً تخيلياً، وهو القائل: الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقلٌ كل جزء منها في غرضه ومقصده؛ عمّا قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»(١)

وكيلا نتجاوز الإطار الفني الذي يخلق البنيات المتكاملة؛ لابد من التأكيد على أن الشعر خلق فني يأخذ لونه وطعمه ونكهته، بل واتجاهه من مجموعة التجارب الشعرية التي يعايشها شاعر أو شعراء معينون في فترة زمانية معينة، وفي بيئة مكانية خاصة، وبهذا يتحول الشعر إلى طراز معماري يتحكم في تشكيلاته الباطنة والظاهرة الزمان والمكان الذي عاش فيه

وعليه الشاعر مع عدم إهمال المعطى الثقافي الذي منحه العقل الإنساني لأفق المبدع ذاته .

لذا يرى الدكتور عدنان حسين قاسم في هذا المعنى رأياً يقول : «ولما كانت حركة الزمن لا تتوقف، وقضايا الحياة والكون لا تتخذ طابعاً موحداً، لا في إطارها العام، ولا في وجهها الخاص الذي تكتسبه في لقائها مع الشاعر؛ فإن طبيعة الشعر، في مفهومه وغاياته لابد أن تتغير من عصر لآخر، بل ومن شاعر لآخر، ولا أكون مبالغاً إذا زعمت أن مفهوم الشعر يختلف من قصيدة لأخرى، فكل قصيدة لها كيانها الخاص المتفرد تنبع قوانينه الفنية من داخله، مرتكزة على أرض التجربة الشعورية التي تنبت منها ... ولما كان تطابق تجربتين شعوريتين مستحيلاً كاستحالة التشابه التام في بصمات البنان، فإن إمكانية الاتفاق: التام في مفهوم القصيدتين وصورتيهما تقف على الخط نفسه. وإذا كان ارتباط الشعر بالفنون والنشاطات الأخرى يجعل تحديد مفهوم الشعر أمراً متعذراً؛ فإنني أرى أنه بوسعنا أن نخطط لمفهوم عام يرسم المسارات العريضة والمتسعة للشعر، والتي يتحرك الشعراء في أطرها؛ فنقول إن الشعر رؤية فنية متفردة، ومنغمة تنغيماً متناسقاً ومنتظماً في إيقاعات خارجية، وترنيم داخلي يجعل التركيب اللغوي مقصوداً في ذاته يتعذر ترجمته أو نقله إلى تركيب لغوي آخر، لأن هذه التراكيب في كليتها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالرؤية الشعرية، تلك الرؤية التي لا تنبع من صورة ولا من تركيب، ولا تتمثل في صورة أو تركيب مستقلين؛ إلا بالقدر الذي ينتميان فيه إلى الصورة الكلية التي تحمل في مساماتها روح العمل الشعري.

وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة؛ فإن ثمة وجوداً «شعرياً»، له كون خاص تعززه الرؤية الفنية، متضافرة مع العوامل الأخرى التي تتفاعل معها بطريقة ديناميكية، تقلل من دور الإرادة التامة والوعي المكتمل بما يقوم به

الشاعر؛ إلا بالقدر الذي تصبح فيه الإرادة خلية من خلاياه في أصالته وقدرته على الخلق والإبداع، الأمر الذي يجعل مفهوم الشعر يختلف من شاعر لآخر أو يختلف عند الشاعر في فترات متعاقبة من حياته المتغيرة...»[٢].

ما أردت في إيراد الشهادة الآنفة الإثقال على الأطروحة هذه؛ بقدر إرادتي دفع الظنة بالخلط في الزمان والمكان، وتمذجة الشعر والشعراء قديماً وحديثاً ووسمهم بسمة واحدة مما يجعل من القصيدة العربية طرازاً شكلياً ومفهومياً متكرراً وممجوجاً.

وبكلمة مختصرة أردت إيصال القارىء إلى أن الوحدة العضوية هي الهيكل الأساس في بنيات القصيدة العربية، وهذه الوحدة الكليّة تتجزأ إلى وحدات تتمثل بوحدة البيت، ووحدة المشهد، ووحدة القصيدة كهيكل منظور متكامل، وبعد إنجاز الهيكل على طريقة الهندسة المعمارية، تؤسس البناية بالصور والموسيقا والإيقاع والأخيلة، ثم بالتلاوين والحركة الخارجية والحوار والشعور والإحساس الداخلي.

لم يفصل النقاد القدماء بين وحدة البيت ووحدة القصيدة؛ وإنما اشترطوا إذا كانت القصيدة متعددة الأغراض؛ أن يحسن الشاعر حسن الانتقال أي أن يمتلكوا المقدرة الفنية العالية في التخلص أو حسن الانتقال من غرض إلى غرض حيث لا يهتز البنيان ويتضعضع الهيكل.

ومن المحدثين النقاد الذين وقفوا هذا الموقف الدكتور أحمد أحمد بدوي الذي اعتمد مقياساً للوحدة في القصيدة العربية فذهب إلى أن تلك القصيدة لم تكن سلسلة من بواعث منفصلة، كل منها تام ومستقل بنفسه، وأن ما ذهب إليه ابن قتيبة ينقض هذا الإتهام من أساسه، فهو يدلنا أولاً؛ على أن الشاعر كان يتصور عمله وحدة متصلة الأجزاء، يسلّم الواحد منها إلى صاحبه، ويتقدم بعضه بعضاً، لأن ذلك هو الترتيب الطبيعي، فلم يكن

يعتقد أن قصيدته أخلاط متفرقة لا توافق بينها ولا انسجام، وثانياً: على أن دارسي الشعر العربي أدركوا هم أيضاً أن الشاعر لم يكن يلقي القول على عواهنه. أن يكون قريضه من أجزاء لا صلة بينها. وأن إدخال الشاعر الحكمة والوصف في ثنايا قصيدته لا يجعلها أشتاتاً متفرقة، لأن الشاعر لا يأتي بها إلا إذا كانت الحالة تستدعي وجودها استشهاداً على غرض يريده الشاعر أو استخلاصاً من فكرة عرضها، وكذلك يأتي الوصف أيضاً ...»[٣].

فوحدة البيت تتأسس على قاعدتين تمثلها صورتان؛ الأولى صورة جزئية منفصلة تهدف إلى نقل الأفكار وإيضاحها، والثانية؛ صورة كليّة تنقل تجربة شعورية مكتملة، والصورتان تحملان حواراً داخلياً وخارجياً، ومحيطات طبيعية، وموسيقا بالإضافة إلى إيقاع موسيقي وشعوري، وإحساس فعلي ومتخيّل.

يقول الرافعي: «الشعر معنى لما تشعر به النفس، فهو من خواطر القلب إذا أفاض عليه الحس من نوره؛ انعكس على الخيال. فانطبعت فيه معاني الأشياء، كما تنطبع الصورة في المرآة ...»[٤].

وعلى هذا الأساس أعطى الخيال مكاناً رئيسياً في بنية القصيدة العربية، ولم ينكر وظيفته في خلق الصورة الشعرية وتجميع أطرفها وتأليفه لتلك العناصر المحسوسة ليتكون من مجموعها كل فني يغاير في شكله ما تقع عليه المدركات الحسيّة، ويؤكد الرافعي أهمية الخيال في موقع آخر فيقول: «والخيال هو الوزن الشعري للحقيقة المرسلة، وتخيّل الشاعر إنما هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليشف به، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ...»[٥].

وليس من وظائف الخيال قلب الحقائق؛ بل أن وظيفته أن يجعلها أكبر تأثيراً في نفوس المتلقين، وأعظم نفاذاً إلى قلوبهم، ويقول: «إن الخيال

الشعري يزيغ بالحقيقة في منطق الشاعر، لا ليقلبها عن وضعها، ويجيء بها ممسوخة مشوهة؛ ولكن ليعتدل بها في أفهام النـاس، ويجعلهـا تـامّة في تأثيراتها، وتلك معجزاته، إذا كانت فيه قوة فوق القوة وعملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة، وبغموضه مرة أخرى... »[٦].

إنها إشارة واضحة إلى الفرق بين الحقيقة الخارجية المتمثلة في الأشياء المحسوسة، وبين الحقيقة الفنية؛ وهي الصورة النفسية لتلك الحقيقة ضمن الحقائق الخارجية متكاملة.

ففي نقده للاستعارة في شعر امرىء القيس؛ رأى تشبيه المحسوس بالمحسوس أدنى أنواع التشبيه، إذ قدم مثالاً على ما ذهب إليه من خلال بيتي امرىء القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علَيّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازاً وناءَ بكلكلِ

ألا أيها الليل الطويل ... ...

(الليل مثل موج البحر: عال، عظيم، متسع، لا نهايات له، متحرك، ذاهب وآيب، فيه تواتر حركي صامت، له هدير، يترك في النفس خيفة وتوجساً، يحمل في جيشانه أسراراً)؛ إذن فيه تجيش الظنون، وتتقلب الخواطر، ويتواتر القلق، ثم هو مرمى البصر من سريرة الكون، فهو يشبّه - الليل- باتساع البحر وعمق أغواره بالنسبة لما يدرك البصر منه، وإرخاء السدول يعني الصمت وحجب الحركة، وهذا تناقض بين الحركة والسكون، لكنه أرخى سدوله على نفس الشاعر فقط، ليضعها في قلب الحوار الذاتي، بين معنويات، وتصورات، وكأنه حجبه عن حيواته السابقة في النهار،

وهذا ليس عيباً؛ إذ قابل محسوساً بملموسٍ... إنه الامتحان للذات، تلك هي البلوى... (ليبتلي).

أما البيت الثاني؛ ففيه صورة متخيلة غاية في الروعة، فقد وصف طول الليل بذات مخلوقة أعطاها إحدى أدواتها «التمطي»، فالنملة تتمطى، والكلب، والبعير، كذلك الإنسان، والتمطي نتيجة لكسل وخمول في الجسم، والتمطي فيه تماهل وتراخ وتثاؤب، ليدلل على طول الليل وبطء حركته، وفتوره، وإنه كلما همَّ بالانجلاء سقط، كما يفعل المتمطي.. أما الحركة فمتخيلة بين الشاعر والمتلقي، متصورة في ذهنه، وبقايا صورها تستحضرها العين: (استطالة الصدر نتيجة لحركة اليدين، استطالة الفم نتيجة لانفتاح الفكين تثاؤباً، توسع مفاصل العظام نتيجة لتضافر الحركات، تعالي فقرات الظهر حتى الكتفين، إرتفاع المقعد، التطاول في الساقين للوقوف على أطراف أصابع القدمين، عدا الصوت الذي يصدر عن خلخلة العظام وطقطقتها، وما يصدر عن الفم والأنف أثناء التثاؤب.

فالوصف حقيقة ممثلة، وتصوير ناطق، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة بليغة، والصورة مؤثرة ومانعة عندما تصدر عن الاحساس، فتعود متكاملة عبر الدماغ إلى الشعور، فتكون صورتان؛ متخيلة ومحسوسة، معنوية وإحساسية، متوهمة وحقيقية، أي لها أبعاد ثنائية متواترة.

فالصورة الشعرية على هذا الأساس وليدة الخيال، أي للخيال دور أساسي وفاعل في بناء الصورة، فهو يولفها من عناصر محسوسة بعد أن يعيد تشكيلها وتنظيمها، فبعد أن تنعكس صورة الواقع الخارجي على صفحة روح الشاعر وتتلون بلون نفسه تنحصر مهمة الشاعر -حينئذٍ- في تصوير تلك الفكرة، ومن خلال قلبه تمر، ليصنع لها الإطار الذي يجمع خطوطها، ولتبوح بمدلولها[٧].

يقول الرافعي: « ... وإنما الشعر في تصوير خصائص الجمال الكامنة في هذه الفكرة على دقة ولطافة كما تتحول في ذهن الشاعر الذي يلونها بعمل نفسه فيها، ويتناولها من ناحية أسرارها، فالأفكار مما تعانيه الأذهان كلها، ويتواطأ فيه قلب كل إنسان ولسانه، بيد أن فن الشاعر هو من خصائصها الجميلة المؤثرة، وكأن الخيال الشعري نحلة من النحل، تلم الأشياء لتبدع فيها المادة الحلوة للذوق والشعور، والأشياء باقية بعد، كما هي لما يغيّرها الخيال، وجاء منها بما لا تحسبه منها، وهذه القوة وحدها هي الشاعر»[٨]

إن من أهم مقومات الشعر الماتع الرائع؛ مقدرته على التصوير، وتقديم المشهد الذي يجعل من النفس معيناً تَعبُّ الصورة الشعرية وتأخذ ألوانها منه.

ومن هذه الزاوية قوّم الرافعي الشعر العربي القديم؛ ورأى أن ذلك الشعر قد مزّق الطبيعة، وأظهرها بمظهر قطع مبتورة من الكون، وذلك لأن الشعراء القدامى أقاموا العلاقة بين الأشياء على أساس من التشابه المحسوس، ولم يعنوا بالتشابه النفسي الذي يتجاوز الظاهر إلى المدلول الباطني للأشياء، ورأي -كذلك- : أن العلاقات المحسوسة أدّت إلى تمزيق ذلك الوشاح الذي يلم الصورة الجزئية في صورة كليّة تعطي مدلولاً نفسياً شاملاً يحيط بكل أبعاد التجربة الشعرية ويوحي بمراميها.[٩]

فالوحدة العضوية -كما أرى- هي تراتبية أجزاء القصيدة وصورها ومعانيها، أما الوحدة المعنوية فهي إرادة جوهر المعنى، وبكلمة أدق تصميم الشاعر للغرض الرئيسي الذي هو بدوره (الأس) الذي قامت عليه القصيدة.

ونوع التجربة الشعرية؛ هو الذي يحدد نمط البناء الغني وطبيعته، فالمتلقي لم يكن له شأن في نظر شاعر المدح؛ بل كان اهتمامه منصباً على شخصية الممدوح حتى يتمكن من نفسه فيجزل له العطاء، والشاعر

المبدع هو الذي يعطي كل الشأن للمتلقي عندما يبدع قصيدة وصفية، أو شعورية، أو إحساسية.

والدكتور طه حسين قال بوحدة القصيدة ودحض ادعاءات من قال بتفككها وقيامها على الايقاع فقط وهو يرى: «أن تفكك القصيدة العربية واقتصار وحدتها على الوزن والقافية دون المعنى؛ -إدعاء يشبه الأسطورة، بل هو أسطورة من هذه الأساطير التي أنشأها الافتتان بالأدب الأوربي الحديث والقصور عن تذوق الأدب العربي القديم»[١٠].

ومما لا شك فيه أن هنالك وحدة معنوية في القصيدة، ومن ينكر هذه الوحدة فهو؛ إما لا يعرف كيف يدرس الشعر القديم ولا يتذوقه، أو تغريبي أثرّت فيه النظريات النقدية التي اعتمدت على التفكيك، ثم الخلط وإعادة التركيب على التصور.

فالشعر العربي القديم استوفى حظه من الوحدة المعنوية حيث جاءت القصيدة من قصائده ملتئمة الأجزاء، متسقة الصور، متلائمة الموسيقا، جمعت بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية.

وإذا أردنا أن نقدم نموذجاً؛ فما علينا إلا أن نقرأ بوعي وإمعان قصيدة من قصائد الشعر الجاهلي، ولتكن لامية الأعشىٰ:

ودّع هريرة، إن الركب مرتحل
وهل تُطيق فِراقاً أيّها الرجلُ
غرّاء، فرعاء، مصقولٌ عوارضها
تمشي الهوينا، كما يمشي الوجي الوحلُ
لم تمشِ مَيْلا، ولم تركب على جملٍ
ولم ترَ الشمس إلاّ دونها الكلَلُ

إلى أن يقول:

وقـد غـدوتُ إلى الحـانوت يتـبـعني

شـاوٍ مُـشـلٌ أشـل شلشلٌ شَـولُ

ألا نرى من خلال هذه الأبيات فقط قيام المشهد على اللفظ، والحوار على المخيلة، وقد كَمُنَ الإيقاع في موسيقا الحرف الذي شكّل بتتابعه الموسيقا التصويرية للبعد التخيلي، والدلالات جاءت عبر تصوير المشاعر، حيث يقدّم الشاعر الإطار الفني، ويترك لخيال المتلقي صناعة تفاصيل الأجزاء في المشهد، لذا اختلفت الجزئيات الشعورية باختلاف إحساسات المتلقّي بالصورة، فالمشهد عام متبادل بين الإحساس الشعوري، والتخيّل البصري (المتوهم).

إذن فالوحدة العضوية للمشهد جاءت في البيت، والبُنية الفنية جاءت في كامل القصيدة التي أشيدت خارجياً على شكل معمار فنـي له فـرادته في الطراز البنائي، وعلى شكل شريط محسـوس-مرئـي (بالتوهـم)، أما الحركة فقد حددتها موسيقى الألفاظ عبر تساوق الحرف مع تساوق المعنى، و(الميلودراما) تجيء عبر مشهد أو عدة مشاهد في القصيدة، والحوار بين الـ/ أنا/ (الشاعر) والـ/ هو/ الآخر -المتلقي- الشاهد، أما الطبيعة؛ فيحددها المكان الذي أشارت إليه أو رمزت له بعض الألفاظ (الركب - الوجي، الوحل، الجمل، الكلل)، وأما الزمان فهو الماضي البعيد الذي استحضره الشاعر ليضعه أمام ذاته فيعطيه بُعداً مأساوياً، ومعنىً إنسانياً، وعمقاً عاطفياً، ثم يضعه أمام الآخر -المتلقي ليضيف إليه وبذلك يتحول الماضي المُستحضر Flash-back إلى حاضر فيه طاقـة تكفـي للعبـور إلى المستقبل، أما مكياج الشخصية فقد صنعه الشاعر بوساطة ألفاظ حمّلها

جماليات مستقاة من زمانه أي عصره (غرّاء، فرعاء، مصقولٌ عوارضها، تمشي الهوينا، لم تمش ميْلاً، لم تركب على جمل، لم تر الشمس (ناصعة البياض)، مخدّرة (لم تر الشمس) إلا دونها الكلَلُ . .) فتحــول بذلك من رسام انتهى على التومن تلوين اللوحة بالفرشاة الشعورية إلى نحّات بدأ يجسّد الأحاسيس بإزميل (المثال-التمثال) المُشتهى . الشريط المتخيل (المرئي في المخيلة)، المتصور أمام الرؤية الباصـرة، متكامــل دون اســتطراد، أو ترهل، أو إملال، والسيناريو يقوم على الإحساس بالمشهد المتخيل .

وبذا أضحت المقدمة الغزلية (في الشعر العربي القديم) بمثابة الموسيقا في المشهد وذلك بقصد تنبيه الأحاسيس، واستنفار المشــاعر، للتآلــف مع المنظر المتخيل، أي أن الشاعر أراد إخراج المتلقي من أطوار الحياة الواقعية المادية، ليرفعه إلى أجواء أخرى، فيها عواطف وحنين، وشوق، واستعداد للغناء، والاستمتاع به، والتلذذ بالمشهد المتصور، والافتتان بالصياغة الفنية، والحكم على مقدرة الشاعر.

إذن نستطيع القول بأن الخيـال من أهم العناصر التي تبني الصورة الشعرية، وأن الصورة الشعرية من أهم المكونات الرئيسية لبنيات القصيدة العربية، لأن الخيال يفرز الصورة الشعرية وهذه حقيقة لم تخطر في ذهن النقاد العرب القدامى باستثناء عبد القاهر الجرجاني، مع أنه أوقف الصورة الشعرية عند حدود الاستعارة والتشبيه والكناية، ووافقه أقرانه من النقاد الآخرين كابن الأثير وقدامة بن جعفر والآمدي . . بينما نرى في مذهب النقاد القدماء شيئاً من الواقعية عندما نأخذ الصورة الشعرية بشكلها البسيط، وعندما نطمح إلى فتح الأفق أمام الخيال فإن الصورة تأخــذ جمالياتهــا من ذلك الخيال اللامتناهي الحدود، وبذا تغدو الصورة معقّدة في تركيب

عناصرها من اللاواقع إذ تعتمد على الوهم"Fancy" والأساطير(Myths)، وقد أوضح ذلك الدكتور أحمد كمال زكي بقوله: «... على أن هذه الصور قد تكون من أبسط أنواع الخيال، وقد تكون من أعقدها، وأما أبسطها فهي الاستعارة التي أساسها التشبيه وقوامها جمع أطراف الأشياء إلى بعضها البعض في تركيب مغاير لأصولها، وكذلك الرمز الذي يوجد بين العالمين الخارجي والداخلي في علاقة حدسية قوامها إشارات منظورة لأشياء غير منظورة. وأما أعقدها فما يختلط بالوهم "Fancy" والأساطير"Myths" حين يخترق الذهن حدود المعقول إلى عمليات خلق استاطيقي ليس الغرض منها جعل الإدراك الإنساني ممكناً فحسب؛ وإنما كذلك إعطاء التجارب الإنسانية أبعاداً تتسع لكل الناس، ذلك لأن الطبيعة البشرية تشترك في الشيء الكثير، وتستمد في مواقفها تنظيمات متوارثة بحيث من السهل جداً أن يتلاقى الإنسان مع الإنسان على تخوم لا وجود لها في هذا العالم على الإطلاق...»[١١].

أما الوهم الذي أشار إليه الدكتور زكي فهو الذي يمكن أن يوضع على حد قوله: «جنباً إلى جنب مع ما يمكن أن نسميه الخيال الابتكاري "Creativ Imagination" الذي يجمع عادة بين عناصر ليس بينها رابطة، وأن تكون في حدود المعقول، بعكس الوهم الذي يتخطى المعقول...»[١٢].

وهكذا نرى أن الإبداع الشعري -بناءً على الرأي الأنف الذكر- ينقسم إلى قسمين؛ الأول؛ يكون وليد صناعة واعية، والثاني؛ يكون وليد انسياب تلقائي لمشاعر قوية، ونبضات وجدانية لأحاسيس ظاهرة وباطنة في الوقت نفسه.

وعلى هذا «فإن ملكة التصوير تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً، أو من دقة الشعور حيناً آخر، لأن الشعور الواسع (الطيف) هو الذي يستوعب كل ما في الأرضين والسماوات من المعاني والأجسام؛ فإذا هي حيّة كلُّها، لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الدقيق الذي يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامسة ولامسة ...»(١٣).

ونرى في هذا القول إشارة واضحة إلى حقيقتين محوريتين هما؛ القيم الشعورية، والخيال التصويري، وضمن هاتين الحقيقتين يبدع الشاعر صورته بأن يحولّ هذه القيم إلى صور فنية.

وبهذا خطّأ العقاد أولئك الذين يظنون: «أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه، والمشبه به، وأن الغرض من التشبيه إنما هو معناها أبيض على أبيض، ومستدير على مستدير، مما يرى بالعين، ولا فضل فيه للشعور والتخيّل، فالشاعر الذي يصف النجوم ويشبهها بالجوهر والحلي؛ هو شاعر ناقل ليس إلاّ، فإما أنه أحسّ وتخيّل وصوّر إحساسه وتخيله، ورسمه باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة، فليس ذلك من شأنه، ولا هو مما يدخل عنده في باب البلاغة والشاعرية، وهذا خطأ بعيد في فهم الوصف.. والشعر يخرج عادة عن المقدرة النفسية إلى القدرة الآلية التي تحكي المناظر الظاهرة كما تحاكيها المصورة الشمسية؛ وشاعر يصف ما رآه، وشعر به، وتخيله، وأحاله في روعة، وجعله جزءاً من حياته ...»(١٤).

ونجد الرأي ذاته عند الدكتور محمد مندور الذي يرى: «أن الصورة الشعرية أمرٌ أصيل في الشعر، بل نكاد نقول: إنها خيوط نسجه، وهي منه كالنحو من اللغة، وكما اطّرَت اللغات قبل أن يعرف متكلموها القواعد، ويفطنوا إلى وجودها؛ كذلك صدر الشعراء عن الاستعارة بفطرتهم، دون معرفة نظرية، ولا وعيٍ تحليليٍ بطرق استعمالها ...»(١٥).

وهكذا نرى أن وظيفة الصورة الشعرية تتركّز على تصوير وحدة الأثر النفسي كما أكّد على ذلك الرومانسيون والرمزيون، وذلك ما أقره معهم الدكتور محمد مندور عندما تساءل قائلاً: «هل تقتصر وظيفة الصورة الشعرية على مخاطبة الحواس فحسب، كأن يستند التشبيه إلى جامع من المظهر الشكلي، أم يخاطب الروح، فيكون الجامع بين المشبه والمشبه به هو الواقع النفسي لكليهما، وبذلك تنتقل إلى الطرائق الرمزية في التعبير على نحو ما نحسُّ في قول شاعر كبير مثل رابندرانات طاغور (السكون المشمس)، إذ من الواضح أنه لا يُشبّه هذا السكون بالإشماس ولا يصفه به؛ وإنما يُشبّه وقع ذلك السكون المبهج في نفسه بوقع ضوء الشمس المشرقة، لأن المقصود بالتصوير البياني هو الإيحاء لا الاخبار ...»[١٦].

فإذا أردنا أن نضع كل النظريات التي تؤكد على البنيات الحيوية في وحدة القصيدة العربية في خدمة النص لاستنباط المظاهر الرئيسية التي تشكل القصيدة جوانياً وبرانياً؛ فإننا سنجري تطبيقاً على نص البحتري في وصف الذئب، ونستخرج منه البنيات التي تعرضنا لها في أطروحتنا هذه:

وليل كأن الصبح في أخرياته
حشاشةُ نصلٍ ضَمَّ إفرنده غِمْدُ
تسربلته والذئب وسنان هاجعٌ
بعين ابن ليل ما له بالكرى عهدُ
أثيرُ القطا الكدري عن جثماته
وتألفني فيه الثعالب والربّدُ
وأطلس مِلءِ العين يحمل زوره
وأضلاعه من جانبيه شوى نَهْدُ

له ذَنَبٌ مـــثلُ الرشـــاءِ يجـــرّه
ومـتْنٌ كـمتن القـوس أعـوجُ منأَدُ
طواه الطوى حتى استـمـر مريره
فـمـا فـيـه إلا العظم والجلدُ
يقـضـقض عُـصلاً في أسرَّتهـا الردى
كـقـضـقـضـة المقرور أرعده البـرد
سـمـا لي، وبي من شدّة الجوع مـا به
ببيداء لم تُحْسَسْ بها عيشة رَغْدُ
كـلانا بهـا ذئب يحـدّث نفـسـه
بصـاحبـه والجَدُّ يُتْعِسـه الجَدُّ
عـوى ثم أقعى وارتجزت فـهجته
فـأقبل مـثل البـرق يتبـعـه الرعدُ
فـأوجـرته خـرقـاءَ تحسب ريشـهـا
على كـوكب ينقضُّ والليل مـسـوّدُ
فـاتبعـتـهـا أخرى فـأضللت نصلها
بحيث يكون اللُّبُّ والرعبُ والحقدُ
فَـخَـرَّ وقـد أوردته منهل الردى
على ظمـأ لو أنه عَـذُبَ الوِرْدُ
وقـمت فـجمَّعْتُ الحـصى وشـويتـه
عليـه وللرمـضـاء من تحـتـه وَقْـدُ

ونِلتُ خسيسا منه ثم تركته

وأقلعتُ عنه وهو منعفر فَرْدُ

بُنيات النص من الداخل والخارج:

لقد نجح الشاعر (من خلال الإطار العام للقصيدة) في نقل وتصوير ذلك التراسل الدقيق الذي جرى بين الحواس، أي أنه نقل الأثر النفسي بفنيّة عالية جداً لإحساس المصوّر (الشاعر) تجاه الشخوص والمكان والزمان، ووضعه بتصرف المتلقي الذي سيشترك في إغناء المشهد.

فشخوصه: الشاعر (نفسه)، الذئب، الطريدة المحتملة (كظل في اللوحة).

ومكانه: الصحراء

أما زمانه: الليل

ورابط هذه الأدوات: الإحساس والحوار الداخلي والخارجي الذي يستمد حيويته من: الوحشة، الجوع، الوحدة، الخوف.

ثم الحاجة إلى مهدئات النفس ومطمئنات الروح في هذا المهمه القفر والليل الموحش؛ لذا عمل على أنسنة الحيوان، وارتقى بهذه الإنسانية إلى قمتها حيث منحه إمكانية: الفهم، والتآلف، والتطامن، والحق في الحياة عبر دفع غائلة الجوع. ثم التف بالصورة عكساً وأبرز بهيمية الانسان.

إن اللافت في اللوحة الحيوية هذه ليس أنسنة الحيوان فحسب؛ بل الارتقاء بالضاري غير المتآلف مع الإنسانية -عادة- إلى الممكن الإنساني النبيل بعقد مثل تلك الصداقة الوثيقة التي تسمها التضحية المتفردة بسمتها النبيلة والنادرة في الوقت نفسه. كذلك تمسك بشرعة البقاء للأقوى.

إذن؛ لقد عقد الشاعر علاقات بين مواد وأدوات بنائه الشعري، وحاول أن يدخل اللامألوف في دائرة المألوف، فالليل الصحرواي موحش لا كما هو في العامرة، لكنه ممكن إذا أضيء بنور المشاعر والأحاسيس. والذئب ضار مفترس، وأكثر ضراوة وخطراً إذا (عضّه) الجوع، لكن المستحيل يغدو ممكناً إذا أجرينا علاقة مثلية بينه وبين الإنسان، أي إذا أنسنّا الضاري فقد فككنا الارتباط بينه وبين حيوانيته، فعزلناه عن خلّة الافتراس ببديل إنساني جوهري.. (الصداقة)، شريطة أن نُعقّلَ مشاعرنا ونرتقي بها؛ والنفس الإنسانية تتحول إلى وحشية إذا جاعت، فتخرق المحرم.

تعشَ فإن عاهدتني لا تخونني

نكنْ -مثلما- يا ذئب يصطحبان

فإذا فشلت الأحاسيس والمشاعر في تقدير الحالة، ووقعت في وهدة الخطأ؛ فمن الضروري أن يحل التصور -المتوهم محلها، أي (فلنتصور أنه حدث كذا على خلاف (الواقع وهذا من مستلزمات (تجميل) اللوحة، التصور الحقيقي، الشعور الخيالي، الإدراك الذهني.

وإن من الضرورات لضمان جمالية البنيان؛ إجراء تبادل مدروس زمانياً ومكانياً ضمن معمار القصيدة (أي عالمها المجافي لعالمنا بديناميات كلها)؛ بين الفرشاة والإزميل، فقد يتحول التشكيل في الرسم عند الضرورة التجميلية إلى تشكيل في النحت، وهنا تظهر اللوحة متنازعة بين الصمت والصخب، والسكون والحركة، والاستواء والنفور، والظلام والضياء، كما تشهد تبادلاً لونياًبين ألوان الطبيعة التي تتناولها السماء -في حال تخلّصها من أكدارها- فتحيلها إلى قوس قزح، أو تعطيها إلى النهايات المنظورة في الأفق تركيباً لونياً لا زوردياً.

وهنا لابد من تفكيك التشكيل الفني للقصيدة وتحويله إلى وحدات متلازمة، نخضعها إلى الترقيم لاعادة تركيبها وقيام بنياتها على أساس هذه الوحدات مع محافظتنا على المادة الأساسية التي تشكلت منها لبنات البناء،

والإطار الزماني المكاني لتثبيت الخصوصية مع إعطائها المعمار المعاصر الذي يلائم الزمن المعيش، وربما يظل قريباً من التصورات الجمالية المستقبلية.

فالإطار العام للنص الشعري يقوم على أساسين هما: وحشتان الرابط بينهما قرار مفترض.. وحشة الصحراء ووحشة الجوع، أي وحشة إحساسية ووحشة شعورية، الإحساسية غربة روحية ونفسية أوصلتا العقل إلى حقيقة تقول بعجز الذات البشرية الفردية وضآلتها وتشظيها في مساحتين شاسعتين وُجدت في متاهتيهما (المفازة-الصمت) وفيهما تضيع القوتان اللتان تشكلان الشخصية الإنسانية (العقلانية والسمو الروحي).

أما الوحشة الشعورية فهي مستمدة من جوانية الذات الإنسانية التي تستمد طموحاتها النبيلة (الرفاه، الطمأنينة، الهدوء، الدفء، الحب، الملذات... الخ) من حب البقاء وصناعة الأساليب بوسائل مختلفة لرد الموت (الصراخ، الحداء، الركض، رمي الحصا، الصفير، إشعال النار، مطاردة الدويبات الضعيفة الخ). وكلها حركات لا مبرر لها (منطقياً) إلا اللهم تبديد الشعور بالوحشة لا من المحيط أصلاً؛ وإنما لأن الوحشة من مرموزات الموت (فالقبر وحشة، والكفن وحشة، وسكون الحركة وحشة، والوحدة في مفازة صحراوية وحشة).

إن الأساسين المتمثلين بالوحشتين المذكورتين هي التلاوين المختلفة وغير المرئية التي تشكل الوجه الآخر أو البعد الخامس في اللوحة الشعرية.

ففلسفة المعنى الذي قامت عليه القصيدة تولّدت من العوامل النفسية التي صنعت بدورها اللحظة الشعورية الدافعة لإبداع اللوحة-القصيدة مثل:

– الصراع من أجل البقاء يفرضه الوجود الشخصي-الفردي في الصحراء.

– اختراق المحرّم (أكل لحم الذئب) ومجانبة القيمة العقيدية هو نوع من التحدي أو عبور المحرم من أجل البقاء، والفعل الحرام لم يفعله الشاعر للإيغال في الخطيئة؛ وإنما لتمسكه بالحياة وقد أفتت بعض الاجتهادات بذلك.

– هنالك حد فاصل واه بين تمسّك الذات بإنسانيتها، وترديها إلى البهيمية الضارية، وهو حدٌّ يلغيه -عادة- الصراع من أجل البقاء.

– القلب المحرك الأساس لحياة الإنسان، ومنه تصدر الديناميات التي تغذي الكون الإنساني في الوجود؛ إذن هو الهدف الذي يقصده المتصارعان، لذا توجه النصل إليه، وغاص فيه، فتفككت دينامياته: (الأمل، الخوف، الحقد).

وهنا يطرح السؤال نفسه: هل ظلت هذه البهيمية الشرسة ترافق الشاعر بعدما بدد الوحشة الثانية (الجوع)؛ أم ثاب إلى إنسانيته، وارتقى بمشاعره وأحاسيسه يسوّغ افتراقه عن إنسانيته لحظتئذ؟.

والإجابة ستقدمها الأبيات التي جاءت بعد أن أسكت الشاعر جوعه بلقيمات أجبر نفسه عليها ليدفع غائلة الموت عنه:

لقد حكمت فينا الليالي بجورها

وحكم بنات الدهر ليس له قصدُ

أفي العدل أن يشقى الكريم بجورها

ويأخذ منها صفوها القُعْدُدُ الوغدُ

ذريني من ضرب القداح على السُّرى

فعزمي لا يثنيه نحسٌ ولا سعدُ

سأحمل نفسي عند كلِّ ملمةٍ

على مثل حد السيف أخلصه الهندُ

ليعلم من هاب السُّرى خشية الردى

بأن قضاء الله ليس له ردُّ

فإن عشت محموداً فمثلي بغى الغنى

ليكسب مالاً أو يُنَثَّ له حمدُ

وإن متُّ لم أظفر فليس على امرىء

غدا طالباً إلاّ تقصيه والجهدُ

فالشاعر يحمل كل السمات الإنسانية، جارت عليه الحياة لسيطرة الخطأ على دورتها، إذ افسحت للجبان واللئيم، وضيّقت على الكريم، لذا اعتزلها وانتبذ ركناً في الصحراء، يسعى إلى العيش الكريم. . إنه يحاول مع وجود احتمالات الفشل والنجاح وهما أمران مفروضان، وكل العقابيل تظل لصالح كرامة الإنسان.

أما مسوغات وجوده في الصحراء، وهجره العامرة فقد قدمها في بداية قصيدته. حب مستحيل، وود مفقود، وأصحاب قساة الأفئدة، وذكريات مريرة، حرقات عاطفية، تنكرٌ للفضل، إنكارٌ للخلال الحميدة. .

وأمور كثيرة أثّرت في نفسه وأحدثت فيها ردة فعل عنيفة . . إنه الغضب البدوي النبيل؛ فهو حالتان لا ثالثة لهما؛ فإما أن يجامل على حساب قناعاته، أو يهادن على حساب كرامته؛ أو يهجر فيهاجر انتصاراً لذاته، وتعزيزاً لمشاعره وقيمه النبيلة، فاختار الأشد مرارة:

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عهدُ!

أما لكمُ من هجر أحبابكم بدُّ؟

أأحبابنا قد أنجز البين وعده

وشيكاً ولم ينجز لنا منكم وعدُ

أأطلال دار العامرية باللوى

سقت ربعك الأنواء ما فعلت هند

* * *

بنفسي من عذَّبتُ نفسي بحبّه

وإن لم يكن منه وصالٌ ولا ودُّ

حبيب من الأحباب شطّت به النوى

وأيُّ حبيب ما أتى دونه البعد

* * *

فقل لبني الضحّاك مهلاً فإنني

أنا الأفعوانُ الصلُّ والضيغم الورد

بني واصل مـهـلاً فـإن ابن اخـتكم

له عـزمـات هُزْلُ آرائهـا له عِـقْـدُ

متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى

وإن كـان خـرقـاً مـا يُحَلُّ له عِـقْـدُ

مـهـيـبـاً كنصل السيف لو قُـذفت به

ذُرى أجـإٍ ظلت وأعـلامـه وهد

* * *

ولولا احـتـمـالي ثِقل كلّ مُلِمَّـةٍ

تسـود الأعـادي لم يَوَدُّوا الذي ودوا

* * *

ولي صـاحب عـضب المضارب صـارم

طويل النجـاد مـا يُغَلُّ له حـدُّ

وباكـيـةٍ تشكو الفـراق بأدمع

تبادرها مـسـحاً كـما انتـثـر العقد

رشـادك لا يحـزنك بَيْنُ ابن هِمَّـةٍ

يتـوق إلى العليـاء ليس لـه نِدُّ

فمن كـان حُسـراً فهو للعزمِ والسُّرى

ولليل من أفـعـاله والكرى عـبـد

فالقصيدة تقوم معنوياً على ركيزة إجتماعية، وركيزة ذاتية فردية، وركيزة شعورية، وركيزة نفسية، وقد مثلت كل ركيزة من الركائز الأربع منحىً يشكّل بحد ذاته غرضاً يستهلكه الشاعر بمقايساته الفنية كلها ليربطه (عن مقدرة على حسن التخلص) إلى الغرض الثاني، بينما يظل العمود الأساس الذي قام عليه المعمار العام للقصيدة يمثل تكاملاً شعورياً-إحساسياً شكل حيثيات البناء الفني للقصيدةالتي جمّعت في دقائقها زمناً محدوداً سلّمته بدورها لوحدة اللحظة الشعورية، وبكلمة أدق، فقد أوصلتنا القصيدة إلى حقيقة تقول بوحدة الشعور في زمانية واحدة.

أما الحكمة أو بيت القصيد فتكمن في رسم النفس الإنسانية ضمن كونيها؛ الكون الإجتماعي، والكون الذاتي، والتركيز على القاسم المشترك المؤكد في كل مفصل من مفاصل القصيدة: (القوة)، وهي ضمن سياق المفهومات تقدم الخلاصة القائلة: بمبدأ (قوة النفس، قوة الجسد، قوة الارادة) هي محركات تمنح الطاقة للحياة المعيشة (ترفها، وخشـونتها)؛ لأن البقاء للأقوى، وقد ظهرت الحبكة في مشهد الذئب وتناهب لحظات البقاء بين ضاريين يمثلان الوجود، ومن يهتبل الفرصة (الأسنح) ينل البقاء إلى زمن آخر، وكانت الغلبة لتضافر العقل مع الارادة مع القوة مع (الأثر الحياتي) «الذكريات بحلوها ومزها»، وانتصر الشاعر...

الصورة البسيطة:

... وكما في أي نص شعري محكم أبدى شاعر عربي عبر عصور الشعر يعتمد الشاعر على بصيرته قبل باصرته في نقل الصورة التي أرادها أن تكون من مستلزمات النص الشعري، فهو يلتقط ما تقع عليه نظراته

ويصوغها بشكل مجرد، وكأنه أراد أن يجعل من اللوحة الشعرية -من حيث الماهية- خليطاً بين المعقول واللامعقول، أي أنه يوزّع على مساحات اللوحة، ويملأ فراغاتها بالمرئي والمتخيل. . فالنص الشعري الذي بين أيدينا يحمل كماً لابأس به من الصور البسيطة (الفوتوغرافية)، وهذه الصور اعتمدت أساساً على المتبادلات البلاغية والبديعية التي تنتظمها علاقة قامت على تدرجات التشبيهات بوحداتها المختلفة (تشبيه عادي، تشبيه بليغ، تشبيه متكامل، تشبيه ناقص، تشبيه متآلف) وذلك حسب قواعد البلاغيين وشروطهم في تحديد التشبيه على ضوء الوحدات المرسومة له (مشبه، مشبه به، أداة التشبيه، وجه الشبه... وهكذا)، ثم ترتقي هذه الوحدات نحو التركيب المعقد العلاقة قليلاً لتخرج عن دائرته، فتصب في الروافد أو المتفرعات (استعارة بوحداتها المتصاعدة) وكناية (بأقسامها تفريعاتها إذ تصل إلى قمة الصورة البلاغية التي احتفى بها نقدة الشعر من القدماء).

وقد تظهر الصور البسيطة جليّة واضحة إذا ما عدنا إلى الوحدات المعنوية التي ذهبنا إلى تقسيمها من قبل، فإننا نجدها - دون الغوص في التفاصيل- في المقطع الأول ظاهرة في الجمل التالية:

«أنجز البين وعده، سقت ربعك الأنواء، حبيب شطّت به النوى، حبيب ما أتى دونه البعد، جازتك بطحاء السواجير يا سعد، أنا الأفعوان الصل والضيغم الوردُ».

وفي المقطع الثاني:

«متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى، مهيباً كنصل السيف، إذا الحرب لم يُقْدَح لمخمدها زند، لي صاحب عضب المضارب صارم،

طويل النجاد ما يُفل له حدّ، تبادرها سَحْماً كما أنثر العقد، فمن كان حراً فهو للعزم والسُرى، ولليل من أفعاله والكرى عبد.».

وفي المقطع الثالث:

«وليل كأن الصبح في أخرياته حشاشة نصلٍ، بعين ابن ليل ماله في الكرى عهد، وأطلس يحمل زوره، أضلاعه من جانبيه شوى نهد، ذنبٌ مثل الرشاء، متن كمتن القوس أعوج منأد، يقضقض عصلاً كقضقضة المقرور، كلانا ذئب، أقبل مثل البرق يتبعه الرعد، خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض والليل مسوّد».

وفي المقطع الرابع:

«حكمت فينا الليالي بجورها، حكم بنات الدهر ليس له رد، سأحمل نفسي عند كلٍ ملمة، مثل حد السيف أخلصه الهند».

وقد توّج الشاعر بلاغة المعنى بالحكمة التي سخّر النص بمقاطعه الأربعة لإظهارها إيماناً مبطناً هي قيمة الشاعر وبيانه الحياتي:

فإنْ عشتُ محموداً فمثلي بغى الغنى
ليكسب مالاً أو يُنَثَّ له حَمْدُ
وإنْ متُّ لم أظفر فليس على امرىءٍ
غدا طالباً إلاّ تقصيِّه والجَهْدُ

فالبيتان الأخيران هما قمة الكناية الإشارة إلى إرادة المعنى الجوهري من النص كله من لوحاته الأربع التي تأطرت جوانيتها برؤيته لوجوده ووجود الآخرين.

الصورة المركّبة:

والصورة المركبة هي التي تمثل المبدأ الفني الذي قامت عليه قصيدة البحتري (موضوع تحليلنا)، وقد تجلى الجوهر الغنائي في تحويل الانفعالات والمشاعر إلى حركة درامية توزعت على المقاطع الأربعة، وبلغت قمتها في مقطع (الذئب) حيث ظل الحوار صامتاً بين المشاعر والأحاسيس، وربما تحوّل هذا الحوار إلى حوار مسموع -بالتخيّل، من خلال المشهد المحسوس-المتوهم.

فالشعور هنا يمثّل المشهد تمثيلاً تجسيدياً تصنع الحواس ديناميات كلّها، لأن الطبيعة في هذا المشهد لا تحال إلى الخيال التجريدي؛ بل تعتمد على مركبات يدفعها الخيال إلى ما وراء المتصوَّر.

فإذا كانت الصورة البسيطة تقوم على الإسلوب بصياغة بصرية؛ فإن الصورة المركبة تقوم حتماً على الخيال بصياغات إحساسية غير منتظمة بل وتبقى في خصام مع المنطق والواقع والتجريد.

إذن فالصورة المركّبة -بدورها- تجنح إلى التعقيد أكثر كلّما اعتمدت على الخيال التصويري، إذ تترك رسم أبعادها الإحساسية لإيحاءات اللفظة، وتدير ظهرها . للكنايات والإستعارات، أو تبتعد عنهما بمسافة تعادل المدى الخيالي الذي جُبِلَ عليه الشاعر.

فقصيدة البحتري لا ينظمها ناظم تصويري يمثّل المبدأ العام في تلاوينها الشعورية والصُوَرِيَّة، وإنما نجد أن الغلبة فيها للخيال الذي يُمسْرِح المشهد، ويُشخِّص أدواته نفسياً؛ أي أنه يحوّل الجماد

إلى متحرك، وغير العاقل إلى معقلن، والظلام إلى ضوء، لذا دأب الشاعر على استخدام «الألبوم» الصُوَري بدلاً عن استخدام المعجم اللفظي، وحوّل اللغة إلى حيوات تكمن فيها إمكانية الحركة، والنطق، والتفكير، والتلوّن.

وفي هذا يقول يوسف اليوسف عند تحليله للوحة الذئاب في قصيدة الشنفرى، إذ ينطبق الأمر تماماً على لوحة الذئب عند البحتري: «... والحقيقة أن لوحة الذئاب تبلغ ذروتها الكبرى من حيث طاقتها التصويرية ذات المنهج الإضفائي؛ لا لأنها تجسّد الانفعالي وتجعل اللامنظور منظوراً فحسب؛ بل لأنها تملك خصائص فنية أخرى، أهمها القدرة على التصوير التشبيهي المعمّق للحالة الموصوفة، والقدرة على توظيف اللغة توظيفاً إيحائياً يستثمر الطاقة النفسيه للكلمات، بحيث تأخذ الصورة أبعاداً لها من السعة والطول ما يملك أن ينقل أعماق المعنى وإبرازه ناصعاً ضاغطاً على القوى الإدراكية للمتلقي.

إن تجسيد المشاعر هو واحد من أنجح التقنيات في التصوير الفني، لأن الألفاظ تغدو ذات طاقة تصويرية، وتتحول إلى حوامل جسمانية ثنائية المحمولات: فهي تنقل الداخلي على أنه روح، أو معنى، متشخّص في موضوع. وتنقل الخارجي على أنه موضوع مستقل عن الوعي. إذ يمكن النظر إلى الذئاب على أنها ذئاب، أي كائنات تعيش واقعاً، وتجابه المُعاش بسلوكاتها القائمة عياناً، كما يمكن حسبانها اقتطاعات من النسيج اللاشعوري لخالقها في وقت واحد.»[١٧].

فالشاعر في تعامله مع موجودات النص الظاهرة والباطنة كان يتعامل مع عنصر حيوي هام يمثله الوعي فهو الحاضر في الصور المُبْصَرَة، والنائي في الصور المركبة، والغائب في الصور المعقّدة.

لقد حوّل الجوانيات المحسوسة إلى مجسّدات عندما دفع بها إلى الخارج عبر عملية فنيّة معقدة ضمن علائق نسيجية متداخلة كان خيطها الرئيس الخيال، وموادها عبارة عن (مشاعر وأحاسيس، أخيلة وتخيلات، علاقات نفسيّة مجبولة بالتصور والعقيدة والاعتقاد الفردي والجمعي وتساوق تبادلي غاية في الدقة).

أما التبادلات العلائقية، أو التعالق التبادلي بين شخوص النص وأدواته فكانت تتحاور ضمن أبعاد رمزية ورومانسية في الوقت نفسه، فهي رمزية عندما تقوم علاقة وجودية بين (الصانع والمصنوع أو الراسم والمرسوم) وبين الخارج المرئي والباطن الشعوري المحسوس، ورومانسية عندما تكون العلاقة شفيفة في تواجدها في المساحة الشعورية لدى مبدع اللوحة، فتطفو الطبيعة (البيئية) على جوانب اللوحة، والطبيعة النفسية ضمن اللوحة ذاتها، وتظهر الحركة متساوقة مع المعنى والموسيقى واللون والحوار الصامت بين: (ذئب حيوان وذئب إنسان «بهيمية وإنسانية بهيمية»، ذئب وإنسان «بهيمية»، إنسا وطريدة (مصير مجهول)، طريدة وطريدة «البقاء للأقوى»، إنسانية تريد الحياة كحق، ومحرّم «خيار الاختراق»).

أما الحركة فتوزعت بين الموت والحياة (الحب، البين، الفراق) (أطلال اللوى، دار اللوى بين الصريمة والحمى، عذّبت نفسي بحبه، النوى، البُعد، العزمات، المهابة، باكية تشكو الفراق).

وشخصية تحب القوة من أجل ضمان الحق في الحياة ودفع الموتين (الموت الفيزيولوجي، والموت المعنوي «ميّت الأحياء»): أنا مثل الأرقم ومثل الأسد، لي عزيمتي المميزة، غضبه قاتل، مسلول مستنفر كالسيف،

ذو مهابة، ذو رفعة كقمم الجبال، له مكانة خاصة كجبل أجأ، يخافني الأعداء، ويتمنى الجبناء موتي، قلبي نابض بالحب، وذاتي تطفح إنسانية).

أما اللون فمحدد بألوان الأطلال، الغيوم، البرق، الأفعوان والصل ولون جلد الأسد ولبدته، الشرار، الليل، الصبح، القطا الكدري (أبرش: بين السواد والرمادي)، الذئب (أغبر مائل إلى السواد)، الحبل، الرمال، الحصى، رماد النار، الأسود الأغبر الممرغ بالتراب).

وثمة حركة وجودية (مرئية ومحسوسة): (حركة الذئب، تكوينه الجسدي، حركة النصل، حركة السهم، صوت القضقضة، ارتعاشات القتيل، الشرار الذي يتطاير من النار، حركة الدخان، حركة العيون) كلها حركات مرئية، أما الحركات المحسوسة (حركة الخوف، حركة المشاعر، حركة الأحاسيس، حركة الحياة، حركة الأعصاب، الحركة الشعورية بالامتلاء والانتصار). وثمة جزئيات ضمنتها اللوحة شكلت مقرنصاتها التي نرى فيها روابط عملت على تعشيق الأجزاء بعضها ببعض.

وأخيراً أرى في هذه الدراسة التحليلية جانباً فردياً كون الناقد إلى جانب الخبرة النقدية التي يمتلكها؛ فهو -أيضاً- متلق له ذائقته المختلفة، وشعوره الخاص تجاه النص المقروء أو المسموع أو المرئي.

الإحالات

(١): ابن خلدون، المقدمة، المطبعة البهية المصرية، ص ٥٠٤.

(٢): عدنان حسين قاسم، الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر في مصر، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط ١، ١٩٨١، ص ٢٥-٢٦.

(٣): أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٠، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤): الديوان، ثلاثة أجزاء، مقدمة الجزء الثاني، (ل)، ١٩٠٤.

(٥): وحي القلم، ج ٣، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ص ١٧٦.

(٦): المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٧): مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج ٣، مكتبة الاستقامة بمصر، ١٩٥٤، ص ٢١١-٢١٢.

(٨): وحي القلم، ٣/ ٢٧٥.

(٩): المصدر السابق، ٣/ ٣٥٠.

(١٠): طه حسين، حديث الأربعاء، (ص ص: ١/ ٣١/ ٣٢).

(١١): أحمد كمال زكي، النقد الأدبي الحديث (أصوله واتجاهاته)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٥٥.

(١٢): نفسه، ص ٥٥-٥٦.

(١٣): عباس محمود العقاد، مراجعات في الآداب والفنون، طباعة المطبعة العصرية بمصر، بلا تاريخ، (فصل عن ابن الرومي)، ص ٢٥٢ ومابعدها.

(١٤): نفسه، ص ٢٦١.

(١٥): محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، بلا تاريخ، ص ٣٦

(١٦): محمد مندور، فن الشعر، لجنة التأليف والترجمة، سلسلة الدراسات الأدبية، مصر، بلا تاريخ، ص ٢١-٢٢.

(١٧): يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥، ص ٢٧٧-٢٧٨ (دراسة لامية الشنفرى).

* * *

ابــــداع

شـــعر

الجنوب المسافر يعود إلى الوطن

محمد منذر لطفي (*)

«... القصيدة مُهداة إلى « الجنوب اللبناني»
بمناسبة تحريره من «الاحتلال الصهيوني»

١

عِمْ صباحاً.. فقد هزمتَ الدخيلا
يا «جنوبَ» الفداء.. تَبقى الأَصيلا

(*) محمد منذر لطفي: أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر.

أيها الثائرُ (١) . . المتوَّجُ بالغار . .   الذي كـان سـيفَنا المسلولا
إنَّ أرضَ الجنوب ضـاءَ ثراها   حين قاومتَ غازياً (٢) . . وعميلا (٣)
جئتَها الأمسَ كالشهاب مضاءً   رافع الهام... فارساً مأمولا
فهزمتَ «المحتلَّ» في ساحة الثأر . .   وأضحيتَ للجلاء رسولا
فمضى يسحبُ الهوانَ... ذليلاً   وهو يُخفي . . وجهاً كئيباً . . ذليلا
أطلعتْكَ الأحداثُ من أرض «لبنان»   شهاباً فذاً . . وسيفاً صقيلا
هي بنتُ الكفاح . . أمُّ البطولات . .   تَسامتْ فرعاً . . وعزَّتْ أُصولا
من يُعرِّجْ على ثراها يُشاهدْ   بلداً طيباً . . وشعباً أصيلا

–٢–

ما على الشعر إنْ تغنَّى طويلا   خُلُقَ الشعر . . كي يردَّ الجميلا
يا «جنوبَ» التحرير والنصر . يا منْ   رُحْتَ تُعلي للنصر شمساً بتولا
أنتَ فجَّرتَ بالضياء الينابيعَ . .   وأطلعْتَ كوثراً . . ونخيلا
ورجمتَ الطغيانَ قولاً وفعلاً   وبنيتَ الإنسانَ جيلاً . . فجيلا
لكَ في ساحة النضال أيادٍ   عرفَتْها «لبنانُ» عرضاً وطولا
أنتَ أشعلتَ بالجهاد الميادين . .   مَحَوْتَ الظلامَ . . كُنتَ الجليلا
أنتَ صنْتَ التراب وجهاً مُعافىً   أنتَ حرَّرتَ أنفساً وعقولا
قد صنعتَ «الجلاءَ» في شهر أيار (٤) . .   أعدتَ الربى . . أعدتَ السهولا
فتهادتْ راياتُكَ الحُمْرُ تُعلي   النصرَ . . تُهدي «لبنانَ» مجداً أثيلا
لا يزفُّ الصباحَ إلا أولو العزم . .   تلفَّتْ . . ترَ الصباح خضيلا

–٣–

أيها الصامدُ . . المُوَشَّحُ بالضوء . .   الليالي مازلْنَ – بَعْدُ – شكولا
سقطتْ يا «جنوبُ» أقنعةُ الغدر . .   تحدَّتْ أيامَنا . . والفُصولا

قد أطلّتْ على الحمى من جديدٍ ... ثم أبدتْ ناباً طويلاً أكولا
أشهرتْ حقدَها القديم.. وراحتْ ... تنشرُ الغدر بَكْرَةً.. وأصيلا
«أمريكا» شرٌّ.. وداءٌ وبيلٌ ... وستبقى شراً، وداءً وبيلا
«أمريكا» وجهٌ لئيمٌ.. حقودٌ ... قد عرفناهُ.. فتيةً.. وكهولا
«أمريكا للمسلمين عدوٌّ ... فاحذروا الغدر. واحذروا التضليلا
أيُّ «فيتو» (٥) ذاكَ الذي رفعتْهُ ... فأضاعتْ «قُدساً» لنا.. و «خَليلا»
أيُّ سلْمٍ هذا الذي تَدَّعيهِ ... فيه يغدو العزيزُ منا ذليلا
فأفيقوا من نومكم.. وأعدُّوا ... ما استطعتُمْ.. أسنَّةً ونُصولا
لا يُعيدُ التُّرابَ إلا شبابٌ ... تَخذوا السَّاحَ «للجلاء» سبيلا

-٤-

يا «جنوبَ» الفداء والنصر.. يامنْ ... صغْتَ من فتية «الجنوب» شُبولا
أنتَ يا منْ أضأتَ سود الليالي ... فأزلتَ الهمَّ الشديدَ.. الثقيلا
أنتَ يا منْ هزمتَ «باراكَ» (٦) ... والشرَّ.. فأضحيتَ للجلاء رسولا
أنتَ يا منْ نورّتَ بالدم والبذل ... جبالاً.. وبالصمود سُهولا
أنتَ قَدَّمتَ للثرى كُلَّ غالٍ ... لترى صُبحكَ الجديدَ.. الجميلا
أنتَ يا منْ قَلَبْتَ كلَّ الموازين.. ... فأجْلَيْتَ خائناً.. ودخيلا
يا شبابَ «الجنوب».. يا موسمَ ... الفجر.. ويا أنجم الصباح الأولى
قد ضربتم عدوكّم في تحدٍّ ... ورفضتُمْ بقاءَهُ.. والحُلولا
فطوى الغدرُ في الظلام جناحَيْهِ.. ... غراباً.. مضى يجرُّ الذُّيولا
حَفِظَ اللهُ همَّةً لا تُجارى ... باركَ اللهُ ساعداً مفتولا
إنهم فتيةُ الفداء تباروا ... للمنايا.. فأدهشوا المُستحيلا

نذروا نفسهم لصنْع الصباحات . . فكانوا الشعبهم قنديلا
جسَّدوا بذلَهم ملاحمَ لا تُنسى . . فكانوا « الفراتَ » . . كانوا «النِّيلا»
وشعاراتُهم – إذا احتدم الخطبُ – ستُجلي عن «الجنوب» الدخيلا
كلُّ فردٍ مضى يُنادي فخوراً قد وأدتُ الكلامَ والتَّأويلا
وأتيتُ الوغى . . أُحرِّرُ أرضي وأصونُ القرآن . . والإنجيلا

-٥-

يا ترابَ «الجنوب» . يا أرضَ قومي لم تكنْ غائباً . . ولا مجهولا
قد أعدناكَ يا تُرابُ عزيزاً وحطمْنا الأصنامَ والإزميلا
فَتَحرَّرْتَ رغْم هول الأعاصير وأخرجْتَ غازياً . . وعميلا
لا يَطالُ الجلاءَ إلا أُباةٌ ملأوا السَّاح ثورةً . . وصهيلا
كلُّ منْ رامَ غَزْوَنا يابلادي صار في ساحة اللقاء فُلولا
لا يُعيدُ التراب إلا شبابٌ تخذوا السَّاح للخلود سبيلا

٭

عمْ صباحاً . . فقد هزمتَ الدخيلا يا ترابَ «الجنوب» . تبقى الأصيلا
ما على الشعر إنْ أشادَ . . وغنَّى خُلُقَ الشعرُ . . كي يردَّ الجميلا
لا يزفُّ الصباح إلا أُولو العزم . . تَطَلَّعْ . . ترَ الصباحَ خضيلا

٭ ٭ ٭

الحواشـي

(١) - إشارة إلى «حزب الله» والمقاومة اللبنانية في «الجنوب» اللَّذَيْن حملا راية الصمود والكفاح والتحرير حتى يعود «الجنوب» إلى أرض الوطن. . وقد كان لهما ذلك.

(٢) - إشارة إلى المحتل الإسرائيلي.

(٣) - إشارة إلى جيش العميل «لحد» الموالي «لإسرائيل».

(٤) - إشارة إلى أيام [٢٣ و ٢٤ و ٢٥ أيار من عام ... ٢] التي تم خلالها تحرير «الجنوب» وانسحاب الغُزاة الصهاينة منه.

(٥) - إشارة إلى حق النقض الذي استخدمته أمريكا لإبطال مفعول قرار الأمم المتحدة القاضي بإعادة القدس المحتلة إلى أصحابها عرب فلسطين بإجماع من دول المنظمة العالمية.

(٦) - هو رئيس وزراء إسرائيل الحالي.

* * *

ابـــــداع

الثعالب تنبش قبر المعتصم

محمد زهير هدله (*)

«... اشهدي لي عند جدك أني أتيت
لخلاصك وفي مقدمة عسكري
اربعة آلاف ابلق...»
فمن يشهد لنا عند المعتصم وبماذا
وقد تركنا الثعالب تنبش قبره.؟!!

ضُربَ العراقُ
للمرةِ الخمسينَ مِنْ بعدِ المئَهْ

(*) محمد زهير هدله : أديب وشاعر من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الشعر . من أعماله : « على ضفاف القلب » .

ضربَ العراقْ

الليلُ فرَّ مولولاً تحتَ القذائفِ واللهبْ

وهلالُ رمضانَ الكريمِ بدا شظايا من غَضَبْ

وتكسَّرَتَ مرآةُ دجلةَ والفراتْ

وتطايرَ الأهلونُ تحتَ سمائها

أعجازَ نخلٍ خاويهْ

والمعتصمْ

نادى ونادى يا عَرَبْ

شُدّوا خيولي البلقَ أصواتُ العذارى تَصطَخِبْ

أطفالُنا سُحلوا بأموالِ العَرَبْ

وشيوخُنا قُتلوا بأموالِ العَرَبْ

ونساؤُنا – يا ويلنا –

سبيتْ على مرأى العَرَبْ

جَفَّتْ لهاةُ المعتصمْ

غاصتْ أصابعُهُ القويّةُ في الجدارْ

نادى بقوادِ الجيوشْ

إِنسوا دماءَ البرمكيْ

إنسوا دماءَ أخي الأَمينْ

إنسوا دمي

لم ينتخِ لندائِهِ رجلٌ غيورْ

لم يأتِهِ مِنْ كلِّ فرسانِ البلادِ ولو جوادٌ من قَصَبْ

وأبوهُ هارونُ الرشيدْ

نادى غيومَ الشرقِ يعرفُها وتعرفُهُ ولكنْ!

لم يجنِهِ من الخراجِ سوى خُطَبْ

ضَرَبَ العراقُ لكي تُبَرِّدَ نارُمونيكا الدَفينَهْ

فالسَّبيُ حتَّى العَظْمِ يَسكُنُها

وحصادُ ذاكَ البابليِّ(١) مُرَوَّعٌ في كلِّ عامْ

وجوادُهُ

مازالَ يضرِبُ بالحوافِرِ رأسَ رأسِ جدودِها

ويسوقُها

رُغْماً لتعملَ في حدائقِهِ المُعَلَّقَةِ العجيبهْ

والعهرُ فَرَّخَ في العُروقِ مَكائداً

وفضائحاً، وقذائفاً

وتساقَطَ الحقدُ الموشَّحُ بالدسائسِ في العِراقْ

وتناثَرَ اللحْمُ الفراتيُّ المسَّكُ بالعروبةِ في السماءْ

الطِّفْلُ مهدورٌ دَمُهْ

والنَّخلُ مهدورٌ دَمُهْ

والحبُّ والإسلامُ مهدورٌ دَمُهْ

ضرُبَ العِراقْ

والمجلسُ الدوليُّ صارَ مُسَدَّساً

في كفِّ أرْعَنَ مِنْ يوتاه(٢)

أُنشوطَةً

تُرمى على عُنُقِ الشّعوبِ الثَّائِرَهْ

تأشيرةً تدنو بِها

سفنُ القراصِنَةِ الشواطىءَ تحصدُ الأموالَ والأجيالْ

ضرُبَ العِراقْ

وعليٌّ يسألُ عن عيونٍ للمها تُغري وتُردي (٣)

وأبو نواس مطوَّفٌ بين الدُّروبِ مُفتِّشاً

عَنْ خمرةٍ تُنْسيهِ فَقْدَ الأهلِ والخلانْ

وسِغابَ أعوامٍ قضاها في الحِصَارْ

ودمُ الحسينِ مُوَزَّعٌ بين المدائنِ والقُرى

ومئات آلاف الشِّفاه موشحاتٌ بالصَّلاة وبالدُّعاءِ

ترابَهُ العَبِقَ الطَّهورْ

ضُرِبَ العراقْ

والكلُّ حَطَّ على مصابيحٍ بِكِبْرٍ أَخيلَهْ

ويفرُّ منها أو تَفرُّ الأخيلَهْ

والأسئلَهْ

تدوي وتَدْوي الأسئلَهْ

ماذا يفيدُ الأهلَ حينَ يموتُ مِنْ جوعٍ عِراقْ؟!

ماذا يفيدُ البيتَ حين يُدَكُّ رُكنٌ فيه؟!

ماذا يفيدُ العَرضَ حينَ تَمزّقُ الأثداء في نزقٍ

مخالِب قنبلَة؟؟

ضرُبَ العراقْ

ضرُبَ العراقُ فمن يجيءُ بلحمِ أطفالِ العِراقِ مِنَ السُّحبْ

والطيرُ فوقَ رؤوسنا

فمنِ الذي بَعْدَ العِراقِ أيا عَرَبْ؟؟

* * *

(١) نبوخذ نصر الذي سبى اليهود مرات عديدة.
(٢) يوتاه ولاية امريكية.
(٣) علي بن الجهم: صاحب بيت الغزل المشهور.

ابـــداع

قصـــة

استعداد •

رباب هلال

-1-

وقال: «هيه، نحن هنا، أين تشردين؟».

ســـدّدْ! انطلـق الأمـرُ. وُضعـت الأصابع على الزناد، تركـزت العيـون لتعبـر إلى ثقب التسديد مارّةً على مـدى السبطانة، إلى منتصف الهدف ثم عاد الأمر: - «إطلا...».

(•) رباب هلال: أديبة وقاصة من سورية، من أعمالها: «أجراس الوقت».

وردّت بعصبية واضحة : - «إطلاقاً. أنا معك». وكانت ابتسامتها باهتة. رفع كفه معارضاً : - «مهلاً». وابتسم.

استُفزّتْ جوّانيتُها مؤنبةً : - «مـاذا دهـاكَ؟ هي ليسـت معركة».
ثم فكرت بمنتصف الهدف. وفار السؤال داخلها : هل كل شيء يحتـاج إلى تسديد؟ وإذن ما الذي يحدث لي؟.

أغمضـت عينيها، وقبـل أن تفتحهمـا سـمعتْ همسَ روحها : إنه استعداد للامتلاء! وعادت تغمض عينيها، كأنمـا لتقبض على تلك النشوة الهاربة في المكان والأشياء. انهـمرت فيها، سـدّدت إلى منتصف الهدف، وأطلقت رصاصة.

اكتشاف مرير انفلشت على الهدف ونزّ السؤال : لماذا نضيّع امتلاءاتنا في متاهات الـ(ما قبل) والـ(ما بعد)؟!.

هدوء انسل في مسامات الروح والتعب، وبأصابع حالمة، أمسكت بالزناد، وسدّدت إلى لحظة التأهب للامتلاء، وقد أغلقت أبواب الما قبل، لكنها تركت أبواب المابعد غير موصودة تماماً!.

-2-

وقالت : - «كأنما ... كأنما ...».

رَدّدَ : - «لعلّه ... لعله ...».

- «لماذا نرتكب حماقات الأسئلة واللغة ونحـن نتألـق في فيـض من السحر؟» سألت.

- «لماذا؟ وكيف؟ أسئلة أحالها زمننا إلــى حبـــال غســـيل فارغة على شرفات بيوت مهجورة تملؤها خيطان العناكب الممزقة!».

أجاب، وهو يقارب حلماً باليقين ويعانق روحاً قابلة للامتلاء.

الدرج الطويل مُغلَّفٌ بالعتمة، تساندا ولامسا الجدران وبخطوات وئيدة راحا ينزلان. وباحت أصابعهما المتشابكة:

- «أية لغة حمقاء استطاعتها لملمة النزول أو الصعود على درج، وعلى مساحة شاسعة للتوقف وإشعال نور أخضر لروحين قابـــلين للامتلاء؟ ياه، يا دمشق الأدراج الهائلة، كيف لظلالاتنا الريفية أن تحتـمل كل هذا الصعود وهذا الهبوط؟».

ضمّها ورسمَ على شفتيها مصباح ديوجين. وانهمرت في طمـأنينة أن يخصّها ديوجين بهذا الوشم القادم من عتق الزمن!.

- «لو أن الدرج يتكاثر!» همست له.

- «أيتها العجولة، لنا وسع الأرصفة، وسع الإسفلت، والساحات، والليل، لنا دمشق. ولنا وسع الما قد يأتي». همس لها.

لملمت حروفها في بوتقة الصمت. لفّتها بسؤالٍ عنيد حول منتصف الهدف. وتابعت ببعض حروف هاربة من البوتقة:

- «وسْعُ المكان ضيق!».

-3-

(سدّدْ!).

وكانت أجساد الفتية ذكوراً وإناثاً منبطحة، وهم يرتدون بذلات الفتوة المدرسية. شدّ الطلاب أعقاب البنادق إلى براءة أكتافهم الإسفنجية! يسدّدون نظراتهم للدريئات ولمستقبلٍ لايبين!

وتأهبوا ... لكنّ الصوت باغتهم آمراً: انتبه! .

وسرعان ما غير الطلاب وجهة تسديدهم، ثم فرقعوا ضحكات عالية. فقد كان «المنصوري الأخوت» يجرّ حماره، يدخن سيجارة، ويوغل في المضي بين الدريئات وفوهات البنادق المصوبّة. وفي منتصف الدّرب أمرَ الحمار بالوقوف وإلقاء التحية! نخرَ الحمارُ رافعاً رأسه، مما جعل المنصوري يسارع في الاعتذار من المدرّب العسكري، وللتأكيد على حسنِ النيّة، ثبت سيجارته بين شفتيه، ثم رفع كفيه إلى صدغيه وحيّا الجميعَ مردّداً: «منّي ومن الحمار». ثم مضى متبختراً بزهوّ إلى أن وصل إلى نهاية الدرب، مخلفاً وراءه عاصفة من الضحك جعلت وجوه الطلبة تلامس الأرض، كما أفقدت، وللمرة الأولى، صرامة وقساوة المدرّب العسكري هيبتها وقد افتعدَ الأرض وأمسك خاصرتيه متعباً من الضحك.

تلك، كانت المرة الأولى، التي يمر بها المنصوري، لكنها لم تكن الأخيرة.

وفي كل مرة كان يكرّر الحركات نفسَها، والكلمات ذاتها، والتبختر عينه! وتتلون التعليقات والنكات، والصيحات، بين مرة وأخرى. لكنها لم تعد تستجلب تلك العاصفة من الضحك التي تفجرت أول مرّة! .

-4-

وحماقاتٌ أخر ... - «أتحبني؟» .

تواطأ الكلام والبوح وجدلا السؤال، ثم سرباه منها خلسة، سؤالَ شوق الصحراء لغيمة مباغتة في المخاض، ثم ... صار المخاض ولادة! .

شهق يباس شفتيها: مطر ! مطر !.

أتراها الصحراء حمقاء هي الأخرى؟!.

لكن، الصمت وحده عاد يشعل الما قدّ يأتي...

-5-

وباغته سؤالها: - «أتذكر المنصوري؟».

تأمّل وجهها، وأبحر في عينيها ذاكرة موقد يغطي رماده وهجُ اشتعالٍ يموت.

- «أتذكرين أجسادنا الممدّدة، والملتصقة بأرض جرداء، ونحن نسدّد للعدوّ... !؟». سألها.

أجابت: - «حقاً! ما الذي كنا نصوّب نحوه؟ وبخاصة نحن البنات المشذّبات المقلّمات، المجملات، المحصّنات، المطيّبات، الفاتنات، المسكّنات، المبعدات، المغويات، والمسدّدات بدقة نحو زوجات فاضلات، وأمهات مقدسات؟! أوكان ما نسدّد عليه عدواً وهمياً؟».

- «لا، بل إنه دفاع وهميّ». أجاب مسدّداً إجابته نحو يقين تمنّاه ألاّ يكون.

وبتأمل حزين، راحت الفكرة تتدحرج عبر شفتيها إلى مسام روحه المثقلة، وقالت:

- «أو لعله، كان الوطن في حالة تأهب للامتلاء لكنهم أضاعوها في تيه الما قبل والما بعد؟»

حطت عيونهما على مرفأ بريق لغصة خانقة، وعلى بريق قرار أن يبتسما.

ضاقت ابتسامتها، إذ خطر لها الما قبل والما بعد، وتساءل متمنية:

(أتراه هو الآخر ترك أبواب الفيما بعد غير موصدة تماماً؟).

وظلّ الصمت يتدفأ في اشتباك الأصابع ويحترق في العيون.

- «بات الدمع مثل عار.» قالت.

أجاب: - «بل قولي بات العار دمعاً يعشعش في خرائب جدران أرواحنا!» ثم تاهت نظراتهما تتوسل أمداء قابلة للاحتراق، قابلة لحلم آخر، قابلة للامتلاء.

وأمسك كلاهما بكأس عصير البرتقال، توقفت الكأسان حدّ الشفاه وحدّ الغصة. وظلّ ارتشاف العصير قيد الأمداء التضييق!.

- «إذن، هو البرتقال؟!» قالت

- «إيه أيتها الـ... وحده البرتقال؟!» سأل بسخرية حزينة.

تابعت: «الزيتون».

أردف: - «والتين».

توحّد صوتهما:

- «والعنب والسّنديان، السّرو والحور، القمم والوديان، الأنهار والبحور، الفضاء واليباس... و ... و ... ما تبقى من الأوطا ... ...»

وانبتر الكلام.

سدّدا نظراتهما نحو كأسي عصير البرتقال، وراحا يذرفان أغنية قديمة. طال الغناء... طار الغناء... وطار الما قبل والما بعد، رفرف فوق أعالي دمشق، تسربَلَ في عناقيد الأنوار العنيدة التي تنزل من أعالي قاسيون.

وضجّ السؤال: - «لماذا تلتهم الأنوار الأمكنة، وتمحو اتساعات المسافات لمصباح ديوجين؟».

قرع خطوهما ظل وحده يشعل سكون الليل وأوار السؤال، وروحين قابلين للامتلاء!.

-6-

- «سدّ!».

وسدّدا ذاكرتيهما نحو يوم اكتشاف أن مرور المنصوري (الأخْـوَت) لم يكن صدفة، ولم يكن مجرد محاولات لبعث الضحك والعبث في الأرواح الإسفنجية! فحين موته في كهفه الصخري في الجبل العالي، وجدوا، فقط، فراشاً عتيقاً مغطىً ببذلة عسكرية بالية، ووسادة من قبعة خبأ تحتها صورة امرأة مجهولة!.

انهمرت بينهما الذاكرة وفاضت، انغمرت بين ذراعيه، وهمست في أذنه:

- «كن وطناً.. حين يضيق الوطن».

ضمّها بقوة وهمس في أذنها:

- «كوني حياة . . حين تضيق الحياة» . وتابعا حيث يروح الخطو .

فجأة، توقفا . . كان هو، قادماً نحوهما، ودنا، دار حولهما، لم يكن معه حماره، لم يحييهما مثلما حيّا المدرّب العسكري ذات ذاكرة . توقف أمامهما، نظر في عيونهما، وطلب سيجارة . ابتسم الدمع على شفتيه أماناً، أشعل سيجارته، وعاد خطوتين للوراء، ثلاث . . أربع . . خمس . . ست ... سبع ... ارتفع الدخان، طار الدخان، ولا يزال يغوص في عودته، وجهه للأمام، وظهره لأمداء بعيدة العتمات! .

* * *

ابـــــداع

المفـاجـــأة

عبد العزيز الحمصي

١

يحكى أن عزيز نيسن عاد إلى الحياة، مرة ثانية، عام ٢٥٠٠ بعد الميلاد .. كانت قد مضت خمسة قرون على موته. وكان العالم قد تغير تغيراً عجبا. فقد سادت العدالة، والمساواة. واتلفت الأسلحة بمختلف أنواعها، النووية، والليزرية، والتقليدية من طائرات ودبابات وبنادق،

(*) عبد العزيز الحمصي: أديب وقاص من سورية، ينشر أعماله في الدوريات المحلية والعربية.

ومسدسات. لم يبق في الأسواق غير الأسلحة اللعبة التي لم يعد أحد، حتى الأطفال، يهتم بها.. تحول العالم، إلى قرية صغيرة اختفت الحروب، وصراع الطبقات، ومعها اختفت المنازل الإجتماعية لم يعد هناك غني أو فقير. واختفى الرأسمالي، ومعه اختفى الأجير صار الناس سواسية كأسنان المشط.. ولاحظ عزيز أن النظم الاستبدادية اختفت أيضاً. لم يعد هناك من يتصارع معهم، ولم يعد هناك انتهازيون أو وصوليون يفضحهم. لم يعد للرقابة وجود ونعمت الكلمات والأفكار بكامل حريتها، صارت طليقة تتجــول في كل مكان لم يعد أحد يحلم بالسعادة، لأن الإنسان يحلم بما هو بعيد المنال. وتحول العالم الصغير إلى جنة في الأرض.

واكتشف عزيز، أنه عاطل عن العمل، فراح يتجول في أنحاء الدنيا، علّه يجد مسألة يشغل نفسه بها. لكنه لسوء الحظ لم يعثر على شيء. فطوال تجواله، لم يسأله جمركي، أن يفتح حقيبته. ولم يطلب عسكري جواز سفره. ولم يقل له شرطي، ماذا قلت، وتعجل بلسانك الطــويل الذي يحتاج إلى قص..

في المطاعم الفخمة، يأكل حتى الشبع، ألذ المأكولات وأطيبــها. ينام في الفنادق الراقية، حيث يحظى بأفضل الخدمات، دون أن يطالبه أحد بفلس. أحياناً، كان يستحي فيمد يده إلى جيبه سائلاً عن التكاليف فيجاب. «لا... لا، يا عزيز، لقد تغيرت الدنيا، ونحن تغيرنا» وإذا ألح عزيز، يجاب أيضاً «خلاص، يا عزيز... عيب يا عزيز.. ألم يكن هذا حُلمك أنت نفسك؟» يخجل عزيز، ويهمس، نعم، نعم «إننا في الفردوس حقاً».

في الكباريه، كان يشير مجرد إشارة، إلى أجمل راقصة، أو أحلى مغنية فتأتيه راكضة.. تجلس في حجرة. بأصابعها الناعمة، تداعب شاربيه «تلحمس» عند شحمة أذنه. تدغدغ أماكن حساسة، وخطيرة من جسده..

ولما كان عزيز. في حياته الأولى، خجولاً بطبعه، كما تعلمون، فقد استمرت هذه العادة السيئة متأصلة فيه. كان يقول لها:

عيب.. يا بنت، نحن في محل عام.. الناس يرقبوننا.. عيب يا بنت» وكانت الفتاة تضحك بإعجاب شديد، مشوب ببعض السخرية من هذا الساذج العائد إلى الدنيا. بعد خمسة قرون، من الغياب الإلزامي. وتشير باصبعها السبابة، إشارة غامضة، يفهمها العمال..

وفي الحال، تمد طاولة فخمة، توزع عليها بعناية، قناني العرق اللبناني. والويسكي الاسكتلاندي، والبراندي الفرنسي، وتفرش أطباق المزه السورية، المعتبرة، مثل بذر الجبس، والقرع، ودوار الشمس، والقضامه المملحة. وما إلى ذلك. من أشكال.. طاولة، عظيمه لايستنفذها عدد من الرؤوس المشهود لها، بتخطي الأرقام القياسية تقرع الفتاة كأسها بكأس عزيز.. يشربان حتى يسكرا ويدوخا.

يستيقظ عزيز في الصباح، ليجد نفسه في سريره. والفتاة نائمة بقربه، ربي كما خلقتني. وهو مثلها ربي كما خلقتني.

لا يذكر عزيز شيئاً مما حدث بينهما في الوقت ما بين مائدة الكباريه ولحظة استيقاظه. وليس مهما أن يتذكر، فالحياة مستمرة بلا ذاكرة وكذلك التاريخ منسي، وغير مهم.

وتنطلق الفتاة، وينطلق معها عزيز، إلى شاطىء البحر. ويستقلان زورقاً ويمضيان في نزهة.

-٢-

مرت سنوات، وعزيز يحيا على هذا المنوال، وأخيراً أسأمه الكسل والرفه. وبدأ يحس بالتعب من حياة لا مبالية، ومن أيام متشابهة ليس فيها مفاجآت، ولا أحلام أو توقعات..

« لست معتاداً على صخب كسول كهذا» حدث نفسه .
وقال لها أيضاً : « إن شيئاً في داخلي قد مات» . . هذا ليس عالمي . .
أين الحياة الزاخرة بالشقاء؟ . . بالسعادة التي يحسها الإنسان، عندما يحقق هدفاً صغيراً؟ثم يجلس ليحلم بهدف صغير آخر؟ . . أين الصبوات الجريئة . . الصراعات التي تعطي للحياة زخماً ومعنى؟ . . أين خوفي؟ أين قلقي؟ أين أمنياتي؟ أين كل الأشياء النبيلة . . والمنحطة، التي تجعل منك موجوداً حياً؟ لا مجرد إنسان يعيش . . يأكل، ينام، يمارس الحب . . أين ذلك الشيء الذي لا يكون إلا بمخاطرة صغيرة؟ خوف . . ورهق . . وهرب، ومواجهات؟ أين عالمي؟ أين . . لم يعد هناك أسرار . . الأمور كلها مكشوفة وواضحة لكل الناس . . أنا نفسي عار للآخرين، عري شجرة في يوم خريفي . . ليس لي آمال . . ولا أشعر باليأس، أو الخيبة . كل شيء عبث لا طائل منه . وكل شيء باطل وقبض ريح» كم أحس بالإختناق وأنه عاجز عن تحديد مصير لنفسه، وقد اختزلت الحياة إلى صفر .

سمع داخله يصرخ، « أنا لم أعد أنا» مملكتي ليست من هذا العالم الذي دأبه التكرار . . والتكرار» . «يوم واحد يفي عن حياة أبدية» الأيام جميعها متشابهة، وكل شيء، يشبه كل شيء . ولا جديد تحت شمس هذا الفردوس العتيد .

في الليلة الأولى بعد الألف ليلة، سمع في القرية الصغيرة دوي هائل . خرج الناس من كل مكان يستطلعون الخبر ... وأصيبوا بالدهشة كان عزيز مضرجاً بدمه، وقد أطلق في رأسه رصاصة .

وظلوا زمناً يتساءلون . . « من أين جاء عزيز بالمسدس، والرصاصة؟» ثم نسوا الأمر . . وعادت الحياة إلى مجراها .

* * *

مكانة الدراسات الديموغرافية عند ابن خلدون

أحمد يوسف أبو راس

أولاً: توطئة:

اشتغل ابن خلدون بالسياسة والقضاء، واختص بالتاريخ والاجتماع، كما أنه تميز بميزة الأدب والبيان، وركز اهتمامه على مسائل العمران البشري، أي مسائل السكان (الديموغرافية). فعمل على دراسة طبائعهم

(*) أحمد يوسف أبو راس: باحث من سورية، استاذ محاضر في جامعة حلب، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية.

وأحوالهم وقضاياهم، وقسمهم إلى تجمعات سكانية بحيث كل مجموعة تختص في بقعة معينة من الأرض، وتنتج إنتاجاً معيناً حسب مايحتاجه أبناء تلك المناطق، فهناك أناس اهتموا بالزراعة، وآخرون بالصناعة، وأقوام اهتمت بتربية الإبل والأغنام. اعتمد ابن خلدون في هذا التقسيم على عوامل المناخ والتربة والهواء.

ومن العناية بمكان أن ابن خلدون تبنى المفهوم الديموغرافي، وأفرد له جُلّ اهتمامه واعتبره أداة من أدوات المنهج، من أجل التحقق من صحة الأخبار العددية الواردة في ذلك العصر لأن من صفات المنهج الخلدوني الشك والتمحيص، حيث يقول: «ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد.» [1] ولايفهم من هذا الكلام أن ابن خلدون شكاك، بل هو باحث ومدقق وناقد محقق، تميز بتفكير علمي أساسه الرجوع إلى الوقائع ذاتها موضوعياً وتجريبياً. هكذا نجد ابن خلدون الذي لم يكد يناهز العشرين من عمره، حتى اجتذبته الحياة الاجتماعية والسياسية، ويمكن توزيع حياة ابن خلدون على ثلاثة أطوار:

الطور الأول: طور نضال اجتماعي وسياسي، تأليف قضاه في تونس مدته ٢٤ سنة.

الطور الثاني: طور نضال اجتماعي وسياسي، تأليف تنقل فيه بين تونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس مدته ٢٦ سنة.

الطور الثالث: وهو الطور الأخير من حياته، حيث قام به في القاهرة وزار الحجاز والشام ومدته ٢٤ سنة. شغل فيه بالتدريس والقضاء وتنقيح كتابه العبر.

لم يدرس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية بشكل فرادى، وإنما يرجعها إلى عللها الأصلية، ويدرس علاقاتها مع الظوهر الأخرى،

١ - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٧.

وخاصة مع الظواهر التي من طينتها، كما فعل عندما ربط السكان بقضايا التنمية، حيث اهتم بدراسة الموارد المادية (الاقتصادية) من فلاحة وصناعة وبناء . . . ومشدداً بذلك على العمل، معتبراً إياه ميزة الإنسان الراغب بالعيش، وبدون العمل تفقد الحياة معناها.

ثانياً: مولد ابن خلدون ونشأته:

ولد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون في تونس ١٣٣٢م/ ٧٣٢هـ وتوفي في القاهرة سنة ١٤٠٦م/ ٨٠٨هـ وكان إبن أسرة أندلسية دخلت الأندلس بعد الفتح، واستوطنت قرمونة ثم انتقلت إلى اشبيلية، ومن ثم إلى سبتة ومنها إلى تونس حيث ولد وترعرع على حب الرئاستين: رئاسة السلطان ورئاسة القلم «تعهده والده الصباء بالتعليم فحفظ القرآن، ووضعه في جامع الزيتونة الشهير، حيث درس الحديث والفقه والنحو وقرأ الكثير من كتب الأدب والشعر، ثم انتقل إلى علوم المنطق والفلسفة. وما إن بلغ الثامنة عشرة من عمره حتى نكبت البلاد بوباء الطاعون الذي أهلك من الناس خلقاً كثيراً وأودى بأبويه ومعظم مشايخه»[٢].

وفي هذا الصدد يقول العلامة ابن خلدون: «ذهب الأعيان والصدور، وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله»[٣]. فتألم كثيراً وتأثر بما وقع عليه من مصائب، إلا أنه صبر وتابع مسيرته العلمية والسياسية، ومن بعد ذلك عزم على السفر إلى المغرب الأقصى للالتحاق بمن تبقى من مشايخه، واستقر في فاس فترة من الزمن وكان في تلك الأثناء يواصل دراسته على يد جماعة من كبار العلماء، وأراد ابن خلدون هناك أن يتآمر على صاحب الملك مع الأمير الحفصي (محمد بن عبد الله صاحب بجاية.) إلا أن المؤامرة فشلت. «رفعته أمواج السياسة حتى جعلته

٢ - نجوى قصاب حسن، الفكر الاجتماعي عند العرب، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ١٩٨٢، ص١٥٤.

٣ - نجوى قصاب حسن، المرجع السابق، ص١٥٤.

حاجباً [أي وزيراً] ثم خفضته حين اتهم بالتآمر مع السلطان أبي عنان، فسجن نحو واحد وعشرين شهراً»[٤]. ورحل بعدئذ ابن خلدون إلى الأندلس فلقي هناك الترحيب والاستقرار ومكث هناك حتى سنة / ١٣٦٤م/ حيث استأذن السلطان في الرجوع إلى بجاية وهناك استقبله أمير البلاد، «وولاه أرفع منصب في دولته وتسلم منصب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لايشاركه في ذلك أحد. إلا أنه لم يستقر هناك سوى سنة واحدة وفرّ ابن خلدون إلى بسكرة لصداقة بينه وبين أميرها واستقر هناك ست سنوات وانتقل بعدها إلى فاس فلم يلق إلا اضطراباً، فعزم أن يرحل مرة أخرى إلى الأندلس فرحل وأتى غرناطة، ولكن حكام المغرب ألحوا على صاحب غرناطة بإرجاعه إلى المغرب، وذلك خشية منهم أن يعمل على تقطيع عرى الصداقة القائمة بينهم وبين بني الأحمر، فعاد ابن خلدون وطلب العزلة في (قلعة ابن سلامة)، وكان ذلك في سنة ١٣٧٤م.

تحدث ابن خلدون قائلاً في مقدمته المشهورة: ((أقمت بها «أي قلعة بن سلامة» متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة المشهورة التي هي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.)) [٥] وأنهاها في نحو خمسة أشهر.

بعد أربعة أعوام قضاها في خلوته، يفكر ويتأمل ويكتب، عزم على الرحيل إلى تونس فاستأذن في ذلك سلطانها فأذن له، وعندما وصل إلى تونس رحب به سلطانها ترحيباً حاراً، ومكث بها فترة من الزمن، وغادر فيما بعد إلى مصر سنة/ ١٣٨٣م/ وفي تلك الأثناء قام برحلات مختلفة إلى الحجاز والقدس.

---

٤ – عبد الكريم اليافي، ابن خلدون ومنهجه العلمي في البحث مع المقارنة بالمؤرخ الفرنسي الحديث فرنان بردويل، مجلة التراث العربي، العدد٤٧، ١٩٩٢، ص٨.

٥ – عبد الكريم اليافي، المرجع السابق، ص٩.

وفي سنة ١٤٠٠م/ ٨٠٢هـ غزا (تيمور لنك) سورية، فهب سلطان مصر (فرج بن برقوق) بجيشه لمحاربة الفاتح المغولي، واصطحب معه مجموعة من العلماء ومن بينهم ابن خلدون ((وبعد أن شدد «تيمور لنك» الحصار على دمشق، صمم ابن خلدون وبعض رفقائه على الهرب من المدينة ليلاً فوقعوا في أيدي الجواسيس المغول، فاقتادهم هؤلاء إلى «تيمور لنك»، وقد أعجب القائد بابن خلدون وطلب إليه أن يدخل في خدمته فتظاهر ابن خلدون بالقبول، على أن يذهب إلى مصر لإحضار مكتبته، فأذن له بذلك، وبعد أيام قليلة دخلت جيوش تيمور لنك دمشق وأحدثت فيها أكبر مجزرة عرفها التاريخ.))[٦].

عاش ابن خلدون بعد ذلك في القاهرة، يقضي بالمذهب المالكي حتى توفاه الله سنة ١٤٠٦م/ ٨٠٨هـ فابن خلدون قضى حياته مابين السفر والترحال من جهة، ومن جهة ثانية التبحر في العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وله من المؤلفات مايصلح لكل زمان ومكان، (ففي فترة الشباب ألف كتابه «لباب المحصل»، ملخصات في المنطق، ملخصات في الحساب، ولخص مؤلفات ابن رشد كلها، وبعض تأليف ابن عربي؛ كما أنه استمر في التأليف حيث ألف كتاب «شفاء السائل في تهذيب المسائل»، وثلاثيته الكبيرة المسماة المقدمة والتاريخ والتعريف)[٧]. كما أن له مجموعة من الرسائل إلى معارفه وأصدقائه، نظمها في كتاب «التعريف بابن خلدون».

فابن خلدون المفكر والمحلل والناقد والمرشد والرحالة قدم نظريات علمية صبَّ جهده من أجل وضع تعاليم وأسس للأجيال الصاعدة، يجعلونها منطلقهم وغايتهم في الحياة حيث فسر طبائع البشر وأحوال

٦ - نجوى قصاب حسن، المرجع السابق، ١٩٨٢، ص١٥٩.

٧ - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، اختار النصوص وحققها وقدم لها: سهيل عثمان، محمد درويش؛ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨، ص٣٥.

العمران، وعلاقة السكان بالحضارة، وأهمية التخطيط للأعداد السكانية القادمة. . وغيرها من مسائل تنموية تهم مستقبل البشرية.

ثالثاً: التعريف بعلم السكان (الديموغرافية) من منظور ابن خلدون:

يعرف القاموس الديموغرافي الذي أصدرته الأمم المتحدة اصطلاح الديموغرافيا بأنه «الدراسة العلمية للسكان البشري والتي تدور حول حجمه وتركيبه وتطوره»[٨]. كما يعني علماء السكان المعاصرون بكلمة ديموغرافيا دراسة جميع الظواهر المتعلقة بالسكان من ولادات ووفيات وهجرة وزواج.

كما دأب معظم الباحثين المحدثين أن يطلقوا على الدراسات المتعلقة بعدد السكان لفظ الديموغرافية، ومن المحتمل أن أول من استعمل هذا المصطلح الباحث الفرنسي «أشيل غيار»(ACHILLE GUILLARD) سنة ١٨٥٥ في كتابه (مبادئ الإحصاء البشري) أو (الموازنة في الديموغرافية)[٩] ومن الواضح أن لفظ ديموغرافيا يتألف من شكلين يونانيين:

DEMOS ومعناه الشعب و GRAPHEIN معناه الوصف.

كما أن لهذا العلم تسميات عدة مثل (ديولوجيا والمورفووجيا الديموغرافية) والإحصاء الحيوي إلا أنها تسميات متنوعة لموضوع واحد وهو دراسة أحوال السكان وطبائعهم وظروفهم المعاشية وأعدادهم وكثافتهم السكانية، من أجل وضع خطة تنموية تقوم على استيعاب هذه الطاقة البشرية، وتأمين مستلزماتها المعاشية. من خلال العمل على تحقيق التوازن

---

٨ - دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١، ص١٧.

٩ - عبد الكريم اليافي، في علم السكان، مباحث في المورفولوجيا الاجتماعية، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥١، ص٥.

في المعادلة السكانية بين القوت من جهة، وبين أعداد السكان من جهة ثانية. فمن هنا تجلى اهتمام العالم ابن خلدون بهذا العلم حيث يعقد فصلاً «في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها، ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة»[١٠]. ومن الضروري أن نفهم هنا معنى تفاضل العمران ومعناها التفاوت في عدد السكان من حيث الزيادة والنقصان. فابن خلدون ارتأى بمنظاره الثاقب، أن إنشاء علم يختص بدراسة أحوال السكان وظروفهم المعاشية، ضرورة من أجل التخطيط للسكان ولكي لايحصل خلل في طرفي المعادلة السكانية، القوت من جهة وعدد السكان من جهة ثانية، فأي خلل في إحداهما يؤدي إلى الاضطراب والفوضى في المجتمع، ويقول ابن خلدون في هذا السياق (السبب في ذلك «أي تفاضل الأمصار والمدن لتفاضل عمرانها» إنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً، فالقوت من الحنطة مثلاً لايستقل الواحد تحصيل حصته منه، إذا انتدبت لتحصيل الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل، وسائر مؤن الفلح وتوزعهم على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لإضعافهم مرات، فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين، وضروراتهم، فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال، وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات

١٠ - ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص٣٦٠.

فتصرف في حالات الترف وعوائده، ومايحتاج إليه من أهل الأمصار، ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظٌ من الغنى.)[١١].

مماسبق نخلص أن ابن خلدون العالم السكاني أراد أن يقول شيئاً جديداً في هذا المضمار وهو تقسيم العمل، وتنوع المهن من أجل سد كفاف البشر من جهة، ومن جهة ثانية تصدير الفائض من أجل جلب المنفعة المادية، والحصول على الترف والرفاهية، وفي هذا العدد يكون من المنظرين الأوائل في ميدان علم الاقتصاد، ناهيك عن كونه قدم دروساً وعبراً تتعلق في الاقتصاد. لكن من الصعب بمكان التحدث هنا عن هذا الجانب، لأنه سيطول بنا الشرح كثيراً لكنني ارتأيت من الأهمية التحدث بشيء ما عن الحياة الاقتصادية من المنظور الخلدوني لعلاقتها الوطيدة مع التنمية البشرية «السكان». ومن الملفت للنظر أن نظرة ابن خلدون كانت تنظر إلى الاقتصاد في سياقه الاجتماعي، حيث اتضح أن نمو الأعمال واختلافها تابعان لنمو العمران وتنوعه.

رابعاً: أهمية السكان في المجتمع من المنظور الخلدوني:

يرسم ابن خلدون الخطوط الأساسية للقضايا الديموغرافية، حيث يرصد بعمق أهمية زيادة السكان، لأنه ستحصل منافسة بين أفراد السكان، وهذه المنافسة ستنتهي الغلبة فيها للأكفأ والأجدر، وبالتالي الحصول على عمال مهرة متخصصين أكثر مماهو الحال في التجمعات السكانية القليلة، الذين يرضون بالقليل، ويعيشون حياة ملؤها البساطة، وندرة التعقيدات ولاينشغلون بقضايا العلم والتطور والوصول إلى الحضارة.

إن كثرة السكان مقترنة بكثرة العمران وبزيادة الإنتاج ووفرة الكسب، وبلوغ الرفاهية وكذلك بالتفنن في الصنائع، والتعمق في العلوم وقلة

١١ - ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص٣٦٠.

السكان في المقابل يتبعها الفقر والعوز . إضافة إلى ذلك يربط ابن خلدون وفرة العلوم وتنوعها بكثرة السكان فيعقد فصلاً في أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران ومن ثم تفضي إلى الحضارة «أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف ، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش من التصرف في خاصية الإنسان ، وهي العلوم والصنائع ومن تشوق بفطرته إلى العلم ، فمن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلايجد فيها التعليم الذي هو صناعي ففقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ، ولابد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها ، واعتبر ماقررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، لما كثر عمرانها صدر الإسلام ، واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم ، وأصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين ، وفاقوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعلم وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام»[١٢]

تبين لنا من هذا الكلام أن ابن خلدون يعير السكان أهمية عظيمة ولعله يقول إن العلاقة بين زيادة السكان من طرف وزيادة الانتاج ووفرة الكسب وحصول الرفاهية والترف والتفنن في الصنائع والاستبحار بالعلوم من طرف آخر ، هي علاقة طردية ، في الوقت نفسه إن قلة السكان يتبعها الإفتقار في التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي إذاً الاقتصاد مرتبط عند ابن خلدون بزيادة السكان .

١٢ – ابن خلدون ، مصدر سابق ، ١٩٩٢ ، ص٤٣٤ .

عمل ابن خلدون على تقسيم السكان وفق طبيعة الانتاج، أي هناك سكان مدينين يسكنون المدن، وتحتل الدرجة الأولى في تقسيمه ثم يليها حياة المزارعين المنتشرين في الأراضي المنبسطة وفي الجبال، ثم البدو الرحل. ويميز من يهتم منهم بالثور والخروف مثل البرابرة والأتراك والتركمان، ومن يهتم بالجمل مثل العرب والبرابرة والرحل والأكراد.

إن أعظم مايلفت انتباهنا في أهمية الديموغرافيا عند ابن خلدون هو الاعتماد عليها بالتحقق من صحة الأخبار الواردة من الغير، ولاسيما أعداد الجيوش والتحقق من السلالات والأنساب وجل مانجده بؤرة اهتمام ابن خلدون بالديموغرافيا في نقده لرواية(المسعودي)من أن(موسى) عليه السلام أحصى من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف ويزيدون، سيما وأن المسعودي نفسه يذكر في روايته أنهم دخلوا مصر مع أولادهم حين ((أتوا إلى «يوسف» سبعين نفساً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا منها مع «موسى» عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة))[١٣]

نجد أن ابن خلدون يستبعد النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد كما أنه مستبعد حتى ولو أنه تم في عهد «سليمان»[١٤] ويعرض لنا الأسباب في ذلك وهي كالتالي:

١ - هذا الخبر مستبعد لسبب مكاني وهو ضيق تلك المنطقة لمثل هؤلاء العدد من الجيوش، لأن لكل منطقة جغرافية طاقة محدودة من عدد الجيوش.

---

١٣ - عبد الكريم اليافي، التفكير الاجتماعي عند العرب، مذكرات الطلبة السنة الثالثة، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٠، ص٨٤.

١٤ - محمد صفوح الأخرس، علم الاجتماع، الطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٤، ص٥٣.

((يذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها لمثل هذا العدد من الجيوش، لكل مملكة من الممالك حصة من الحماية تتسع لها وتقوم بوظائفها، وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة.))[١٥] فلايتلاءم هذا العدد من الرقعة في الأرض التي وجد عليها.

٢ - لأسباب جغرافية طبوغرافية((يندر أن يقع بين هذه الجيوش الكبيرة زحف أو قتال لضيق مساحة الأرض عنها وبعدها عن مدى البصر مرتين أو ثلاثة، فكيف يقتتل هذان الفريقان؟ أن تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لايشعر بالآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.))[١٦].

٣ - استحالة تشعب النسل إلى هذا العدد في ٢٢٠ عاماً «أربعة أجيال».

((فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ماذكره المحققون، فإنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت (بفتح الهاء وكسرها) ابن لاوي(بكسر الواو وفتحها) ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبه في التوراة.. ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده.))[١٧]

يعلل المفكر ابن خلدون أسباب هذه المبالغة في زيادة عدد العسكر قائلاً: ((وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات

١٥ - ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص١٠.
١٦ - ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص١٠.
١٧ - ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص١٣.

المترفين، وبضائع الأغنياء الموسرين، توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الأغراب.))[١٨].

مماسبق نستنتج أن ابن خلدون استخدم قواعد منهجية مثل تفنيد الظاهرة وتفريعها وإرجاعها إلى الطينة الاجتماعية التي نبتت منها والإطار الذي كان يضمها أي في سياقها التاريخي، ومن ثم تحليلها وقياسها مع الظواهر الأخرى من أجل منطق المقارنة مستخدماً أصول الأنساب والأرقام العددية لكي تكون عملية التحقق من صحة مايقال قائمة على أساس علمي مدعمة بالأرقام والتواريخ. وهذا ليس بغريب عن المفكر العلاّمة ابن خلدون الذي نظر وخطط لأجيال متعاقبة ولحضارات آتية.

خامساً: العلاقة بين السكان والاقتصاد من المنظور الخلدوني:

يربط ابن خلدون السكان بالموارد الاقتصادية وطبيعة المناخ، حيث قسم كل إقليم أو منطقة معينة إلى نوع معين من الانتاج والمهن المحددة، فهناك المناطق الصحراوية والمناطق الساحلية والمناطق الزراعية، وكل إقليم من هذه الأقاليم أو المناطق يقوم بإنتاج نوع معين من السلع فمثلاً المناطق الزراعية حيث تنتج السلع الزراعية والمناطق الصحراوية تهتم بتربية الأغنام والإبل، والمناطق الجبيلة الوعرة حيث الوديان والتلال. فتلك ميزة تخدم الجند ((لأن الشعوب القاطنة في الأراضي القاحلة، حيث تكتسب صفات عسكرية ظاهرة البأس والقوة وتكون دائمة الاستعداد للانقضاض على سكان المدن الذين ألفوا حياة الترف والخمول.))[١٩]

تبدو المسائل الاقتصادية في فلسفة ابن خلدون تأخذ طابع الحتمية أي تظهر بمظهر الثبات، فالحياة الاقتصادية لاتتبدل ((وذلك يعود إلى أن اختبارات ابن خلدون الشخصية لم تظهر له تبدلات وتطورات ذات

---

١٨ - ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص١١.

١٩ - نجوى قصاب حسن، مرجع سابق، ١٩٨٢، ١٧٥.

أهمية في الحقل الاقتصادي، والتغيرات التي عرفها كانت نتيجة التقلبات السياسية. وعندما تنتقل مثلاً قبيلة من طور البداوة إلى طور الحضارة تأخذ في استثمار الأرض وانشاء البساتين وتتبدل طرق معيشتها، ومن ثم لايحدث تغير في طبيعة الحياة الاقتصادية بل في الأشخاص))[٢٠].

ومن المحتمل أن هذا القول يعود إلى إيمان ابن خلدون بالقضاء والقدر، (ماهو مكتوب ليس منه مهروب) فالغنى والفقر يعودان إلى ما هو متاح في الإقليم من سلع وعدد سكان، فالإقليم الذي يحوي عدد سكان كبير، يكثر من إنتاجه ويؤدي إلى غنى سكانه والعكس صحيح ولعل ابن خلدون يود القول بأن كل منطقة تختص بتربة ومناخ وموقع لايمكن أن تتغير. فهذا يعني أيضاً الموارد الاقتصادية التي تنتج من تلك المنطقة هي محددة ومعينة والذي يتغير فقط من يقوم على خلق هذا الإنتاج، وهم الساكنون (أي البشر).

تتجلى العلاقة الوطيدة من منظور ابن خلدون مابين الاقتصاد والسكان من خلال التعاون الاقتصادي(أي تكامل العملية الإنتاجية) وهذا يتجلى من خلال العمل فأعطى دوراً كبيراً للعمل، واعتبر العمل ضرورياً جداً من أجل الاستمرار في الحياة وخلق الحضارة.

قال ابن خلدون: ((إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية بمادة حياته منه، . فلابد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة أكثر منهم بأضعاف.))[٢١].

تظهر أهمية العمل في الحضارة فالأمصار ذات العدد الكبير، حيث المهن المتنوعة والمتعددة ومجالات العمل كثيرة حيث تظهر الحضارة بعكس

٢٠ – نجوى قصاب، مرجع سابق، ١٧٦.
٢١– ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢، ص٤٢.

الأمصار ذات السكان القليل فلم تجد حضارة إنما يتميزون بالقناعة بما هو متوفر، ولم يكن عندهم طموح يذكر في خلق حضارة على غرار حضارة الأمصار ذات السكان الكثيرين، فأعمالهم أي(الأمصار ذات السكان القليل) مقتصرة على تحصيل القوت اليومي فقط، ولايهتمون بمسائل الترف والرفاهية فابن خلدون يرى: ((أن كسب الرزق يقوم على عمل الإنسان وسعيه، ومادور الطبيعة بما تحويه من مصادر وثروات إلا مجالاً للعمل الإنساني، فالعمل هو قوام الحياة الاقتصادية، والازدهار الاقتصادي لايكون إلا نتيجة لتواتر قوة العمل.))[٢٢].

فالمجتمع الإنساني ينمو ويتقدم من اجتماع أبنائه وتعاونهم من خلال المجهود الإنساني الذي يبذلونه من أجل خلق اقتصاد متين يفضي إلى حضارة معينة ينعم بها أبناؤها إلا أن هذا التقدم والوصول إلى الحضارة والترف والرفاهية لم يستمر فلابد أن يزول ويذبل، وتظهر حركة أخرى تنمو على أنقاض تلك الحضارة البائدة، وتنمو من جديد حضارة جديدة ((هكذا ينشأ المجتمع بحكم ضرورة التعاون ويتنوع بتأثير الإقليم والموقع والمناخ وتقسيم العمل والإنتاج ويتطور تبعاً لقاموس الاحتكاك والتقليد وحب التوسع ثم يبدأ انهياره من حيث يبلغ كماله ويقوم على أنقاضه مجتمع جديد.))[٢٣].

مما سبق نستنتج أن أفكار ابن خلدون الاقتصادية موضوعية وواقعية ويدخل مسائل الحتمية إليها، ويجعل قوام الحضارة والانتعاش والتجدد قائماً على العمل، فاجتماع البشر وتعاونهم فيما بينهم يستطيعون التوصل إلى قمة الحضارة بوساطة العمل.

وهذا ما نجده في الأمصار ذات السكان الكثير والذين لا يعرفون للتقاعس مكاناً بعكس الأمصار ذات السكان القليل حيث يكتفون

---

٢٢ - سليم بركات، فلسفة الحضارة والتاريخ، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٩٠، ٢٦٥.

٢٣ - نايف بلوز، تاريخ الفكر الاجتماعي، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٧٨، ص٤٠.

بالضروريات والحد الأدنى من المعيشة إلا أنه (ابن خلدون) يتابـع قائلاً: بأن العمل والذي يفضي إلى حضارة متقدمة ستصل إلى الذروة مما يؤدي إلى تدهورها وانهيارها وربما يعود هذا إلى الفساد الأخلاقي في الترف والبذخ ومما يجعل خلق حضارة جديدة على أنقاض الحضارة القديمة. كما أن العلاقة ما بين السكان والموارد الاقتصادية تقوم أساساً على العمل الجماعي والتكامل في العملية الانتاجية الزراعية والصناعية.

الخاتمة:

حقيقة كل ما كتبه ابن خلدون لم يكن من الخيال إنما من واقع عاشه، وعانى منه وفكرفيه، من خلال تجواله وسفره غرباً وشرقاً فتجاربه المتنوعة في السياسة والاقتصاد والتاريخ والسكان والاجتماع مبنية على أساس علمي واقعي موضوعي، حيث فكر بأحوال وطبائع البشر وظروفهم فكتب ما هو كائن وما يجب أن يكون، مكرساً وقته للعلم، فمنذ صغره تعلم وتدرب على يد أساتذة كبار، وعندما شب ودخل معترك الحياة العلمية أشاد نظريات علمية تنورت بنورها أجيال متعاقبة. إن مواضيع وفصول ما كتب ابن خلدون من أبحاث ونظريات من الصعب الإلمام بها، إلا أنني حاولت أن أمسك بطرف من حياته العلمية وبشكل خاص ما كتبه في مجال علم السكان «الديموغرافية»، وما أهمية هذا العلم عنده كما لاحظنا أفرد له جانبا هاماً من وقته وخاصة من أجل التحقق والتمحيص في الأعداد والأنساب والتواريخ إضافة إلى ربطه السكان بالحضارة من جهة، وربطه السكان بالاقتصاد من جهة ثانية حيث أفرد جانباً هاماً للعمل الجماعي، لما للعمل الجماعي من أهمية في خلق الحضارة والعيش برفاهية واعتمد في منهجه على النقد والتشخيص والتفنيد والشك من أجل التحقق من صحة الأخبار وخاصة التي يتعلق بها عدد السكان، هذا ما جعل الكثير من العلماء الأجانب والعرب ينبهرون بابتكاراته وانتباهاته التاريخية ومنهجه العلمي، وقواعده العلمية، ومن أبرز المؤرخين الأجانب الذي أعجبوا بابن خلدون المؤرخ الانكليزي (توينبي Toynbee) يقول عندنا (أي ابن خلدون) أفضل

بكثير وأعمق من (جون غرنت John Grant) الذي تنسب إليه الريادة في علم السكان.» ٢٤.

وأرجو أن يكون إعجابي بهذا المؤلف والمفكر البارع (ابن خلدون) قادني إلى إعطائه حقه. وأن أكون قد وفقت في تقديم هذا العمل العلمي المتواضع لأخواني المهتمين بالعلامة ابن خلدون.

قائمة بأسماء المراجع المعتمدة

١- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دا القلم، بيروت، ١٩٩٢.

٢- نجوى قصاب حسن، الفكر الاجتماعي عند العرب، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق ١٩٨٢.

٣- نجوى قصاب حسن، المرجع السابق.

٤- عبد الكريم اليافي، ابن خلدون ومنهجه العلمي في البحث مع بعض المقارنة بالمؤرخ الفرنسي الحديث فرنان بروديل، مجلة التراث العربي، العدد٤٧، ١٩٩٢.

٥- عبد الكريم اليافي المرجع السابق.

٦- نجوى قصاب حسن، المرجع السابق، ١٩٨٢.

٧- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، اختار النصوص وحققها وقدم لها: سهيل عثمان، محمد درويش، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨.

٨- دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة: إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.

٩- عبد الكريم اليافي، في علم السكان: مباحث في المورفولوجيا الاجتماعية، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥١.

١٠- ابن خلدون مصدر سابق، ١٩٩٢.

١١- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢.

٢٤ - عبد الكريم اليافي، مرجع سابق، ١٩٩٢، ص٢٣.

١٢- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢ .
١٣- عبد الكريم اليافـي، التفكيـر الاجتمـاعي عنـد العرب، مذكرات لطلبة السنة الثالثة، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٠ .
١٤- محمد صفوح الأخرس، علم الاجتماع، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٤ .
١٥- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢ .
١٦- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢ .
١٧- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢ .
١٨- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢ .
١٩- نجوى قصاب حسن، مرجع سابق، ١٩٨٢ .
٢٠- نجوى قصاب حسن، مرجع سابق .
٢١- ابن خلدون، مصدر سابق، ١٩٩٢ .
٢٢- سليم بركات، فلسفة الحضارة والتاريخ، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٩٠ .
٢٣- نايف بلوز، تاريخ الفكر الاجتماعي، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٧ .
٢٤- عبد الكريم اليافي، مرجع سابق، ١٩٩٢ .

* * *

الأدب المقارن والتواصل الثقافي بين الشعوب واللغات

جهينة علي حسن

يعـرَف الأدب المقـارن بأنـه ذلك العلـم الذي يدرس مواطن التلاقي بين الآداب، في لغاتها المختلفة، سواء كان هذا التلاقي في الأصول العامة، أو في الأجناس الأدبية، أو الموضوعات، أو النماذج البشرية، أو الصور والأفكار، ونحوها، ثم يبين ما حدث في هذا التلاقي من تأثير أو تأثر، وما مقدار ذلك التأثير أو التأثر وما مظاهره (1).

* جهينة علي حسن: باحثة ومترجمة من سورية، تنشر في الدوريات المحلية والعربية.

وهذا هو المفهوم السائد منذ ظهور الأدب المقارن علماً مستقلاً في القرن التاسع عشر الميلادي، ويكاد يكون مسيطراً على الدراسات المقارنة حتى وقتنا الحاضر. إلاّ أن الأمريكيين يوسعون هذا المفهوم محاولين التخلص من شرطي اختلاف اللغة، والصلة التاريخية (التأثير والتأثر) ويحلّون اختلاف الجنس والبيئة مكان اختلاف اللغة، ووحدة الموضوع أو القراءة السياقية أو التشابه بين الأنماط مكان الصلة التاريخية [٢].

وبينما يرى الفرنسيون أن موضوع الأدب المقارن أدبي تاريخي، نجد أن الأمريكيين يوسعون أمر المقارنة لتصبح عامة بين الأدب ومختلف الفنون والعلوم الانسانية الأخرى، كالغناء -مثلاً- وهذا الرأي على وجاهته وفائدته غير ممكن بسبب ما يحيط به من الصعوبة في الاحاطة بكل الفنون في لغاتها المختلفة [٣].

ولم يدخل الأدب المقارن كمادة دراسية إلى الجامعات العربية إلاّ متأخراً، لكنه ظل علماً غربياً جديداً، فقد بدأ تدريجياً في مصر في كلية دار العلوم عام ١٩٣٨، ولكنها بداية غير منهجية، دون أسس علمية، ولم يتوفر له الاطار المنهجي إلاّ مع بداية الخمسينات من القرن العشرين. وظلت الدراسة متركزة على المنهج التاريخي الفرنسي، دون التعرّض لغيره من المناهج إلاّ في النادر [٤]. ونحن نرى اليوم التوسع والاهتمام الكبير بدراسة الأدب المقارن لما فيه من الخدمة والفائدة للباحثين والدارسين، فهو يخرج بالأدب القومي من اطاره المحدود المنغلق إلى آفاق رحبة، وطرق غريبة توسع دائرته، وتفيده، وتجعله يعالج نقصه، ويسدّ فجوات التأخر فيه، ثم يدخله مرحلة تفاهم وتبادل مع الآداب الأخرى. ولكن هذا كله مشروط بألاّ تذوب شخصية الأدب القومية، ويفقد أصالته وأسباب بقائه وتفرّده عن غيره. ومجالات الأدب كثيرة ومتعددّة، تبعاً لتعدد وسائل عبور الاستعارات الأدبية بين الأمم، وحالات التأثر ومقدارها، بالإضافة إلى القضايا والأفكار والموضوعات المنقولة وأهميتها، وهذه المجالات يمكن

تسميتها ميادين الأدب المقارن، أو اختصاصاته، أو فروعه، أو حقوقه . . وكل هذه التسميات مفهومها واحد يتجه إلى القضايا والموضوعات التي يدرسها الأدب المقارن، ولايدخل معه غيره فيها.

مجالات الأدب المقارن :

لم نجد تقسيماً محدّداً للموضوعات الرئيسية التي يدرسها الأدب المقارن، فبعض الكتب فصّل وقسّم، وبعضها أجمل، وأدخل الأجزاء بعضها في بعض، واقتصر على العناوين المهمة [٥]، والدراسة في الأغلب الأعمّ تدور حول محاور ثلاثة، هي: المرسل والوسيط والآخذ (المتلقي) . .

أ- **المرسل**: هو الأدب الأجنبي الذي انتقلت منه الظاهرة الأدبية [٦]، فيدرس المقارن مدى تأثير هذه الظاهرة، هل هو أدب كامل؟ أم في مجموعة آداب؟ وهل التأثر بكل ما في الأدب الأجنبي؟ أم أنه تأثر بأديب ما؟ ويجب التركيز على مقدار التركيز ونوعه، أهو - مثلاً - في اللغة؟ أم في القوالب الفنية؟ أم في النظريات والأفكار؟ ونحوها . .

ب- **الوسيلة**: هي الطريقة التي وصل بها الأدب المؤثر (المرسل) إلى الأدب المتأثر (المتلقي)، وهي إما كتاب، وإما مؤلف، وسنعرض لها بشيء من البسط لاحقاً.

جـ- **الآخذ (المتلقي)**: وهو الأدب القومي الذي استقبل الظاهرة، أو التأثير الأدبي مهما كان نوعه، فيدرس الباحث هنا كيف كان التأثر؟ وفي أي شيء، هل هو في جنس أدبي؟ أم مذهب؟ أو موضوع أدبي؟ وهل المتأثر أديب واحد؟ أم مجموعة؟ . . والمهم أن يقف المقارن على الاضافة التي أضافها المتلقي إلى الظاهرة الأدبية، وكيف تعامل مع هذا القادم الجديد، وهل استفاد من تأثره؟ أم أنه أدب مقلّد لم يتجاوز حدّ النقل الحرفي؟

وهنا يجب أن ننبّه إلى أنه كان هناك فخر للأدب المعطى، فلا عار على الآخذ والمتلقي، وإنما له الفخر في الفهم والهضم والإضافة.. فالأدب الانساني وحدة كاملة يكمل بعضها بعضاً [٧].

ونقسم المجالات التي يطرقها الأدب المقارن في ضوء المحاور الثلاثة تقسيماً جديداً فيه شيء من التفصيل والتمثيل، وسنعتمد تقسيم الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن» [٨] لما نرى فيه من التعدّد والشمولية، وسنضيف إليه بعض التفاصيل في الجزئيات المختلفة.

- أولاً: عوامل انتقال الأدب من أمة إلى أمة:

هذه العوامل تتمثل في الكتب والمؤلفين (الأدباء)، التي سمّيناها آنفاً الوسيط، وحقاً هي وسيط بين الآداب لولاه لما حصل اتصال بين الأمم، ولما كان هناك تأثير أو تأثر..

أ- **الكتب**: لها أكبر الأثر في نقل الأدب خارج نطاقه القومي إلى العالمية، ويركز فيها على وجود الصلة التاريخية، وهي أنواع كثيرة، منها الروائع الأدبية كالقصص والروايات والملاحم العالمية، التي تنتقل من لغة إلى لغة، ومنها كتب الدراسات الأدبية، التي تتناول أدباء أجانب، وتبيّن مناهجهم وأساليبهم، ومنها كتب الرحلات التي يصف فيها الكاتب البلاد الأجنبية، وأدبها ومظاهر حضارتها بلغة قومية، ومنها الكتب المترجمة ومعرفة رواجها من لغة إلى لغة، وقد كانت السبب الأول والمباشر في معرفتنا نحن العرب بروائع شكسبير، وفيكتور هوغو، وغيرهما من المبدعين العالميين. ولكن يجب عند دراسة الترجمة التأكد من الأصل في لغة الأم، والمقارنة بين الترجمات المختلفة للموضوع الواحد، حتى نتبيّن المنطق والموضوعية في كل منها: الصحف العربية القديمة التي كانت تعرّف بأشهر النقاد الأجانب كصحيفة «البلاغ» و«المجلة» و«الآداب» وسواها.

فالكتب على اختلافها، وما تحمله من تأثير وتأثر بالآداب الأجنبية، هي المصدر الأكبر لدراسة الأدب المقارن، وأهم ميادينه، ونقطة انطلاقه، ويستطيع الباحث المقارن معرفة تأثير الكتاب عن طريق دراسته لانتشار ذلك الكتاب في البلد الذي يدرس تأثيره فيه مستعيناً بفهارس دور الكتب وإحصاءات الطباعة والتوزيع (٩).

ب- **المؤلفون**: تحدثنا عن الكتب وهي لابدّ لها من مؤلف، والتأثر في الكتاب لايمكن إلاّ بعد تأثر الكاتب نفسه، وبعض المؤلفين يكون تأثره ظاهراً، عندما يتكلم ويؤلف باللغتين المتأثر بهما، مثل: ابن المقفع الذي كان يقصّ بالفارسية والعربية في مسجد البصرة، والشاعر الانكليزي أوسكار وايلد الذي ألفّ قصة «سالوميه» بالفرنسية (١٠)، ولكن بعض الكتاب المشهورين قد تخفي بعض نقاط اتصالهم بالآداب الأخرى، فيجب حينئذ على المقارن أن يدرس صلاتهم تلك عن طريق تتبع جزئيات حياتهم ورحلاتهم، لاستخراج نقاط التأثر بالأدب الأجنبي في مؤلفاتهم (١١). إذن يجب أن يتوقف الباحث عند أولئك الممثلين لآدابهم في بلاد أخرى، أو الممثلين لثقافة أجنبية في أدبهم، فيدرسهم بتمعن و دقة (١٢).

- **ثانياً: دراسة الأجناس الأدبية (الفنون الأدبية):**

الأجناس أو الأنواع الأدبية يراد بها تلك (القوالب الفنية الخاصة التي تفرض بطبيعتها على المؤلف اتباع طريقة معيّنة) (١٣)، أو هي باختصار: فنون الأدب وأنواعه وأغراضه (١٤)، فمثلاً: القصة جنس أدبي يختلف في تكوينه وعناصره عن الملحمة التي هي نوع أدبي آخر، والباحث المقارن يدرس هذه الأجناس دراسة تاريخية، ليثبت التطورات التي طرأت على الجنس الأدبي بتأثير من الآداب المختلفة التي مرّ بها في حركته الزمنية المستمرّة، فيدرس -مثلاً- تطور المسرحية وما حدث فيها من تغيّر،

فقد كانت شعراً ثم امتزج الشعر بالنثر، ثم خلصت إلى النثر، ومثلها في ذلك الملحمة.

وعلى المقارن أن يراعي أموراً ثلاثة عندما يبحث في الأجناس الأدبية، هي:

١- تحديد النوع والجنس الأدبي المدروس، ويسهل كلما كان محدّد المعالم والقواعد الفنية، كالقصة التاريخية -مثلاً-، ويصعب التحديد كلما قلت القواعد، كالنوع الأدبي المتصف بلون من ألوان العاطفة، مثل: الوقوف على الأطلال بين الأدبين العربي والفارسي [١٥].

٢- إقامة الدليل على التأثر بالجنس الأدبي، فعلى المقارن أن يثبت تأثر المؤلفين بالجنس الأدبي الذي يدرسه، ويقيم الأدلة على ذلك، فقد يكون التأثر مباشراً أو غير مباشر، وقد يصرّح الأديب بتأثره، وقد لا يصرّح الأديب بتأثره، فمن التصريح اعتراف فيكتور هوغو بمحاكاته لشكسبير، ومن عدم التصريح محاكاة شوقي لشكسبير في «مصرع كليوباترا»، فإقامة الدليل مطلوبة في الأحوال كلياً، وعلى الباحث أن يكون بارعاً ودقيقاً، على أنه قد يلقى صعوبة في بعض الأحيان [١٦].

٣- تحديد مقدار التأثر ودرجته وعوامله، فيبيّن الباحث مدى تأثر كاتب بعينه أو مجموعة أدباء بالجنس المدروس، ويوضح عوامل التأثر، فينظر هل كان الكاتب خاضعاً لمذهب معيّن متقيّد بكل قواعده؟ أم أنه حرّ طليق؟ وما مدى خروجه على قواعد المذهب الذي احتذاه؟ وما الأسباب التي جعلته يغيّر ويبدّل؟ . . ومن أجل توضيح ذلك وجب الرجوع إلى حياة الكاتب ومجتمعه وعصره، ودراسة آثارها في أدبه [١٧].

- ثالثاً: دراسة الشخصيات والموضوعات الأدبية:

تنصب هذه الدراسة على الاهتمام بالشخصيات، والنماذج الانسانية العامة، والموضوعات التقليدية، كالحكايات والأساطير، التي تكون في كل

أدب وتنتقل من أمة إلى أمة، فيقوم الباحث المقارن بتتبع رحلة الموضوع أو الشخصية الأدبية بين الآداب، مجلياً النقص أو الاضافة التي تكتبها من أدب لآخر (ولاتخفى أهمية هذه الدراسة في معرفة خصائص الشعوب ونفسيتها)[١٨]، التي تضفيها على النوع أو الشخصية الأدبية، ولكل أدب نماذجه وشخصياته المتميّزة، ولكن بعض هذه النماذج تنتقل من أدبها الأصلي إلى غيره فتكتسب نوعاً من العالمية والتجدّد، ومن أمثلة ذلك: «مجنون ليلى» بين العرب والفرس، و«كليوباترا» بين الأدب الانكليزي والفرنسي والعربي، و«فاوست» بين الأدبين الألماني والفرنسي.. وتحتاج مثل هذه الدراسات إلى سعة الثقافة والبراعة في المقارنة والاستنباط[١٩]، ويجب أن يركز المقارن في دراسته على نقاط ثلاث هي[٢٠]:

١- رصد قدرة الكاتب على تطوير الموضوع.

٢- ملاحظة آراء الكاتب في التعبير أو الحكم على موضوعه وملاحظة قدرته الفنية.

٣- رصد التبدل والتغيّر في المثل الاجتماعية والأخلاقية حسب تبدل الزمن والمجتمع.

وتنبع معظم الشخصيات من خمسة مصادر هي:[٢١]

* التاريخ الأسطوري والخرافي: (بروميثيوس).
* الكتب المقدسة: (المسيح، اليهودي التائه).
* التقاليد القومية: (عنترة، فاوست).
* التاريخ قديمه وحديثه: (الاسكندر الكبير).
* الحياة اليومية: (البخيل، الكادح، المومس).

وقد اهتم «الألمان بدراسة الموضوعات وأسموها (تاريخ الموضوعات)، لأنهم يهتمون بالأدب الشعبي والخرافات والأساطير،

ويرون أن الأدب الشعبي هو مسودّة الأدب، وفيه النصّ المفقود في الأدب الرسمي، اعتماداً منهم على أن لكل أمة نماذجها. أما الفرنسيون فاهتمامهم بها ضعيف، لأنهم يعتمدون على التأثير والتأثـر بـين الموضوعـات، فقد لايكون هناك اتصال بين الشخصيات أو تضعف الرابطـة بينهـا. ولأن البحث في هذه الموضوعات يحتاج إلى مجهود كبير قد يخرج بالباحث عن مجال البحث الأدبي إلى (مجرد احصاءات ضعيفة التعليق والحواشي ولكن كل أمر يتوقف على مقدرة الأديب والموضوع الذي اختاره)[٢٢].

- رابعاً: تأثير كاتب ما في أدب أمة أخرى.

هذا المجال من أكثر المجالات عند الفرنسيين، بسبب وضوح منهج البحث فيه. وللوصول إلى نتائج تتناسب مع الجهد المبـذول، ولمعـرفة هذا التأثير يجب مراعاة عدد من النقاط:

أ- تحديد نقطة الانطلاق في التأثير.. هل التأثير جاء من مؤلفات الكاتب كلها؟ (أو من واحد منها؟ أو جاء من شخصيته بوصفها وحدة لاتتجزأ مع مؤلفاته.. مثال ذلك على الترتيب: تأثير مسرح شكسبير، تأثير مسرحية «هملت»، تأثير غوته[٢٣].

ب- تحديد الوسط المتأثر (المتلقي).. هل المتلـقي أدب بلد كامـل؟ أم جماعة من الأدباء؟ أم أديب واحد؟.. مثال ذلك مرتباً: تأثير الكاتب الفرنسي غي دي موباسان في القصة المصرية القصيرة، أو تأثيره في عـدد من مؤلفي القصة المصريين، أو تأثيره في القاص محمود تيمور فقط[٢٤]. وكذلك يجب تحديد الوسط الناقل.. هل هو كتاب أو مؤلف؟ وكيف انتشر هذا الكتـاب أو آراء المؤلف في الوسط المتـأثر؟ -مـثـلاً- تأثيـر الشـاعـر «ت. س. إليوت» في شعراء الحداثة العرب.. كيف انتقل إليهم؟

جـ- التـمـييـز بين شـهـرة الكاتب وانتـشـار مـؤلفـاته، وبين تأثيـره ومحاكاته، فقد يكون هناك كاتب كبير مشهور واسع الانتشار، ولكن تأثيره

الأدبي معدوم، والعكس صحيح، فقد يكون الانتشار قليلاً ولكن التأثير كبير، مثل شعر «مالارمية» في فرنسا قليل الانتشار، ولكنه أثر في كثير من الشعراء الأجانب. فالعملية إذن تحتاج إلى صبر ودقة في استقصاء الانتشار والتأثير معاً، ولانكتفي بمجرد الانتشار والذيوع فقط، بل يجب أن تكون لدينا أدلة واضحة على التأثير والمحاكاة (٢٥). والتأثير يأتي على صور كثيرة: فهناك التأثير الشخصي، والتأثير الفني، والتأثير الفكري، والتأثير في الموضوعات والأطر (٢٦).

وأخيراً نقول: إن تأثير الكاتب يجب أن يسبق بمعرفة عميقة به وتأثره الذي ندرسه، ومعرفة الصلة التاريخية التي ربطته بالوسط المتلقي، ثم نحكم على درجة التأثير وقوّته، وإضافاته وألوانه المختلفة.

- **خامساً: دراسة مصادر الكتاب:**

وتعني دراسة المنابع الأجنبية التي استقى منها الكاتب في مؤلفاته، وهذه المصادر تتنوع وتختلف من كاتب لآخر، فمنها:

* المصادر الشفوية.

* المصادر المكتوبة.

* التأثر بمظاهر البلاد الأخرى وعاداتها والمشاركة في المشاعر.

وهذه الدراسة لاتخفي صعوبتها خاصة في المصادر الشفوية التي لايمكن التحقق منها، وكذا إذا لم يصرّح الكاتب بمصادره أيّاً كان نوعها. وعلى المقارن أن يفرق بين التأثير ومجرّد توارد الخواطر، وعليه أن يكون عميقاً في بحثه عن آثار تلك المصادر في أدب الكاتب، وألاّ يقف في بحثه على مجرد شرح للمصادر دون بيان لأثرها في الكاتب وأدبه (٢٧)، فمن المقارنة دراسة كيف تفاعل هذا الكاتب مع المصادر الأجنبية.. وهل وقف دوره على مجرد الاعتراف منها فقط؟ أم أنه زاد وطوّر فيما نقل من آراء واتجاهات (٢٨).

- سادساً: دراسة التيارات الفكرية:

التيار الفكري (اتجاه عام يجذب الأذهان نحو فكرة معيّنة، أو تذوّق خاص، نحو: تيار التجديد الذي ساد مصر في مستهل القرن العشرين)[٢٩]، وتكون دراسة التيارات من باب انتقالها من أدب إلى أدب من التأثير والتأثر، كدراسة الفلسفة العاطفية والصوفية في الأدبين العربي والفارسي، ويجب التأكيد والتفريق بين مجرّد التشابه ووجود التأثير في هذه التيارات، فكثير من الأفكار تتشابه لأنها وليدة أحداث متشابهة، وهذا يدلنا على أن الدقة وطول البحث مطلبان أساسيان في هذا الموضوع، ولذا يرى بعض الباحثين أن هذا المجال هو أهم مجالات البحث المقارن، ومازال حالياً في الدراسات الجادة[٣٠]. ويدخل ضمن البحث في التيارات الفكرية دراسة الفكر الديني والفلسفي، ودراسة الأخلاق، ودراسة الأفكار الفنية والأدبية، ودراسة العواطف. ومايهم المقارن هو البحث عن الأصداء الظاهرة والخفية لهذه الأفكار من خلال تنقل الفكرة بين أدبين أو أكثر[٣١].

- سابعاً: دراسة بلد كما يصوّره أدب أمة أخرى:

نحن نعرف أن كل شعب، وكل أمة، لها رؤيتها الخاصة نحو الآخرين.. فمثلاً، يرى الفرنسيون أن البرتغاليين شعب سعيد[٣٢]، ويرى كثير من الغربيين، وغيرهم، أن الكويتيين جميعاً أغنياء وأن كل واحد منهم يملك بئراً من النفط.. هذا الحكم بني على أساس نظرة خارجية قد تكون صحيحة أو خاطئة، والسؤال هو: من أين جاءت هذه النظرة؟.. هنا يجب أن ندرس أدب الرحلات، والقصص والمسرحيات، ونبحث في داخلها عن أشخاص أو صور خارجية، وهذه الدراسة تنقسم إلى فرعين:

١- دراسة بلد كما يصوّرة أديب آخر، فهنا الصورة عامة، يصوّرها الأدب كله، مثل صورة اسبانيا في الأدب العربي منذ الفتح الاسلامي لها. وللتحقق من هذه الدراسات يجب دراسة حياة الأدباء الذين رحلوا إلى تلك البلاد، وإلى أيّ حدّ عبّروا بصدق عمّا رأوه، وكذا الأدباء الذين وصفوا

البلاد ولم يروها، تدرس حياتهم وتقارن دراستهم بالواقع الصحيح [٣٣]. ومن المستحسن أن يزور المقارن ذلك البلد الأجنبي ليكشف صدق الدراسة من زيفها، ومن المهم أن يكون بارعاً في العلاقات الدولية واسع الاطلاع دقيق التحليل [٣٤]، لأنه باحث عن حقيقة غالباً ما تكون مطموسة تحت ركام من الشائعات، التي تحولت إلى حقائق عند بعض الناس.

٢- دراسة بلد كما يصوّره مؤلف ما من أمة أخرى.. وهنا الصورة جزئية خاصة بمؤلف يعرض صورة أمة حسب رؤيته الخاصة، مثل: صورة اسبانيا في شعر شوقي. وفي هذا الموضوع تدرس حياة الكاتب، ومدى صلته بالبلد الذي يصوّره.. ومصدر معلوماته.. وكيف رآه رؤيا العين؟.. وما درجة كمال صورته تلك وصدقها [٣٥].

وبعد، فقد كانت هذه المتابعة المبتسرة إشارة إلى أهـم المجـالات التي يطوقها الباحث المقارن، اعتمدنا فيها الإجمال والإيجاز. وقد تبيّن من خلالها أن الأدب المقارن، كما أنه يؤكد على وجود الصلة التاريخية بين موضوعاته، فإنه كذلك يركز على الكشف عن مواطن الابداع، والخلق الجديد، والاضافة التي تمرّ بها موضوعاته المختلفة أثناء تنقلها بين الأمم، وعرفنا أن مجمل مجالات المقارنة تدور حول الأدب المؤثر، والأدب المتأثر، والوسيلة التي تمرّ بها عملية نقل التأثير، وحسبنا أنّا استعرنا أفكار الآخرين (فلا شيء أدعى إلى إبراز أصالة الكاتب من أن يتغذى بآراء الآخـرين.. فما الليث إلاّ عدة خراف مهضومة..) [٣٦].

* * *

الهوامش

١- محمد غنيمي، ص١٥ .

٢- بديع جمعة، ص١٦ , ٢٢ .

٣- بديع جمعة، ص١٤، ١٥

٤- عز الدين المناصرة، ص١٧٦، وللتوسع في الدراسة ينظر ص٩، ص٢٧، حيث عرض المؤلف مفهوم الأدب المقارن من خلال نقده للدراسات الحديثة في المدارس المختلفة حتى وصل إلى الدراسات العربية . . ثم خصص قسماً للحديث عن الأدب المقارن في الوطن العربي من ص١٢١- ص١٩٨ .

٥- ينظر : محمد غنيمي، ص٩٥- ١٠٤، أحمد كمال زكي، ص٧٧-٩٧ .

٦- أحمد كمال زكي، ص٨٧ .

٧- محمد غنيمي، ص٩٦ .

٨- ريمون طحان، ص٦٠ .

٩- غوياز، ص٢٠- ٢١ .

١٠- محمد غنيمي، ص٩٦ .

١١- محمد غنيمي، ص٩٧ .

١٢- غوياز، ص٢١ .

١٣- محمد غنيمي، ص٩٧ .

١٤- ريمون طحان، ص٦٥ .

١٥- محمد غنيمي، ص٩٩، ريمون طحان، ص٦٧ .

١٦- محمد غنيمي، ص٩٩.

١٧- محمد غنيمي، ص١٠٠، ريمون طحان، ص٦٨.

١٨- محمد غنيمي، ص١٠٠.

١٩- محمد غنيمي، ص١٠٠.

٢٠- داود سلوم، ص٣٤، ٣٥.

٢١- ريمون طحان، ص٧٠، ٧٩.

٢٢- غوباز، ص٢٤.

٢٣- غوباز، ص٢٤.

٢٤- محمد غنيمي، ص١٠١.

٢٥- غوباز، ص٢٥.

٢٦- محمد غنيمي، ص١٠١، غوباز، ص٢٥.

٢٧- غوباز، ص٢٦، غنيمي، ١٠٢.

٢٨- بديع جمعة، ص٢٧-٢٨.

٢٩- مجدي وهبة، ص١٢٨.

٣٠- داود سلوم، ص٣٦.

٣١- داود سلوم، ص٣٦-٣٨.

٣٢- غوباز، ص٢٧.

٣٣- غنيمي، ص١٠٣.

٣٤- ريمون طحان، ص٦٤.

٣٥- غنيمي، ص١٠٤.

٣٦- غنيمي، ص٢٣، من كلام بول فاليري.

المراجع والإحالات

١- د. أحمد كمال زكي: الأدب المقارن، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٢- د. بديع محمد جمعة: دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

٣- د. داود سلوم: دراسات في الأدب المقارن التطبيقي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨٤.

٤- د. ريمون طحان: الأدب المقارن والأدب العام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

٥- د. عدنان محمد وزان: مطالعات في الأدب المقارن، الدار السعودية للنشر، جدّة، ١٤٠٣هـ.

٦- عز الدين المناصرة: مقدمة في نظرية المقارنة، دار الكرمل للنشر، عمّان، ط١، ١٩٨٧.

٧- ماريوس فرنسوا غوياز: الأدب المقارن، ترجمة: هنري زغيب، سلسلة زدني علماً، منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٤.

٨- د. مجدي وهبة، وكمال المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤

٩- د. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت.

المفارقة الساخرة والحكائية في قصص الحصرم لزكريا تامر

باسم عبدو

«بدأ حـيـاتـه حـدّاداً شـرسـاً، ثمّ أصـبـح من بعد كاتباً، فلم تتخلّ عنه شراسته، فإنّي أقول: إنّ هذه الشراسة هـي قنـاع يعبـس في وجـه الظلم والقهـر والقـبح والعـفـن. وهي مـظـهـر احـتـجـاج لا يُخـفـي أبـداً، ولاهو ينفي، طيبـة القلب وعذوبة الروح التي نجدها في فنّ زكريا تامر»

- محمد الماغوط -

* باسم عبدو: أديب وقاص من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب. عضو جمعية القصة والرواية. من أعماله: «قوس قزح».

زكريا تامر قاص متفرّد، يملك أسلوباً خاصاً مــ
وترسخ في مجموعاته الأولى. ويملك قدرة كبيرة على توظيف الحكاية بقالب قصصي جميل ومثير ومدهش.

وحقّق القاص نجاحاً في قصصه القصيرة جداً، التي تعتمد بشكل رئيسي على المفارقة الصارخة، والتباين الكبير.. إنّه كاتب يصوّر السخرية والمرارةوالألم والأسى والغضب بامتياز. ويقلب الصورة التي تكــوَّنت في ذهن المتلقي، ويبدلّها بصورة أخرى مغايرة، وبنسيج جديد.

يهتم زكريا بالشخوص من الداخل، فهو يدرس سيكولوجية الشخصية ورؤاها وتطلعاتها وحالاتها العصبية وأمزجتها. ويعطي فكرة واضحة عن ملامحها الخارجية، كالطول والقصر واللون وشكل الذقن واللباس وملامح الوجه. أي يقدمُ شخصية متكاملة، كجسد واحد، يتلاحم فيه «البرَّاني والجوَّاني». وإذا غضب زكريا، كما يُقال «يسلخ جلود شخوصه، ويحولها إلى هياكل عظمية».

صدرت للكاتب مجاميع قصصية منها: «النمور في اليوم العاشر»، وأبرز ملامحها: (التصوير الفني البعيد الغور لظاهرة الملاحقة السياسية الشرسة التي يتعرَّض لها الأفراد والجماعات..)

وللكاتب ذاكرة واسعة وعميقة، كالبحر الهائج. ويملك خيالاً سريالياً وفهرساً طويلاً من العناوين والأسماء والشخصيات والحكايا.

ويتصدّى القاص في «نداء الروح» بشجاعة نادرة لمحاربة الكذب والرياء، والبيع والشراء، بكل الطرق الفنية التي يتيحها له اطلاعه الواسع على أدب التراث والأدب المعاصر.

ويتكرَّر بطل زكريا تامر في مجموعة «صهيل الجواد الأبيض»، ويصفه بأنَّه مخلوق ما، ضائع في زحام مدينة كبيرة قديمة. ويتحرك عبر هذه المجموعة بطل واحد، هو أشبه بالمهرّج، وإن كان لا يضحك، خلافاً للمهرّج الذي له خصائص محدّدة (جوع لا ينتهي للنساء والطعام والعزوف عن العمل ما أمكن والحنين الدائم إلى الترحال في المكان والزمان).

لقد اختار زكريا تامر الغوص في أعماق «الأدب الساخر» ، ونجح كأديب، وخرج من المحلية إلى العالمية ، وتُرجمت قصصه إلى العديد من اللغات الأجنبية . وللأدب الساخر ، كما هو معروف ، وظيفة جمالية تتميز عن وظائف الجمال في (الأنواع الأدبية الأخرى) فهو مثير ومنشّط للذاكرة ، لأنّه أدب قادر على بعث وإحياء قيم الحياة السامية .

وصدرت مؤخراً عن دار الريّس مجموعة قصصية جديدة للأديب زكريا تامر بعنوان «الحصرم» ، ضمّت (٥٩) قصة قصيرة جداً ، في /١٨٩/ صفحة .

في المجموعة مشاهد قصصية - حكائية ، وحُزم من الظاهرات الاجتماعية والسياسية ، وقضايا حياتية يومية ، في ظلّ تمايز طبقي واجتماعي حاد ، في المجتمع العربي الاستهلاكي .

ويملك زكريا تامر طموحات كبيرة ، بهدف تخليص الإنسان العربي من القمع الداخلي والخارجي . ويركّز على الإنسان الهامشي ، والشخصية المعذبة ، كما في كلّ مجاميعه .

وينطلق زكريا في قصص الحصرم ، من الحارات والأحزمة الشعبية التي تطوّق المدن . فحارة «قويق» تتكرّر في قصص (المهارشة - مصرع خنجر - ملاءة في زقاق - خاتمة الهلاع) .

في هذا الحيّ مشاكل يومية لا تنتهي ، كالقتل والاعتداء على النساء ، والأخذ بالثأر ، والتحريض لتحقيق مآرب شخصية ، ومنافع ذاتية . وتتكرر الشخصيات نفسها للدلالة على الأغراض والأهداف نفسها ، كأن نجد «خضر علون» ، الرجل الذي يهابه كلّ أهل الحارة ، ويتجنّبون شرّه ، في قصتّي / المهارشة ، مصرع خنجر / .

ولا يغيب أبداً عن هذه القصص ، القتل والموت . فخضر علون الذي يتخلّص من الموت في قصة «المهارشة» ، تصدمه سيارة ، وتمرّ فوقه ، ويموت في قصة «مصرع خنجر» .

المفارقة في قصص زكريا تامر ، والتداعيات ، سكّتان متوازيتان للقطار المنطلق من محطّة الذاكرة ، نحو شواطىء الروح ، والعالم الخارجي ، المحمّل بالحكايا ، باعتبارها القاعدة الرئيسة للقصة الساخرة ، فهي تحكي

حكاية بشكل يبدو، وكأنَّها تقوم على التداعيات، لكنَّها تداعيات منظَّمة، غير فوضوية أو عشوائية، بل نراها مرتبطة إلى حدّ التلاحم والانصهار. تقصّ الحكايا وتتلو الحوادث حسب التسلسل الزمني، بحيث تتحرَّك وتقوم بأدوارها وأفعالها في مكان ما، وهي في حالة من التوتر بعيداً عن الخمول والركود... وهذا التوتر يتصاعد ويتراكم متجمعاً في المداخل والممرات، وتتقاطع خيوطه مشكّلة عقدة واحدة «حبكة»، يصعب فكّها بسهولة، وبمعنى آخر تشكّل دراما معقدة، وبخاصة أنَّ زكريا في قصصه القديمة والجديدة، يحاول أن يوفق بين الواقع كما هو، وكما نتصوره، والفانتازيا. أي هناك حالات من التقارب والتماسك، والوصول إلى حالة الإندماج بين الأحلام والواقع، فالذي تتخيّله الشخصية في القصة، نراه متحققاً في الواقع.

ولا يمكن في هذه المقالة تقصّي كل الجوانب للمضامين والشكل، والمرور على كلّ أبعاد القصص البالغ عددها (٥٩) قصة، لذلك يمكن تناول بعض المسائل الحسّاسة.

فالموت في قصص الحصرم، تتنوع أسبابه ويأخذ أشكالاً وأبعاداً متعددة. نلاحظ مثلاً، كيف يموت «خضر علون»... ويموت «كاظم الحموي» قبل أن يصل إلى المشفى في قصة «الغيث». أمّا «غالب الهلاس» في قصة «المفتضح» الذي يبيع نفسه لجيش الأجنبي، كان ابناً غير شرعي، ومجهول الأب، وجُمعت أمواله عن طريق الغشّ والاحتيال.. وأنكرت «بشيرة» وعمرها ستون سنة أمام الطبيب أنَّها حامل، لكنَّ الجنين أرغمها على إغماض عينيها إغماضة لا نهاية لها.

وفي المجموعة قصص قصيرة جداً، تسير على النموذج نفسه تماماً، لكنها جاءت أكثر تكثيفاً. وكانت المفارقة أقوى وأكثر حدّة. كالوحيد الذي لطم رشيد على خدّيه بعد انهزامه في لعبة الكونكان، وطعنه بالسكين في صدره وعنقه حتى الموت.

وتتعدّد أسباب الموت.. ويموت الرجل مشنوقاً بالحبل نفسه الذي شُنق به ابنه في قصة «الرجل الشرقي». وفي قصة «الساحرة»،

وهي ق . ق . ج ، تذكّر كل واحد من الجنود ، حينما شاهدوا الطفل موثّقاً ، ويداه خلف ظهره ، شيئاً من طفولته ، وبدلاً من أن ينفّذوا أوامر الضابط بإطلاق النار على الطفل ، وجّهوا بنادقهم إلى الضابط ، وأطلقوا النار عليه .

وفرحت الزوجة لأنّ زوجها «عمر ياسر» الذي يحبّ الضحك ، ضحك قبل موته ، عندما خرج الشرطي من خزانة الثياب ، وضغط عنقه بأصابعه .

ويتحلّق أولاد «مروان العلبي» حول والدهم الميت ، ولم يمسحوا دموعهم ، لأنّ أيديهم كانت منُهكة في اقتسام ما يملك! . ويتبيَّن أنّه لا يملك غير ثيابه! .

إذا كانت السخرية أداة ووسيلة فنيّة لهـا قدسيـة خاصـة عنـد زكريا تامر ، الذي يُعيد بوساطتها إنتاج الواقع ، فعنصر المفارقة هو العاشق والحبيب الأول للقصة الساخرة ، إحدى دعائم نجاح الحكائية التامرية ، لأنّها «المفارقة» أداة تحريك الموقد في ذهن المتلقي ، وجعل الجمر أكثر حرارة وتوهّجاً وسطوعاً .

وعلى الرغم من أنّ القصة – الحكاية – هي فن قديم ، غير حديث ، تظلّ القصة الساخرة ألصق فنون السرد بالحكاية ، لأنّ السخرية هي أكثـر ما تحتاج من الأشكال الأخرى ، إلى لغـة خاصـة ، تهكّميـة ، تقـوم على التقابلات الكلامية ، والمفارقات المحمولة على دلالات متنافرة ومتعاكسة ، مثل «الضحك والبكاء ، الحزن والفرح ، الخير والشر ، الغباء والذكاء ، الظاهر والباطن» .

يوصف زكريا تامر بالـ «جزّار» الذي يحمل سكيناً حادة كبيرة ، ويسلخ بهـا الجلود ، ويقطّع اللحم حسب احتياجات الزبائن ، وأنواع الطبخات ، ويملك القدرة على تعبئة الشخصيات للنهش ، ويسلمّها أدوات الحفر الفنية ، ويتركها تحفر وتنقّب في جسد الواقع ، وتسبر أغوار الروح ، وتكشف عن خفايا الشخصية ، وإظهار المُراد ، بعد نَفَس سردي طويل ، حوار ، ولفّ ودوران ، والتواءات وتقلّبات ، والمرور على أكواع حادة ، للوصول إلى الهدف أو الغرض . وحول ذلك يمكن التذكير بقصة «المهارشة» .

فالبيك «نجيب البقار» يعلم أنَّ أم علي، هي المرأة الوحيدة التي ستحمي رأس خضر علون، الذي يخافه أهل الحارة، ولكن خضر يقتل ابن أختها الذي تحبّه كثيراً، فأقام البقار حفلة عشاء، دُعي إليها أكثر من خمسين رجلاً.

وفي قصة «رجال» يُطلِّق عبد الحليم المُر زوجته، لأنّها نسيت أن تضع ملحاً في الطعام، وتعمل دائماً أعمالاً مخالفة لرغبة زوجها، لكنّه لم يطلّقها لسبب أكبر بكثير من السبب الأول، عندما وجدها في السرير تكلّم رجلاً آخر!.

والكاتب «نوّاف الحمصي» في قصة «نهار وليل»، توجَّه إلى إحدى الجرائد ليشكر رئيس التحرير على قبول نشر مقالته، لكن رئيس التحرير طلب تعديلها. وظلَّ نوّاف يعدّل، وينتف ريشها، ابتداء من العنوان، بسبب إثارته وقساوته وطوله، حتى أصبحت المقالة هيكلاً عظمياً، كالطفل الأفريقي!..

إنّ الغرض من وراء هذا السرد، وهذه الحكاية، عميق الجذور، فالرقيب الذي يعبّر عن طبيعة النظام السياسي، يهمّه أن تكون المقالة غير مثيرة، وإذا لم يشذّبها ويقصّ جناحيها، يتحمل مسؤولية كل كلمة فيها تخرج عن السياسة العامة.. وتتحول في النهاية إلى مقالة عادية لا تحمل الجاذبية أو الإثارة... وكانت النتيجة غير مدهشة، لأنَّ المتلقي حصل عليها دون أن يبذل أي جهد فكري. (عندما سأل الكاتب، رئيس التحرير: لو غيرّت المقالة ما سيبقى منها؟ يُجيب رئيس التحرير: سيبقى اسمك ببنط أسود كبير!).

ورغم الدماء التي تسيل من رأس محسن، وسقوطه على الأرض، في قصة «ملاءة في زقاق»، فقد أُصيب بالندم، لأنَّه كلَّم امرأة. (محروماً من مشاهدة مباراة في الملاكمة، ستنقلها محطة تلفزيونية، وينتظر نتائجها بشوق).

وفي قصص الحصرم مشاهد حكائية ملوَّنة بألوان باهرة وساحرة ومضحكة، كما في قصة «يا خسارة»، عندما سرق «جاسم القزاز» طنجرة

كوسا محشي من أحد البيوت، وهرب، ولحقه الشرطي، فضربه بكوساية محشيّة، وأُدخِل جاسم إلى السجن وكانت زوجته في المحكمة يرافقها أولادها العشرة، يلوحون له.

اعترف الرجل أنّه سرق، فأشبع أولاده! وصدر حكم القاضي بأن يدفع جاسم ثمن الطنجرة، وأطلق سراحه.

المفارقة المدهشة في هذه القصة المستندة إلى حكاية عادية، ليس في سرقة جاسم طنجرة الكوسا، فالجوع يدفع الإنسان للسرقة، لكن الغرابة في الأمر، أنَّ الزوجة أعادت الأولاد إلى أهاليهم الذين استأجرتهم لأربع ساعات، وأنَّ جاسم سيُطبِّق المثل «مَنْ يسرق إبرة، يسرق جملاً». وطمع الرجل في سرقة البنك في المرة القادمة، ما دامت البهدلة واحدة، لكن في الواقع أنَّ بنوكاً كثيرة سُرِقت، ولم يُسجن جاسم. أمّا عندما سُرِقت الملاعق من المطعم، فحقّق معه!.

في مجموعة الحصرم (٥٩) قصة، منها حوالي عشرين قصة قصيرة جداً، حقَّقت نجاحاً أكبر من القصص القصيرة، لأنَّ الحكائية فيها كانت مكثَّفة، والمفارقة صارخة. ومن الطبيعي أن يتحقّق بعد ذلك عنصر الإدهاش بشكل كبير!.

يوظّف زكريا تامر النكتة في قصصه الساخرة، ممايجعلها تترسَّخ أكثر في الذهن، وتتحمّل بالغرائبية، بعيداً عن الإضحاك المجَّاني - الاستهلاكي. ينطبق هذا الأمر على قصة «الإجازة». ونتيجة لفحص الأطباء لـ «دياب الأحمد» يتبين أنّه في حالة إغماء، لكنّهم استغربوا وجهه المطمئن الضاحك!.

وتتداخل الألوان في قصة «يد الكذب». فـ «موفق» يدهن الحائط الخارجي لبيته بالأبيض. وتأتي يد غريبة، وتكتب بالأسود عبارات تتَّهم زوجته باللاَّ أخلاق. ويكتب موفق تحتها بالأصفر. أنَّ زوجته شريفة، لأنَّ اللون الأحمر هو لثياب زوجته الداخلية. وتعجز اليد المجهولة عن الردِّ، عندما علمت أنَّ لباس زوجته الداخلية هو اللون الأسود.

وتظهر السخرية الممزوجة بالبساطة والغباء في قصة «الشهادة»، حينما تحكي «بهيّة» أمام الجيران، كيف اغتصبها رجل في البستان،

وهو يُشهر سكينه، لكنّها تحدّته بقوة، ولم تخلع جواربها، فتعجَّبت نساء الحارة، وانتشرنَ في البساتين عازمات ألاّ يخلعنَ جواربهنَّ!.

وفي أحيان يطول السرد الحكائي في قصص الحصرم، ويتراجع الهدف الذي يدعو إليه الكاتب، وأراد أن يجعله هدفاً نافراً وواضحاً. وهذا يعني أنَّ هناك مجّانية في السرد، وأنَّ السرد لم يوظّف توظيفاً حكائياً، على أسس فنيّة وتقنية، تجعل الحكاية القديمة، تظهر بقالب حداثي.

وتتعدّد المشاهد واللقطات المتشابهة في أمكنة مختلفة، تقع في دائرة سكانية واحدة، ولها فضاءات، ومواقع مختلفة أيضاً. كلّ ذلك على حساب جمالية القصّ، إضافة إلى ضعف وتراجع التداعيات التي تُعدّ في قصص زكريا من الركائز الرئيسة للقصة الساخرة، كما في قصة «الساعة الثامنة»، حيث وزّع الزمن توزيعاً متساوياً، تراتبياً، وأنَّ القصة ابتدأت في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وانتهت في الساعة الثامنة مساء، وعبر هذا الزمن تنقَّلت الطالبة الجامعية «حنان الملقي» بين عدّة محطات، والتقت مع شباب وشيوخ وكهول من أعمار مختلفة (٢٥-٣٠-٥٠-٦٠) سنة، بهدف ممارسة الحُبّ. وهذه إشارة واضحة لخراب المجتمع من الداخل.

وبيّن الحوار التالي أنَّ المفارقة باهتة، ولم ينجح الكاتب في تصعيدها كما في العديد من قصص المجموعة.

سألها الأب: لماذا تأخرت ثلاثين دقيقة؟

- الأم: بصوت موبّخ: أف! ألا ترى البنت توشك أن تقع أرضاً من كثرة الدراسة في الجامعة!.

- الأب: حمد لله، لأنَّ ابنته مجتهدة، تحبّ الدراسة!.

- الأم: وحمدت الله بصوت خاشع!

وتتناول قصص الحصرم قضايا اجتماعية عميقة، متجذرة في حياة الناس، وقضايا عائمة على سطح الحياة اليومية، يتداولها الناس في كلّ ساعة.

ففي قصة «الاغتصاب» الدلالة واضحة، والاغتصاب مسألة يحرّمها القانون، ويُعاقب المغتصب في كل المعمورة.

تشير «ليلى» التي تسلّم جسدها إلى مدير الشركة، وسائق السيارة والشرطي والطبيب والقاضي والصحافي، إلى أنّ كلّ شيء فاسد في المجتمع. والسرقة أيضاً من الأمور التي تحرّمها الأديان السماوية والدنيوية، ولكن التربية الفاسدة تُنجب أولاداً فاسدين. فالأب الذي يستنكر ما قام به أولاده الثلاثة من سرقة سجّاد مسجد الحارة، يعرف نواياهم المبيّتة لنبش القبور واقتلاع الأشجار، نراه يفتخر بهم ويتباهى أمام أمّهم!.

في قصص الحصرم قضايا صغيرة، لكنها تأخذ أبعاداً وتحتل مساحات واسعة في أذهان البشر، ويركز عليها الكاتب، كالضرب مثلاً في قصة «الهاربة».

ويحاول زكريا تامر إيهام المتلقي، والتلاعب بالكلمات، واللعب على المفاهيم والمواقف، من خلال ازدواجية الشخصية، كاندهاش الحيطان المُعجبة بجسد المرأة الراقص التي وجدت أباها في المرآة، ثمّ وجدته مستغرقاً في قراءة كتاب في الصالون. و«عفيف» رجل ساقط أخلاقياً، وماأكثر أمثاله في هذا الزمن، فهو يضحي بزوجته «عفاف» في سبيل مصالحه الخاصة. وترتقي الرموز والدلالات السياسية في قصة «التصغير الأول» حيث يتم احتكار الهواء. وكلّ مَنْ يأخذ حصة أكثر من المقرّر يُدخل إلى السجن. وقد مرض / عبد النبي الصبّان/ لأنه استنشق هواء أكثر من حصته، وأدُخل إلى المستشفى، ليتحول بعد أسبوع إلى رجل آخر، قامته صغيرة وصدره ضيّق ورئتاه صغيرتان ويستهلك يومياً من الهواء أقل من الحّصة المخصصة له.

وهذا ما يحصل قولاً وفعلاً، حيث تشكلت طبقة طفيلية، ترتبط مصالحها بالمصالح الرأسمالية العالمية، ولها مهمة واضحة، وهدف مكشوف، وتسعى بكل الطرق والوسائل لتحقيق الأرباح بأي شكل وأسلوب، وبطرق غير مشروعة، على حساب المواطن والاقتصاد الوطني. ولو تمكّنت هذه البورجوازية لخصّصت لكلّ مواطن بارومتير لقياس تنفّسه، وأنبوبة طبية لتعبئة رئتيه بأجزاء من الغرامات من الهواء، ولو تمكّنت أيضاً من تعبئة الهواء في قوارير وهرّبته إلى الخارج، لفعلت،

وبكلمة تدلّ هذه القصة على انعدام القيم، وموت الضمائر، وتعفّن وفساد الأخلاق. و. . . .

ومن خلال الـ «فلاش باك»، يستحضر زكريا تامر شخصية «أبو حيان التوحيدي» في قصة «الطائر الأخضر». ويتحوّل أبو حيان إلى خروف. وهذه إشارة إلى الوداعة. ثمّ يتحوّل إلى ذئب، ثمّ إلى طائر أخضر الريش، ويمثّل هنا الجمال والربيع، وإلى غراب وعصفور، ثمّ إلى طائرة حربية تدمّر الإنسان والطبيعة. ولكن رغم كلّ هذه التحوّلات ، يمكن أن تتحوّل الطائرة الحربية إلى حمامة بيضاء، ترمز للمحبة والطمأنينة والسلام. وهذا الرمز ليس جديداً، فقد وظّف كثيراً في القصص والروايات والفنّ التشكيلي، ولكنّه في هذه القصة اختير اختياراً صحيحاً، واستفاد زكريا تامر من قصة الطوفان وسفينة نوح، وإطلاق الحمامة من الفُلْك، وعودتها، وهي تحمل غصناً أخضر في منقارها، ويرمز إلى توقف الطوفان، وانحسار المياه عن اليابسة!.

أخيراً. . في كلّ أعمال زكريا تامر القصصية، للمرارة والحُبّ والحزن والفرح والغضب صور مقلوبة. . وحتى اللصوصية والجريمة والأعمال المنافية لسنّة الحياة، لها نكهة وطعم آخر، وجمالية تحتل مكانها اللائق بها في اللوحة الإبداعية.

وزكريا تامر من الكتّاب اللامعين الذي تصدّى في الماضي وما يزال يتصدّى للخطأ، ويكشف عن الكذب والرياء، بأسلوب حكائي، مستفيداً من التراث العربي الإسلامي، ومن التراث الإنساني والأساطير، والحكايا الموغلة في القدم.

وفي مجموعته «الحصرم»، الصادرة حديثاً، رغم أهميتها، لكنّها لم تأتِ بالمستوى الحكائي والفني الذي جاءت به مجموعاته السابقة. . .

وتظلّ قصص الحصرم خلاصة مكرّرة لتجربة إبداعية طويلة وناجحة بامتياز. . .

نافذة على الوطن العربي

عبد الرحمن الحلبي

أفكار علميّة

ملوثات الغذاء الطبيعيّة والكيماويّة

قبل المضي في ملوّثات الغذاء بشقيها الطبيعي والكيميائي لا بدّ من التوقّف عند اصطلاح «تلوّث الغذاء» لنعرف ماذا يعني؟ لدى العلماء والمعنيين به من الباحثين: «احتواء

المواد الغذائية على أيّ جراثيم مسبّبة للأمراض أو أية مواد طبيعيّة أو كيميائية أو مشعّة تؤدي إلى حدوث تسمّم غذائي». وأما التسمّم الغذائي فيعرف بأنه «الأمراض الحادّة الخاصّة بالمعدة والأمعاء الناتجة عن تناول الأغذية الملوّثة ببعض العوامل الجرثوميّة أو السموم قبل استهلاكها من قبل الإنسان.[١]

يُعدّ التلوّث البكتيري أشهر أنواع التلوّث الطبيعي للغذاء وأكثرها شيوعاً. وتسهم الحشرات المنزلية (الذباب والصراصير) في نقل الجراثيم المسبّبة لهذا التلوّث. كما أن المياه والأغذية الملوّثة تنقل البكتريا الممرضة إلى الإنسان؛ ومن أمثلة هذه البكتريا:

١- بكتريا حمض اللاكتيك، وهذه تسبب فساداً للحليب والألبان بصفة عامّة، حيث ترفع نسبة حموضتها، كما تسبب أيضاً فساداً للمحاليل السكرية والعصائر بأنواعها، وبخاصة عصير الفاكهة.

٢- بكتريا حمض البيوتريك، وهذه هي المسؤولة عن تزنّخ الزبد والزيوت والدهون ومنتجات الفطائر المحتوية على نسبة مرتفعة منها، وينتج عن هذه البكتريا حمض البيوتريك ذو الرائحة والطعم غير المرغوبين، فيؤدي إلى التقزز من الطعام المتكوّن فيه هذا الحمض.

٣- بكتريا التسمم البوتشوليني Clostridiam Botulinum، وهي بكتريا غير هوائية، تنمو في الأغذية المعلّبة غير الحمضية، كاللحوم والخضار، وهي تنتج غازاً يؤدّي إلى انتفاخ العلب، كما تسبّب في ظهور رائحة غير مرغوبة لمحتويات العلبة.

٤- بكتريا الستافيلو كوكاس Staphylococcus، وهذا النوع من البكتريا يُحدثُ كثيراً من حالات التسمّم الغذائي كنتيجة لسمّ التوكسين الذي تفرزه البكتريا، ولعلّه من سوء الحظ أن الغذاء الملوّث، المحتوي على التوكسين يخلو من الرائحة المنفّرة، مما يسبب عدم قدرة المستهلك على تمييز الفساد في الطعام الذي يتناوله بهذه المواصفات.

ولعل أشهر الملوّثات الجرثومية للغذاء هي بكتريا السالمونيلا، ويرجع سبب شهرتها إلى سعة انتشارها وكثرة الأمراض التي تسبّبها. فهي تسبب حمّى «التايفوئيد والباراتايفوئيد»، ولاتقتصر أضرارها على الإنسان وحده، بل تمتدّ لتشمل الحيوانات الاقتصادية، حيث تسبب لها التهابات معوية، كما تؤدي إلى هلاك جماعي للدواجن، ويزيد من خطورة هذه البكتيريا تعدد أنواعها، فهي تربو على ألفي نوع- حسبما يخبرنا الباحث العربي

المصري محمد عبد القادر الفقي- ورغم التطور الحضاري والعلمي الذي شهدته البشرية في العصر الحديث إلاّ أنه لم يمكن السيطرة على انتشار هذه البكتيريا، ووقف آثارها الممرضة.

ومن أهم مصادر بكتيريا السالمونيلا: الأبقار والدواجن، حيث تستوطن أمعاءها وأنسجتها، كما تنتشر بعض أنواعها «المكوّرات البنيّة» في الكعك والفطائر والشاورما. وبأسف فإن الطهي وغلي الطعام والتجميد غير قادرة على إتلاف التوكسين الذي تفرزه هذه البكتيريا؛ وهناك أنواع من بكتريا السالمونيلا تؤدي سمومها إلى حدوث الوفاة في كثير من الحالات، مثل بكتيريا «الكلوستريديوم» التي تنتشر على الأغذية غير المحكمة التغليف، والمعلّبات واللحوم المقددة وغيرها.

ومن مصادر التلوّث الطبيعي: الاشعاعات الناجمة عن وجود بعض الصخور ذات الخواص الاشعاعية حيث تنتقل هذه الاشعاعات إلى النباتات، وتنتقل عبر سلاسل الغذاء إلى الحيوان والإنسان.

التلوث الكيميائي

يعد التلوّث الكيميائي للغذاء من موضوعات الساعة، بعد أن اكتُشِف أمران بشأنه:

١- خاصة التراكم والتضاعف في الخلايا الحيّة، حيث يزداد تركيز الملوّثات الكيميائية عشرات المرّات خلال مرورها عبر السلاسل الغذائية، مثال ذلك ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث استخدم فيها نوع من المبيدات الكيميائية هو: TDE لمكافحة الذباب حول إحدى البحيرات، وقد رشّ المبيد بتركيز ضئيل جداً، لايتجاوز 0.014 جزء لكل مليون جزء (PPM)، غير أن تركيز هذا المبيد عندما انتقل من الأحياء الدقيقة في الماء إلى الأسماك الصغير فالأكبر ازداد حوالي 180 ألف مرّة، وحين يتغذّى الإنسان على الأسماك يزداد التركيز في أنسجته يوماً بعد يوم مع تزايد استهلاكه منها.

٢- حدوث إصابات في أنواع شتى من السرطان، نتيجة تناول الإنسان مواد غذائية ملوّثة بالكيماويات والمعادن الثقيلة كالرصاص والزئبق والكادميوم.

وبناء على ذلك فقد أصبحت مشكلة التلوّث الكيميائي للغذاء مشكلة عالمية، خاصة أن عصر التلذذ بمذاق الطعام وروائحه أوشك على الغروب فيما يبدو. فبدلاً من أن يمدّنا الغذاء بالطاقة التي تعمل بها خلايا الإنسان حتى تؤدي أعضاء الجسم وظائفها على أكمل وجه، وحتى يستطيع الإنسان

التحرك من مكان إلى آخر، وحتى تتجدد الخلايا التالفة.. بدلاً من ذلك كله، أصبحت المواد الغذائية في كثير من البلدان سبباً لكثير من الأمراض والعلل. والمزعج والمقلق في موضوع التلوّث الكيميائي للغذاء أن معظم أنواعه تتم عمداً من قبل بعض الشركات والأفراد الذين ماتت ضمائرهم؛ فهم- في سبيل الربح المادي السريع- لايتوانون عن مزج مواد سامة، أو ذات آثار ضارة مع الأغذية، ذلك تحت مسميات عدّة براقة كالمنكهات الصناعية والمحسّنات والمضافات والمحلّيات.. وسواها.

ويسهم تلوّث الهواء والماء والتربة في زيادة حدة مشكلة التلوّث الكيميائي للغذاء وذلك من خلال تأثير الملوّثات البيئية على المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية المائية والبرية. وقد أثبتت بعض الدراسات أن الحيوانات تصاب ببعض الأمراض التي تقلل من قدرتها على إدرار الألبان، وتؤثّر على درجة خصوبتها الانجابية، بل قد تصاب بالعقم وتتعرض للموت خنقاً إذا ما زادت حدّة التلوّث.

وعموماً هناك عدد كبير من الأسباب التي تسهم في تفاقم مشكلة التلوّث الكيميائي للغذاء، منها، على سبيل المثال لا الحصر:

١- استخدام المبيدات الحشرية على نطاق واسع في قتل الحشرات التي تهاجم النباتات وأشجار الفاكهة، ومن أهم خصائص هذه المبيدات «صفة التراكم» أي أنها تظلّ عالقة بالتربة الزراعية فترة طويلة من الزمن قد تصل إلى خمس عشرة سنة. إضافة إلى أن هذه المبيدات تضعف التربة، لأنها تقتل كثيراً من البكتيريا المفيدة الموجودة فيها. ولعلّ هذا ما يفسّر سبب تدهور انتاجية الأراضي الزراعية في العديد من دول العالم. فرغم استخدام الأسمدة الكيميائية واستعمال الأساليب الزراعية الحديثة إلا أن معدّلات الإنتاج الزراعي انخفضت بمقادير كبيرة، كما تأثّرت نوعية المحاصيل والفواكه، وذلك نتيجة الإفراط في استخدام المبيدات الحشرية التي أدّت إلى هلاك عشرات الأنواع من البكتيريا المفيدة لتثبيت النيتروجين من الهواء الجوي ولتحليل المواد العضوية.

تمتص النباتات المبيدات الحشرية مع الماء وتركّزها في سوقها وأوراقها وأزهارها وثمارها وبذلك تصبح ملوّثة، وينتقل هذا التلوّث إلى غذاء الإنسان مباشرة سواء بتناوله هذه النباتات، أو بتناوله لحوم الحيوانات التي تتغذى على النباتات الملوّثة مثل الماشية والأغنام والدواجن والأرانب.

ومن المضحك المبكي أن الحشرات أصبحت تتمتّع بحصانة ومناعة ضد تأثير المبيدات، في حين تموت الطيور والحيوانات التي تتغذى على النباتات الملوثة بهذه المبيدات.

٢- الأسمدة الكيميائية التي تضاف إلى الأراضي الزراعية أساساً لإخصاب التربة، تؤدي- هي الأخرى- إلى بعض الآثار الجانبيّة التي تقلّل من قيمة المواد الغذائية، بالإضافة إلى تلويثها للتربة.

٣- استخدام المواد الكيميائية الحافظة في صناعة وتعليب المواد الغذائية، فعلى الرغم من أن هذه المواد تطيل عمر الغذاء، إلاّ أنها تصبح سامّة إذا تجاوزت الحدّ المطلوب، فقد ثبت حديثاً أن بعضاً من أنواعها مضر حتى في التركيزات المخففة جداً.

٤- استخدام الألوان والصبغات ومكسبات الرائحة في صناعة المنتجات الغذائية، حيث تبيّن للباحثين في هذا الشأن أن هذه المواد مسئولة عن عديد من أمراض السرطان؛ فقد اتضح لهم مثلاً أن صبغة النعناع الأخضر الاصطناعية شديدة الخطورة، وكذلك الأمر بالنسبة للشراب الاصطناعي للرمّان، والصبغات المستعملة في صنع بعض أنواع الحلوى السكّرية، وصبغات رقائق البطاطا، والألوان المشابهة للون البرتقال...

ومن أشد المواد المسببة للسرطان وأكثرها فعالية في إثارة ذلك الورم الخبيث لدى الإنسان مادة: [4 ثاني ميتيل أمينو آزوبنزول] 4, Dime-thyl a mino azobenzol التي تستخدم لصبغ المارغرين لإعطائه شكل الزبدة الطبيعية بغية خداع المستهلك.

٥- المعادن الثقيلة التي يتم التخلّص منها بإلقائها في البحار أو في التربة الزراعية كالزئبق والكادميوم. هذه المعادن سامة جداً. وتعتبر الأسماك في طليعة الأغذية التي يمكن أن تتلوّث بمثل هذه السموم، وقد غدا من المعروف أن الأسماك التي يتم اصطيادها من بعض مناطق الشرق الأقصى، وبعض أنواع السمك التي تعيش في مياه الأبيض المتوسّط غير صالحة نظراً لتلوّثها بهذه المعادن الثقيلة.

٦- استخدام الهرمونات للتعجيل بنموّ الحيوانات. وتنتشر هذه الظاهرة في الدول النامية والدول المتقدمة على حدّ سواء، ففي ألمانيا تمّ اكتشاف عصابة دولية تقوم بتصنيع نوع جديد من الهرمونات التي تساعد على الإسراع في نمو عجول التسمين وزيادة وزنها، ولايمكن اكتشاف ذلك

عادة إلا باستخدام تقنيات حديثة لاتتوافر لدى كافة الدول، وبخاصة الدول النامية أو المتخلفة. وقد أشارت جريدة «الرأي العام» الكويتية في عددها الصادر بتاريخ / ١٦ آب/ ١٩٨٨ إلى هذه الحادثة. ومن الجدير بالذكر أن الباحث يلفت الانتباه إلى أن الكيان اليهوداني في فلسطين المحتلة يلجأ إلى هذه الأساليب اللاأخلاقية! وهو يطلق على هذا الكيان اسم «اسرائيل».

٧- يتلوّث الغذاء أيضاً بمواد مشعّة نتيجة لتساقط الغبار الذري على النباتات والتربة الزراعية، أو نتيجة لتلوّث الهواء والماء بمخلفات التجارب النوويّة، حيث تدخل المواد المشعّة إلى أجسام النباتات، وتنتقل عبر سلاسل الغذاء إلى الحيوانات والطيور والإنسان.

٨- المضادات الحيوية التي تضيفها معظم الدول المتقدمة إلى غذاء المواشي والأغنام والدواجن، وهي تضيفها عادة لغرضين اثنين:

الأول: معالجة الأمراض التي يعاني منها الحيوان بالفعل.

والثاني: تسمين الحيوانات والطيور بمعدل أسرع من معدل نموّها الطبيعي وقد تنبّه العلماء إلى أضرار إضافة المضادات الحيوية إلى غذاء الحيوان منذ مطالع ستينات القرن الماضي، حيث تبيّن لهم أن استخدام هذه المضادات بصفة دائمة يؤدي إلى اكتساب أنواع معيّنة من البكتريا مناعة ضدّ تأثير المضادات الحيوية، ولذلك تظل هذه البكتيريا موجودة في لحوم الحيوانات والطيور، ومن ثم تنتقل إلى جسم الإنسان عندما يتناول هذه اللحوم، فتسبب له أمراضاً لا يمكن معالجتها بالمضادات الحيوية.

وقد اتخذت عدة دول بعض الخطوات الجادة لعلاج هذه المشكلة، وذلك عن طريق وضع القيود على أنواع المضادات الحيوية التي تضاف إلى غذاء الحيوان، أو التي تستخدم في علاجه، بحيث تصبح هذه الأنواع مختلفة بقدر الإمكان عن الأنواع المستخدمة في علاج الإنسان، وبذلك يكون من السهل على الأجهزة الدفاعية بالجسم أن تستغل المضادات الحيويّة في قتل البكتيريا والفيروسات التي تسبب الأمراض للبشر.

الحيطة من التلوّث في الموروث العربي الإسلامي:

يذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» كيف كانت عناية «المحتسب» بمراقبة صناعة الخبز، فيقول:

«يكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم، فإن الحاجة تدعو إلى معرفتهم، ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسيل

المعاجن ونظافتها، وما يُغطى به الخبز، وما يُحملُ عليه. ولا يعجن العجّان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قَطَرَ في العجين شيء من عرق إبطيه، ويديه، فلا يعجن إلا وعليه ملّعبة- ثوب من غير كم - أو بشت مقطوع الأكمام، ويكون ملثّما أيضاً لأنه ربما عَطَس أو تكلّم فقَطَرَ شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين. ويشدّ على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيقْطُرُ منه شيء في العجين، ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين. وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبّة عنه الذباب».

هكذا كانت في الموروث العناية بنظافة الغذاء والحيطة والحرص على سلامته وسلامة الإنسان. فهل تفعل وزارتا الصحة والتموين بجدية من أجل سلامة هذا الإنسان؟. نأمل ذلك.

* * *

فنون

السينما تختزل وتختزن

المخرج العربي اللبناني السينمائي، (برهان علوية) إشكالي، وصاحب لغة إشكالية. ومثقف تلعب ثقافته دوراً كبيراً في كتابة موضوعاته، وهو أحد أبرز المخرجين اللبنانيين والعرب، له: «بيروت اللقاء» و«كفر قاسم» المازج بين الروائي والتسجيلي، وعنده «السد» و«رسالة في زمن المنفى».

أفلامه غير المحققة هي بمرتبة أفلامه المحققة، كما ينقل عنه محاوره (عبيدو باشا) الذي حاوره حول الأساسيّات في عدم نهوض صناعة سينمائية راهنة، خصوصاً في لبنان والخليج العربي(٢). وإذ يسأله المحاور: «ما هي الثقافة عند برهان علوية؟». يجيب: الثقافة دائماً هي ربط الحاصل بالذي حصل وبالذي سيحصل. وهذه هي الثقافة في إطارها الأضيق والأوسع، ممنوع حضور الثقافة في هذه المرحلة. لذا تراها غير موجودة. أعود دوماً إلى تعمير لبنان، لأنها حركة ذات دلالات واسعة، راهنة ومستقبليّة. لقد جرت بدون طرح أي سؤال، وليس بدون جواب، جرت بدون أن يطرح السؤال، حول هويتنا، حول من نكون. لم يسأل أحد:

من نحن. لم يجر أخذ سؤال من أسئلة الحرب ومعالجته. لم تجر قراءة نقدية لأي مرحلة من مراحل الحرب، اندفعنا إلى إعادة التعمير بدون طرح أسئلة موضوعية حسّاسة وحاسمة وموجودة، لم تطرح إشكالية واحدة في أثناء المرحلة الجديدة في تاريخ لبنان، لاشيء، لم يطرح أي شيء على بساط التساؤل والتعرف إلى الذات، بعد الحرب في لبنان. آلاف القتلى، والجرحى والمعوّقين، نظر إليهم في لمحة خاطفة، ثم تركوا بدون أي تذكّر بسيط.

التخلّف لايمكن أن يعطي ثقافة.. التخلّف لايمكن أن يخلق ثقافة. الثقافة لاتنهض وحدها، خصوصاً حين تكون ثقافة مرميّة، ثقافة مرفوضة، ثقافة مهجّنة بلا دور. والبلد المتخلّف لاينتج ثقافة، ولأنه لاينتج ثقافة تعدّدت أساليب المثقف في التعاطي مع الأوضاع الراهنة. هناك من يستزلم، وهناك من يستسلم، وهناك من لايزال يعمل في هوامشه المتاحة الضيقة، لأنه يدرك بأن غياب المسالك العريضة العامّة يؤدي إلى سلوك الزواريب الصغيرة، إلى سلوك «القادوميّات» وهي اليوم تلعب دور الشرايين الصغيرة، في ظلّ انسداد الشرايين الكبيرة.

على المثقف اليوم أن يسبح في شرايينه الصغيرة، وإلا لوقع بالهرطقة، في اللامعنى، لغاية ماذا يسأل، لمن يسأل، ولمن يعطي الجواب. إننا في مرحلة فقدان كافة الظروف المهيّأة لحضور المثقف. من النشاط الفكري إلى الحرية الداخلية والمعرفة الواسعة والصدق والتطرّف بالتعبير.

* التطرف...

– بلا معرفة، يبقى التطرف تطرّفاً... المثقف عكس العالِم، والعالِم لادور له عندنا.

* ولكنك تردّد دائماً أن علاقة المثقف بالعلم قوية.

– لاثقافة بلا علم ولا هدف بدونها، إلا أن المثقف غير العالِم، والعالِم غير المثقف. (!!). الصدق في هذه الأحوال ضروري. لاحركة حقيقيةَ بدون صدق في أيّ من المجالات.

* هذه هي الظروف التي تمنعك من العمل اليوم؟.. عندك مشروع سينمائي مؤجّل بعنوان «الحرامي».

– ليست هذه الخريطة المرسومة بالأوضاع الراهنة، ما يمنعني عن العمل ليست هي وحدها، هناك سؤال السينما نفسها. كيف انبنت وكيف استمرّت وتستمر، دور السينما، تحديدها، قول الحقيقة؛ الحقيقة الحقيقة،

السينما ذات حضورها، لأنها تختزل وتختزل وتختزن في حضور هام حكاية الحريات. ليس بمعنى أن يقول الفرد، المواطن، المثقف، مايريده. بل بمعنى أن يعرف ما يريد. وأن يكون المجتمع يتيح المعرفة، حاول أن تعرف اليوم أي شيء في لبنان، عن لبنان، تجول فيه وعد لكي تروي ما استخلصته أو استنتجته من تجوالك، سوى المترجمات والكومبيوتر والعولمة، تبحث فلا تجد أمامك ما تقوله عن بحثك. بات المجتمع مسطحاً والعلاقات مسطحة. الحرية معرفة بالأساس... على الإنسان أن يكون حراً دائماً، ولكي يكون كذلك عليه أن يخطىء، ذلك أنّ الثقافة ليست ديوان محاسبة.

ويسأله محاوره: لنعد إلى السينما.. إلى الحديث عن تخلّف السينما، عن الحضور وعن نكوص المحاولات السينمائية الأخيرة في لبنان. فيجيب:

- مقادير الحرية، تمنع حضور أي شيء تأسيسي على هذا الصعيد، من يضع أموالاً في السينما، وهو يرى مقص الرقيب مسلطاً على رأسه وعلى لقطات الفيلم، الرقابة تلعب دوراً سلبياً هنا. إنها تخلق ظروفاً استثنائية تسود في العالم العربي والاسلامي. كيف تنتج المؤسسات العامة والخاصة، ضمن دول لاتزال الرقابة تلعب أدواراً متقدّمة في حياتها العامة، إذا كانت الممنوعات أكثر من المسموحات فيها. وإذا كانت الممنوعات شيئاً مزاجياً. المزاجية رسمت رقيباً غير طبيعي يقول الرقيب: هذه اللقطة لاتعجبني، يقصّها. لاتعرف لماذا لاتعجبه، لأن ليس ثمة شروط واضحة كمقياس يتبع دائماً. حتى إن الرقابة أصابت أفلام تلاميذ الجامعات. أُلغيت لقطة من فيلم تخرّج...

هذه الممارسة ليست ممارسة رقابة على ممنوعات، بل تصرّف قضاء. هذا افتاء، كيف تقول ثقافة في هذا السياق... الأوضاع لن تفرز ثقافة لأنها متخلفة. والمثقف ليس زراً يُنتج ثقافة حين تضغط عليه.

* كأنك تؤكد على أن الأوضاع كانت أفضل في فترة ما قبل الحرب، تلك التي أدّت إلى اندلاع الحرب الأهلية في لبنان.

- بالضرورة، لأنه لم يكن هناك رقيب. كان لبنان محلاً للحرية، لأن الرقيب كان غائباً، لم يكن موجوداً على أي شيء. كانت المدينة بدون رقيب.

* ولكنكم في معظمكم صنعتم أفلامكم في فترة الحرب. السينما اللبنانية الجديدةازدهرت في خلال الحرب. سينماك وسينما مارون بغدادي وجوسلين صعب وهيني سرور وبهيج حجيج وجان شمعون.

- عندنا سينما، عندنا أفلام في مرحلة ما قبل الحرب، ولكنها أفلام مختلفة تماماً حدث شيء مختلف خلال سني الحرب، أنتج ثقافة ومثقفين

وسينما. السينما وَجَدت جدتها وتجديداتها حين دخلت إلى فيلم المؤلف والمثقف وليس فيلم المخرج أو المبدع فقط. استفادت من القصيدة العربية، من اشكالياتها، استفادت من الرسم، دخلت موضوع الثقافة مع بداية الحرب. بعض السينما العربية ذهب في ما ذهبنا إليه. في السينما العربية وفي السينما المصرية.

أين راوحت سينما ما قبل الحرب؟

– جرت المعارك حول اللهجة عندها. سأل المخرجون أنفسهم: نعمل أفلاماً باللهجة المصرية أم باللهجة اللبنانية. نتتج سينما جمهور أم ماذا؟. كانت سينما تسلية ولهواً، يتتجها الشطار في مجالها. فلسطين شكّلت قصتنا وقصة كلّ العرب، أخذ القطاع العام على عاتقه انتاج أفلام في الموضوع الفلسطيني. تجربة أفضت إلى أفلام غير ناجحة إلى حدّ ما، ولكنها تنتهي إلى الموضوع الثقافي.

تجربة السينما البديلة

فسّر المحاور ما وصله من الفنان علوية بما يفيد أن الفيلم ينجح بدون أن يكون فيلما، هكذا كان، أي أن تغيب السينما ويحمل الموضوع «الفيلم» إلى علاقة بجمهور ينتظر تحريضه عبر موضوعات معيّنة. ويجيب علوية:

– هذا موضوع آخر، ولكنه يطالب كافة القطاعات في الفن والثقافة، المسرح مثلاً، لا يمكن لمجتمع – عندي – أن يكون فاشلاً في الصناعة والزراعة، وأن ينجح في الثقافة، النجاح عام والفشل عام، عندنا الجهل يعم، في باريس المعرفة تعم، عندنا بعض العارفين في ظل تعمم الجهل. في باريس هناك بعض الجاهلين في ظل تعمم المعرفة.

نحن جئنا وطرحنا معادلات: السينما في الحرب، السينما والحرب، السينما «خبيط»، دار «الخبيط» دار الضرب في الطريق إلى سينما بديلة، مناضلة، سينما بدائية، وهذا لم يمنع السينمائيين الذين عندهم سينما، من أن يتابعوا العمل في السينما، هناك أناس صنعوا موضوعهم في السينما، هذا هام، كل هذه التجربة، تجربة السينما البديلة، ناسها، نقادها، العارفين والجاهلين، مخرجوها؛ مخرجوها الكتاب أكثر، دخلت إلى العالم لكي تجد نفسها في مواقفها، في تونس ومصر والمغرب والجزائر، استمرّوا. في تونس صار هناك ما يقارب الأربعين – خمسين مخرجاً في مرحلة من المراحل. صنعوا سينما، استطاعت أن تفرز أناساً متخصصين في الإنتاج والسكريبت والكتابة، ليس بالضرورة أن يبقى كل من يريد

العمل في الإخراج مخرجاً. هذه عملية تفترض أن تدخل في المهنة. لكي تعرف أين تصير وأين تنتهي في المهنة، صاحب مهنة واحدة.

* ولكنّ السينما في لبنان شهدت لحظات مختلفة قبل الحرب، لست أتحدّث هنا عن اللبنانيين الذين عملوا في السينما وحدهم، هناك مصريون عملوا في لبنان، في أيام التأميم.

- أعطانا هذا رصيداً. وتلك فترة ساهمت في الوصول إلى ما وصلت إليه السينما في تونس. أي تحديد مهمات الضرر وفي إطار عمليات الانتاج السينمائي.

هذه قصة ذات معنى. جاء بعض الموروث في السينما المصرية، من خلال هجرة بعض المخرجين المصريين إلى لبنان وهجرة بعض العاملين في مصر من اللبنانيين إلى لبنان. صار عندنا كاتب سيناريو وممثل ومخرج ومنتج. محمد علي الصباح اشتهر كمنتج. هذه مهنة صاحب عناصر وتفاصيل كاملة.. أصبح عندنا استوديو بعلبك. آليات الانتاج حتمت حضور استوديو، صار عندنا مصورون، كروبي بريدي مصوّر ممتاز. صار عندنا مركز سينما. فيلم مارون بغدادي الأول صوّر في بيروت (بيروت يابيروت). صار عندنا أشياء جامعة، في بلد يفور داخلاً في مقتضيات الصناعة السينمائية.

كل العرب كانوا في لبنان في السبعينات والثمانينات، وقبلاً في الستينات. من يوسف وهبي إلى محمود درويش ومن يوسف شاهين وبركات إلى ثنائي فهد بلان ومريم فخر الدين. أحدث هذا تفاعلات عملية كاملة. لم تر السينما لأنها كانت طرية العود، ولكن الحرب أعطتها موضوعاً.

* وما الذي لفتك أكثر في تلك المرحلة؟

- لم يستشعر أي من الأفلام خطراً ما يقترب. لم يكن ثمة من قلق علني أو ضمني. مع أول رصاصة، كل شيء قائم على الصّور تكسّر. لأن كافة الأفلام اللبنانية اكتفت بتصوير السطحي: صنوبر وبيت مري وكازينو لبنان، وكافة المناطق السياحية الأخرى.

* في واحدة من اللحظات الفارقة نكتشف أن السينما الجديدة هي المنتشرة في العالم.

- هذه ملاحظة تامة. انتشرت السينما العربية الجديدة، في حين لم تنتشر السينما المصرية الهابطة. يوسف شاهين انتشر، لأن فكره هو موضوعه. مثله يسري نصر الله ومحمد خان وعاطف الطيب وغالب شعث وأسماء أخرى. بدأت الحكاية تختلف منذ سنوات بعيدة، مهرجان قرطاج أعطى فيلم «المخدوعون» لتوفيق صالح جائزته الأولى، لقد بدأ بالتغيير. ونحن أحسسنا به. عبر السينما الجديدة، صار للسينما موضوعها.

أنت كسينمائي لا تستطيع أن تحكي لغة الأكثرية، إذا لم تحك خصوصيتك، وبالعكس. قبلاً حاول جورج نصر السينمائي اللبناني أن يعمل موضوعاً في فيلمه «إلى أين». غير أن معظم المخرجين تلهوا بالفاصلة بين اللهجتين اللبنانية والمصرية في مرحلة إرهاصات، ثم لم تعد الحرب تقول إلا عبثها.

وعن سؤال يستفسر عمّا إذا كانت تجربة برهان علوية السينمائية قد عبّرت عنه؛ يخبرنا بأنها عبّرت بشكل متقطع. أي أنها تعبّر «عني في أفلامي التي نفذتها وأفلامي التي لم أنفذها». فالسينما عنده تفاعل وانفعال، تتحول إلى لغة داخلية، إلى شعر داخلي. الأفلام التي لم «أحققها استفذت من العمل عليها كثيراً. أبحرت فيها. فيلمي الذي لم يتحقق عن جبران، أوصلني إلى تحويل نظري إلى جبران إلى نظرة لنفسي. استطعت أن أجد في جبران، الطريقة التي أحب أن أفسّر الكون بها. فيلم «الأمير» الذي لم أنفذه. تموت فيه المجوعتان المتخاصمتان في المكان الواحد، وهما يظنان أن كلاً منهما مسنود إلى جهة خارجية. تراجيديا مهلكة. هذه هي الحرب».

* هناك تجربة سينمائية في كافة العالم العربي إلا في الخليج.. ماتفسير ذلك؟

- الجيل الجديد في العالم العربي والخليج فيه، عنده طموح الدخول إلى عالم ولغة الصورة. الدخول إلى الشاشة، تحقيق ذلك يرتبط بالامكانات والحريات المتاحة. لم ننتقل من الشفاهي إلى المكتوب إلا من حرية أكثر. الكتابة بحد ذاتها أتت بحرية أكثر. فما تكتبه يحسب عليك، غير ما تقوله. ذلك أن الذي تقوله يمكنك إنكاره. المكتوب لا. النقلة من المكتوب، من الورقة إلى الشاشة يحتاج إلى حرية أكثر. الروايات لاتمنع إلا حين تتحول إلى أفلام. في العالم العربي ندخل إلى حرية أقل بدل حرية أكثر. لذا تصاب السينما، وتصاب الفنون الأخرى بالضمور.

دراسة

تأسيس الأدب المغربي الحديث

يعد كتاب الناقد والروائي العربي المغربي (محمّد برّادة) الموسوم بـ«في رحاب الكلمة»، يعدّ نموذجاً للكتاب / الحوار / الذي ترتسم من خلاله حياة برادة سواء من حيث العلاقة والتدريس أو من حيث

الشخصية الجامعية، أو الصلة ومجال الإبداع: النقد وكتابة الرواية، وهو الوجه الثاني ولربما المتداول أكثر من سابقه.

احتوى الكتاب / الحوار / الدراسة / معاً، احتوى على مقدّمة وفصل أول حمل عنوان «التجربة النقدية»، فيما الفصل الثاني وسم بـ« الأدب والحقيقة»، والأخير بـ«الكتابة؛ الحب، الجنس والموت». . وإذ نقول: «الكتاب الحوار» فهذا يعني أنّ حواراً مركزاً في تضاعيف الكتاب كان قد أجراه مع برادة السيدان (عثماني الميلود) و(بوشعيب شداق).

يتعلّق موضوع الفصل الأول من «التجربة النقدية» بفكرة تأسيس الأدب المغربي الحديث. . وهي فكرة يحق اجتزاؤها إلى: [التدريس، الترجمة والمأزق، الهوية والانتماء].

اشتغل برادة بالتدريس الجامعي في أعقاب عودته من القاهرة حيث كان يدرّس، ولقد كان ولعه بالآداب واهتمامه بالكتابة، الخلفية المحركة لنشاطه المبتغى منه إرساء أدب مغربي حديث يساير مرحلة الاستقلال الجديدة، كما تطلّعات بناء مجتمع مغربي منتج. . ولعلّ هذه الفكرة، كما يخبرنا صدوق نور الدين، (٣) تعمقت غداة إصدار برادة مجلة «القصة والمسرح» العام ١٩٦٤ بمشاركة كلّ من القاص (عبد الجبار السخيمي) والاعلامي، الوزير، (محمد العربي المساري). . يقول برادة: «بعد عودتي من القاهرة كنت، في الحقيقة، مشدوداً إلى مجال الآداب والكتابة والتطلع إلى الإسهام في إرساء الأدب المغربي الحديث والوليد». ويضيف بما يشير إلى أن علاقته توطدت، شخصياً، بالقراءة في هذه المجال بعد أن حضّر شهادة الدروس المعمّقة في الفلسفة مع المرحوم (عزيز الحبابي).

عن أن من عوامل تأكيد الأدب الحديث وإقراره، الانفتاح على ثقافة الآخر، وكيما يتم ذلك، تحقّق الرّهان على سؤال «الترجمة» في مجال العلوم الإنسانية. . وبالفعل تمّ نقل النصّ الأقرب، وهو الفرنسي، مجسّداً في المناهج الحديثة كالبنيويّة، والبنيويّة التكوينيّة، في محاولة لخلق الملاءمة بين النص الجديد والمنهج الجديد.

إلاّ أن مأزق استحضار الآخر على مستوى التدريس وغيره، يتجلّى في كون الكفاءات المنخرطة في هم التعريف وإرساء الأدب الحديث، لن ترقى إلى تجاوز دور الوساطة والاستعارة، بتعميق المعرفة ونقدها، ويبدو أن انعكاسات هذه الوضعية تمتدّ جذورها إلى اليوم فيما يتعلّق بخصوصية المناهج وصعوبة البيئة، خاصّة في مجتمعات تقليدية تتأكد صعوبة تحوّلها إلى مجتمعات حداثية عقلانية: «ما حاولنا إنجازه، إذن،

هو أن نقدّم بعض الترجمات التي تلقي الضوء على المنهج البنيوي التكويني، وعلى المنهج البنيوي، وأخرى تتصل بالمنهج النفسي والمنهج السيميائي».

ثم: «إن صوت الآخر (وهو صوت أوربا) حاضر بقوة وأنّ ما نفعله لايعدو أن يكون نوعاً من الترديد ونوعاً من التصريف لتلك الكتابات دون أن نفهم ذلك الإنتاج الفكري الغربي فهماً تنسيبياً وسياقياً حتى نتمكن من تمثّله ومحاورته أو تجاوزه إذا أمكن».

وبغية استجلاء الخلفيات الأيديولوجية الكامنة وراء قناعة ترسيخ أدب مغربي حديث، فإن الالتصاق بالاجتماعي والسياسي يعتبر من الآليات المحركة لفعل الكتابة.. أما بخصوص برادة ذاته فإنه لم يكن على مستوى التوجّه الماركسي، وإنما قومي عربي ناصري، وذلك بحكم المرحلة التي أمضاها بالقاهرة والتي وسمته بطابعها. يقول: «هنا أميل أكثر إلى القول بأن تأثير السياق المجتمعي (السياسي والأيديولوجي والثقافي) هو الذي كان يوجهنا ويطبعنا». ثم في مكان آخر: «أنا لم أكن ماركسياً.. كنت أقرأ في هذا الاتجاه وكنت أقرب، ربما، إلى الاتجاه القومي الناصري لأني عشت في مصر فترة صعود الناصرية».

إن ما يمكن ملاحظته بصدد تأسيس الأدب المغربي الحديث:

أ- ارتباطه بالتربوي التعليمي ممثلاً في التدريس المتعلّق بالنص الجديد أو الكتابات الجديدة.. وإلى التربوي يحضر الهم الاجتماعي والسياسي الذي طبع مرحلة الستينات والسبعينات، ليسم أكثر من نص إبداعي شعري وسردي.

ب- الانفتاح على الغرب، خاصةً فيما يتعلّق بالعلوم الإنسانيّة، بحثاً عن المنهج الملائم لاستقراء واستجلاء خصوصيّات هذه الكتابة الجديدة، وكان المتكأ عنصر الترجمة على الرغم من مأزق التبني والاستيعاب.

ج- شاركت عدة فعاليات مغربية (برادة) الهمّ ذاته والاهتمام في مسألة بناء وتأسيس أدب مغربي حديث، وخاصةً منها تلك التي شاركته مسؤولية تسيير وإدارة اتحاد كتّاب المغرب.

الأدب أم الواقع

ليس الحديث عن إشكالية الأدب والحقيقة، سوى الاستعادة الدقيقة لعلاقة النص بالواقع، أو ما عرف سابقاً بمسألة الالتزام، أو أنه ما أثير بخصوص نظرية الانعكاس.. والحقيقة هنا ليست المعطى الفلسفي المجرد، وإنما الحقيقة الواقعية التي يعمل النص الأدبي على صوغها وإعادة انتاجها..

فالصورة التي توجد عليها هذه الحقيقة واقعاً، لاتماثل في شيء ما هي عليه في الكتابة الأدبيّة.. فالصيغة الأدبية تتأسس على الأولى لكنها لايمكن أن تكون، من ثم اعتبرت الحقيقة الأدبية نسبيّة وليست مطلقة، ومثلها الحقيقة الفلسفية، على التباعد الحاصل في مستوى القولين الأول والثاني: «إن مسألة الحقيقة نسبيّة، والطريق الإبداعي إليها منفتح على كلّ الوسائل، سواء كانت كذباً أو تخييلاً أو استيهاماً..».

وفي مكان آخر يقول: «النص الأدبي ينتج معرفة ولكنها لايمكن أن تقاس كما تقاس المعارف الأكاديميّة والعلمية المضبوطة».

فالتباعد المشار إليه تتحكم فيه الخصائص البلاغيّة لانتاج قول أدبي، وفي ذلك يحضر المجاز والاستعارة وتوليد النص من نص سابق عليه.. وهو المسار ذاته الذي انتهجه بعض الفلاسفة لإيصال أفكارهم وأقوالهم المجردة.. فالحقيقة بالنسبة إليهم لايمكن أن تفهم وتعرف، في غياب الصوغ الأدبي.

على أن الأدبي في حقيقته - كما يرى (برادة) - لايعد المستقل بذاته، وإنّما هو جزء من بنية موسّعة تشكل النص الثقافي، والأخير ذاته يُخترق من طرف نصوص أخرى: «إنّ كل نص أدبي هو نص جزئي، بالضرورة جزئي وتجزيئي من نص عام وأشمل هو النص الثقافي في فترة ما وفي حقل ما، يكون بطبيعة الحال مخترقاً بنصوص أخرى من التراث، من الماضي، وبنصوص أخرى: مسألة التناص مسألة غير لسانية..».

إنّ التعريف السابق للحقيقة الأدبيّة يبدو عاماً، فيما الخاص يتحدّد انطلاقاً من تصورّ (برادة) لها، من موقعه الروائي والنقدي، وهو التصور الذي تتحكم فيه:

* آليات فهم النص
* فكرة تشكيل وتخليق النص
* المرجعيات الأدبية والهوية الأيديولوجية.

فالنص الأدبي بالنسبة لبرادة بمثابة التوسيع الخيالي للواقع، فإن كان الأخير يعاني «بياخته» وثقوبه، فإنّ ما يوسّعه أساساً التخييل.. فلكأنّ الواقع ضيق، بينما هو في النص الأدبي شاسع: «كل كتابة تنطلق من الواقع ولكنها تنتهي إلى شيء مغاير تماماً للواقع، هو التخييل..».

إن ما يمكن ملاحظته بصدد الفصل الثاني المتعلّق بالأدب والحقيقة، كونه ركّز على الأدبي بشكل أقوى، فيما تغافل البعد الفلسفي للحقيقة، إذا ما صدرنا في الرأي عن كون كل كاتب ومبدع يمتلك فهماً فلسفياً ورؤية

كذلك- أو أنه يجب عليه امتلاكها- هي ما يدفع إلى إنتاج النص الأدبي.

بيد أن التحديد الدقيق للحقيقة بما هي نسبية، يعد بدوره مفهوماً نسبياً غير مطلق وغير ملزم؛ إذا ما اعتبرنا مرجعيات القراءة والتأليف تتحكم في إنتاج الرأي واستصداره.

على أن صدور الرأي عن شخصية (محمد برادة) يجدر أن يتحدّد في وجهتي النظر المقصودة، أهي وجهة الكاتب الناقد، أم وجهة الروائي والقاص؟ ولا خلاف أن ثمة مسافة بين الوجهتين.. وكان يمكن أيضاً تعيين الحقيقة فهي النصّ الأدبي.. أهي حقيقة النص الأدبي والحداثي، أم أنها حقيقة التجارب الماقبل هذه المرحلة؟ ولئن كان شخص المبدع في النصين بمثابة مصلح ينشد ترسيخ فكرة التقدم.

الروائي والحياة

يحق القول: إنّ القسم الأخير من هذا الكتاب / الحوار/ الدراسة/ يُفرد للحديث عن الرواية اعتباراً من كون (برادة) يزاوج بين وظيفتين: وظيفة ناقد للرواية، ثم المبدع لها والمضيف لبقية تجاربها.. من ثم تتأتى الإحاطة بالقسم الأخير وفق اجتزائه إلى:

* انتاج النص/ إنتاج الكتابة.
* الأسئلة الذاتية للرواية.
* التصور الممكن للرواية في المغرب.

ويمكن في ضوء هذا الاجتزاء، النظر في النقطة الأولى من حيث كونها تتصف بطابع العموميّة، فيما الثانية والثالثة تتسمان بالصيغة الخاصّة، حيث تبرز شخصية الروائي أولاً والناقد ثانياً.

إن إنتاج النص أو إنتاج الكتابة، يبدو في بعض الأحيان فعلاً عبثياً.. ذلك أن ما سينتج ويقال يعدّه البعض إعادة فقط، بحكم أن السابقين من الكتاب والمبدعين أتوا على قول كلّ شيء وبروح إنسانية عالية، حتى لتبدو كلّ إعادة بمثابة تكرار وفق ما ذهب إليه الشاعر الجاهلي.. وبالرغم من ذلك فإن قيمة ومستوى هذه النصوص السابقة أنها الدافع الأساس إلى إنتاج القول والاستمرار، القول الرابط بين الماضي والحاضر بحكم التجدد والذي يسم الحياة الإنسانية. لكن ممارسة فعل الكتابة والإبداع، فعل التجدد والتجديد يرتبطان بقاعدة اللعب، حيث يعد الانخراط في هذه الممارسة بمثابة نزوع إلى إقصاء المتداول والمبتذل، نحو خلق الجديد غير المألوف ولا المتداول.. على أن اللعب لا ينبغي أن يؤخذ في سمته السلبية، وإنما الإيجابية المرتهنة إلى تشغيل الخيال.

وبخصوص الأسئلة الذاتية للرواية، تبرز شخصية الروائي وهو يخوض في الحديث عن تشكيل عالمه الإبداعي، وبناء شخوص وضبط العلاقات فيما بينهم في نوع من الحوارية والتعدد الصوتي الذي يجعل من كل نص روائي عالماً قائم الذات يحيل على المسار الابداعي، كما على الخلفية الاجتماعية السياسيّة في واقع تتمسّك بآلياته أقلية محدودة من ثم، تساق القراءة المقارنة بين التجربتين الروائيتين لـ (برادة)، تجربة «لعبة النسيان» وتجربة «الضوء الهارب»، وبذلك تكون الأسئلة الذاتية للكتابة الروائية قد ركّزت على (برادة) الروائي، فيما تغاضت عن (برادة) القاص إذا ما ألمحنا لكون نواة شخصية «الروائي) كامنة وموجودة في «القاص»، وفقاً لما دلّت عليه المجموعة القصصية الوحيدة لبرادة، المسماة «سلخ الجلد».

وكان بالوسع اتخاذها منطلقاً لتأسيس الحوار حول مساره الابداعي. ثم إنه من غير المستساغ، حسب صدوق نور الدين، عدم التطرق لبدايات الخطاب السردي لكاتب عرف منذ البداية كقاص وليس حتى كناقد، إذا ما رغبنا في تشكيل تصورّ جامع، وعبر حوار، حول الحياة الابداعية لـ (برادة).

وفي القصور الممكن للرواية في المغرب يقترح (برادة) مشروعاً لما يجب أن تتأسّس عليه الرواية كيما تكون فاعلة منتجة. . وبالإمكان اختصار مشروع التطوّر في النقاط التالية: [التذويت، تعدد الأصوات، تعدد اللغات]. والملاحظ أن النقطة الثانية ترتبط بالثالثة في أكثر من نص روائي عربي.

التذويت، إعطاء الكلمة للذات كي تسمع صوتها، وهي أصلاً الذات المغيّبة بحكم عدة عوامل وظروف حالت، أو تحول، دون ذلك. . بيد أن إرجاع الكلمة لها، إحقاق لحق من حقوقها في تعرية نفسها وإحراز الصفة المدنية التي عليها التمتع بها. والتذويت، حسبما يفهمه برادة هو «إعادة الكلمة للذّات، وهي تواجه أسئلة المجتمع، أسئلة الآخر، أسئلة الكون، أسئلة من كل نوع. . ». / ص57/

إذا كان المطلوب من «التذويت» إرجاع الكلمة للذات، فإن هذه الأخيرة ليست واحدة، بل متعددة، وبناء عليه لم يعد مطلوباً من جنس الرواية الاستماع إلى سلطة الصوت الواحد المهيمن بقوّة، وإنما خلق وتشكيل تعدد صوتي تنتفي معه الهيمنة وتندحر السلطة. إنه الكل المتعدد لا الواحد الفرد. يقول براد في مكان آخر: «. . فالرواية، في نظري، في المغرب، وفي هذه الحقيقة، يمكن أن تكون وسيلة لتغريب اللغة، كما يقول. لإبلاغ هذا التنوّع داخل اللغة الواحدة».

لقد وضعنا «الكتاب / الحوار» أمام ثلاثة وجوه لـ (برادة): المدرس، الناقد، الروائي. وهي أصلاً وجوه متداخلة ويكمل بعضها الآخر. والكتاب/ الحوار يوثق لمرحلة من مراحل نشأة الأدب المغرب الحديث التي أسهم فيها برادة إلى جانب مبدعين ومثقفين مغاربة آخرين.

شاعر وقصيدة

موت العَسَل

كنت أدعوه «الولد الفلسطيني» يوم كان بيننا، وكان يفرح.. كان ولداً، وكان فلسطينياً، وكان مع ذلك يفرح بما أدعوه، أو ندعوه، وكأنّا نكنّيه بـ«أبو فلان»، باعتبار أن «الولد الفلسطيني» يمثّل عطاءه الشعريّ في خطواته الأولى.

سمّاه والده (أحمد) في قائمة اللقب الأسري «دحبور» فصار منذ شهدت عيناه دنيا التهجير يُعرف بـ (أحمد دحبور). ومع مطالع ستينات القرن الماضي عرفته بهذا الاسم وتعرّفته حين سمعته للمرة الأولى يقرأ قصيدة.

كان ذلك في مكان «ملحوش» بين بستان مهمل وبيوت عشوائية أقامها أصحابها تهريباً على الحد الفاصل بين منطقتي الخطيب والإنشاءات بدمشق، وكان ذلك المكان بمثابة منزل لشاعر رومانسي اسمه (محمد كناكري) رحمه الله.

قرأ (دحبور) قصيدة مغايرة تماماً، حسبما وجدتها يومذاك، طبعاً كنت زائراً ولم أكن مشاركاً، أي أنني كنت مستمعاً رغم أن أصدقاء المرحوم كناكري كانوا مشاركين جميعاً، فكل واحد يقرأ ما لديه ويروح الآخرون يبدون آراءهم فيما استمعوا إليه. وبوصفي كنت محايداً، أي غير مشارك، فقد كانت آرائي موضع رهان لدى المشاركين.

أحببت قصيدة دحبور وانتظرت نشرها.. ولكن الأيام والليالي توالت وتتالت حتى خرج علينا دحبور بـ«الولد الفلسطيني» وصرت، بل صرنا ندعوه به بيد أني لم أعثر على تلك القصيدة الطفلة تطوق جيد «الولد الفلسطيني».

أذكر أنه، فيما بعد، شارك في العديد من ندوات كاتب وموقف، فقدّم مداخلات من بين الحضور في شعر (أبو سلمى) وفي المشروع النقدي عند كمال أبو ديب وفي شعر خليل حاوي وحلل باقتدار صمت حاوي

عن العطاء الشعري بعد ديوانه الثالث، مثلما كان قد تحدّث باقتدار أيضاً في مسألة «البنية الايقاعية في الشعر العربي» بوصفه واحداً من الذين يمتلكون زمام العروض بكل حيثياته لدرجة أنه يعطيك الخلل الوزني بأسرع مما يمكن أن يقوم به واضع هذا العلم ذاته.

حين بدأ خطواته الشعرية الأولى كان مترعاً بالزير سالم وبكائه على (كليب)، وكان يتوقف عند سطوره المشطورة التي تنتهي بحرف واحد. ومنذئذ راح يقلّد تلك السطور دون أن يعرف أن هذا النوع من الكتابة يسمونه «شعراً» وأن الحرف الموحَّد هو «القافية». ويومذاك لم يكن يعرف أن ثمة مايدعى بـ «الوزن» قد سمع به من قبل إلاّ غداة وصوله مرحلة الدراسة «التجهيزية» وأخذه عن أستاذه، الشاعر العربي السوري، الحمصي، موريس قبق الذي يكن له دحبور كلّ عرفان بالجميل، ولطالما كان يتغنى باسمه في المجالس وحيثما أتيح له ذلك، وعبر هذا الأستاذ عرف دحبور «الشعر الحديث» أو «قصيدة التفعيلة» التي كانت في بداية الستينات، عند العديد من الفاعلين في المجتمع التقليدي كفراً صريحاً وكانت بمثابة «خيانة وطنية». ومن طبيعة الأشياء أن التقليدي عدوّ صريح للتغيير.

ولقد اعترف دحبور في غير مجال أن المرحوم موريس قبق أعطاه مفاتيح الحداثة المتاحة بين يديه بسخاء حاتمي، ووضعه أمام حساسية عالية تجاه اللفظة الشعرية والسيطرة على الإيقاع. وقد طبق دحبور مسألة الإيقاع تطبيقاً عملياً في مجموعة شعرية له سمّاها «واحد وعشرون بحراً»، اختلفت كل قصيدة فيها، وزناً، عمّا سبقتها، من ثم ما عدت أعرف أين وصل خط دحبور الشعري إلا عبر قصائد ترد ني متفرقة عبر هذه المجلة أو تلك محكومة بالصدفة المحضة، وكان مما أتاحته لي مجلة «الكرمل» بالعدد / 60/ صيف 1999/ نصوصاً لشاعرنا هذا جعلها في عنوان عام «موت العسل» وفيها نصّ كُتب بطريقة «النثيرة» أو مايسمونه بـ «قصيدة النثر». ومن المفاجيء لي - على الأقل - أن يميل العروضي الوزني الإيقاعي التوقيعي إلى «النثيرة»؛ وقد أردت الاستئذان في نشر هذا النص النثيري إلا أن نصاً آخر شدّني إليه أكثر، ليس لاعتبارات فنية، بل لاعتبارات وجدانية، لهذا أجدني مندفعاً لاستئذان كلّ من «الكرمل» ودحبور، أو الولد الفلسطيني، [طبعاً عنوان مجموعته تلك هو «حكاية الولد الفلسطيني»]، صديقاً وشاعراً في نشر هذا النص بمقاطعة الثلاثة، إحياءاً لذكرى (قبق) وتوكيداً على الوفاء الذي ظلّ يكنه الولد الفلسطيني لمعلمه الأول:

موريس قبق

١- المعلم الأول

لكلٍّ معلّمُه الأولُ
وأنتَ هُوَ
كذبتُ، كما الطفل: إنّي تتبّعتُ عصفورةً فتقصّف سِلْكُ الهواءْ
وصدّقتني
وأغريْتُ عاصفةً بغزالٍ وسابقتُه، فسبقتُ
فباركْتَ جمهرةَ النار في خطواتي
وأعلنتُ أنّي تلكأتُ عن دعوةِ النهر فاختنقَ الماءُ بالسَّمكِ
الخائب
فقوّسْتَ لي حاجبيكَ على محملِ الجدِّ: هذا كثيرٌ!!
تماديْتُ في الزَّعْمِ أنّي عصرْتُ التُّرابَ فسلّمني سرَّهُ للذَّهَبْ
لهذا تساءلْتَ إن كانَ في بيتنا حجرُ الفلسفةْ
وحين دلَفْنا إلى العرسِ فاجأتَ أهلَ العروسْ
بما كان منّي ولي
رَوَيْتَ لهم ما رويتُ
وقلّبتُ عينيَّ في اللمزِ ينبتُ في عوسَجِ السخريةْ
- لماذا وشيْتَ؟
سألتك فاحترقَ الشجرُ الأخضرُ
ومن دَهَشٍ ودخانٍ أتى صوتُكَ الأبويّ:
لماذا أشي بكَ؟ إنّي أصدّقُ ما قلتَ، فليعلَم الآخرون
ومنْ يومها قلتُ ما يُعجبُ الناسَ
واحتفظْتُ بجنونِ العناصرِ نفسي

٢- وردة الاختلاف

لماذا بلا صاحبٍ أنتَ
- إنّي ضئيلُ الحوّاس، وممتلىءٌ بالجهاتِ،
ولدتُ بعينين لا أربعٍ، ويكونُ يطوفُ بعينيَّ حتى رأيتُ
الزرافةَ والفهدَ، واستقبلتْني الزّرازيرُ في غفلةٍ من عيونِ

الحضور وأسماعهم
- وهل تحبّ المرايا؟
شريطة أن يتلألأ فيها الذي كنت أنشأته من تهدُّج أغنية
وهبوط ملاك على السطح، لا صوت للآخرين، ولا ضوء،
لا وجه، وحدي سمعتُ، ووحدي أرى
- أين أوصلتَ روحَك؟
- إنّ الدروب تؤدي إليّ ولستُ وما أنا روما ولكنني
خائفٌ من ظلالي؟
- متى تبدأ الحرب؟
- أولَدُ فيها ولا علمَ بالحرب للمتكلّمِ
- كم كسرةً في الرغيف؟
تشقّقت الأرضُ، رجلايَ ترتحلان إلى جهتين ووجهي يسيرُ
أماماً، فمن يتدبر خبزَ الخليقة؟
- كيف تحيلُ الكلامَ إلى لغة، كيف تُنشىء بين الضبابِ
وبين الجدار الحوار، وكيف بلا صاحب ينتهي الأمر؟
- أنتبه الآن أنك لم ترمني بحصاة النصيحة، أو تجمع
النورَ في صرَّة، أنت أخرجتَني من مراياي فامتدّت
الأرضُ حولي، أسئلةً تلو أسئلة، لاطمأنينةٌ بعد، لا
كسرةٌ من رغيف الحقيقة..
- ماذا أمامك؟
- إني أراك..
- أترضى بألا يكون الربيعُ امتدادكَ..
- في الحقل شوكٌ وزهرٌ، وفي الكأس ماء وما لا أرى،
أنتَ أدخلتني في حقيقة ألا حقيقة غيرَ الحقيقة، أنت لَغَمْتَ
فمي بالسؤال، وحين اكتفيتُ استعَرْتَ من الخوف لي عطشاً
لا يهادن، ملءُ يديّ الكلامُ وملءُ يديّ صاحبي صمتُهُ، كيف
وسّعْتَ أعيُننا لنرانا ونقبلَ أنّا اختلفنا ونبقى صديقين؟
هل أدْركُ الآنَ أنكَ أنشأتَ في دمنا وردة، روحها الاختلاف؟

٣- نملة القلب

نَهارك، أم أنتَ لا تُمْهِلُ … نَهاركَ، والنهْرُ مُسْتَعجلُ؟
وبكّرْتَ. بل أنتَ بِكر الغيابَ … فهل قَدَرٌ أنّكَ الأولُ؟
كأنّك مَنْ أنتَ، من جمرة … تولّدتَ، فاضطرب المنقلُ
- تأنّيتُ، فاستعجلتْني الحياةُ … ولم يَدْعُني، مِن غدٍ، منزلُ
غَدٌ لا يقرُّ على موضعٍ … كأنّ غداً عَربٌ رُحَّلُ
مشيتُ على جثثٍ في التراب … ويمشي عليّ الذي يُقْبلُ
وما العمرُ؟ قفزةُ سنجابةٍ … عن الغصن، والغصن لا يَحْمَلُ
فضائقة الأرض باب الخروج … ومتّسعُ الكون لي مدخلُ
سكتُّ فكانَ سكوتي صدى … لمن لم يقولوا وإن جَلْجلوا
رَمَيْتُ لهم حلُماً وانكفأتُ … أحلمه، وهو مستعملُ؟
ولكنّ رفَّ اليمام انحنى … على كتفي، بالشجى يَهْدلُ
تواطأتُ والحزنُ ضد الكلامِ … وإن شابني فرَحٌ مهمَلُ
لعلّي تعلمتُ من نملةٍ … تغطي الشتاء بما تأمُلُ
بنملةِ قلبي، أنا استضيءُ … وما دمتُ أُعطي فلا أسألُ.(٤)

غزّة- الثلاثاء- ١٤/ ١٠/ ١٩٩٧

* * *

إحالات

١- محمد عبد القادر الفقي «البيئة» مكتبة الأسرة. القاهرة 1999
٢- الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الإماراتية / ٧/ ٩/ ٢٠٠٠
٣- قراءة في سيرة ناقصة. ضمن الاتحاد الثقافي / ١٤/ ٩/ ٢٠٠٠ الإمارات العربية المتحدة
٤- مجلة «الكرمل» ع/ 60/ صيف 1999

آفـــاق المعرفـــة

كتـــاب الشـــهر

العقل في القرن العشرين

ميخائيل عيد

التفاعل روح الطبيعة الكونية، والميكانيك مظهرها الخشن أو أحد مظاهرها... والعقل يخلق وهم «المعرفة الشاملة» كي يحرض نفسه على البحث عنها بمزيد من الهمة.. ويكون عليه أن ينفي الأخطاء ليقترب من الحقائق..أما الوصول، فسوف يبقى حلماً بعيداً، ففي الأشياء طاقات خارقة وأسرار محيِّرة وهي تتحدى عقلنا وتغريه باطلاق فاعلياتها كاملة...

ويقول العلماء: نُمحّص ونجرب فالتجربة والتمحيص درب الوصول إلى المعرفة . .

لكن التجارب كلها تبقى ناقصة ومحدودة . . . فهل نصل إلى غير المحدود بالمحدود، والى الكامل بالناقص؟ ويكون علينا أن ندرس العالم منعكساً في مرايا أعيننا . . . ويكون علينا قبل ذلك أن نفحص بنى المرايا . . . وتتوالد المشكلات . . .

كتاب «العقل في القرن العشرين» بقلم برتران سـان -سـرنان . . . وقد ترجمته إلى العربية الدكتورة فاطمة الجيوشي . . وصدر عن وزارة الثقافة في دمشق حاملاً الرقم(٥٥) مـن سلسلة «دراسات فلسفية» التي تصدرها الوزارة . . . وهو يكاد يكون «قراءة لتاريخ الفلسفة انطلاقاً من نظريات العقل» وأزعم أن فيه من الشعر الجميل قدر ما فيه من العلم الرصين والدقيق .

يبدأ الكتاب بالكلام على «العقل بمرآة العواصم» فالعقل لا يشكل مجرد أداة «من أجل استكشاف العالم، بل معياراً للحكم على الأفكار والأفعال» وعقل الانسان «نظام وحرية في آن معاً . ولا يرجع إلى مجرد تراكم معارف» وقد تعلّم الانسان تبرير أفعاله «لا بمقاصده وإرادته بل بالنجاحات التي يحصل عليها أو الاخفاقات التي يُمنى بها» . (ص٣) وحدث فراغ «في قلب العقل» لأننا نفتقر إلى «نظام مشترك» فهل نرجع إلى التقليدي أم إلى «عمل أصيل للذهن يمنح لأفكاره وأفعاله وحدة وشرعية جديدتين»؟ والقرن العشرون «هو الأكثر هشاشة أو الأكثر تصدعاً من القرون السابقة» (ص٤) . . . وتأتي الاسئلة : «هل وقع العقل في المشروعات الكانطية؟ أم تراه أعار عبقريته للقمع والارهاب؟ هل صمت عندما كان عليه أن يتكلم؟» .

لقد عرفنا العصر القديم عبر «أثينا، وروما، والاسكندرية أو بيزنطة» فهل نعرف عصرنا عبر «فيينا، برلين، لندن، وباريس»؟ وهل ننسى مدناً أخرى؟ (ص٥) ثم يذكر عدداً من مدن الغرب والشرق . . (راجع ص٦) ثم يحدد المؤلف دربه «انتقاء علوم كبرى، تمييز الرجال الذي مثّلوها، تحديد تواريخ مميزة، عدم الخوف من مزيج الأقدم بالأحدث» ويعلن أن «العقل

الحديث ولدمع غوته وكانط . . » (ص٧) وقد ميز كانط النظم المترابطة عن الأكوام. «لقد جاء إلينا عقلٌ منقسم، منشطر». ونزعم أن «الإزدواجية تصدر عن التعارض بين مصالحنا وواجباتنا . . . » لكن كانط الأكثر تشاؤماً يرى «وكأنما يوجد لدى الانسان نوع من تذوّق الكذب» ومأساة العقل هي أن «مسالك الانسان إلى الأشياء جزئية، وأما الواحد فيشبه وهماً. وفي بحثه عنه يبدو العقل فريسة وهم». ومن هنا يضع نفسه «في خدمة قوة اقتصادية ما، أو سياسية أو عسكرية». ويتوقف «العقل عن بقائه هو ذاته عندما يعلن ولاءه. ولا شيء ألصق بطبيعة الانسان من الخضوع . . . » (ص٩).

لكن الثورة «البيولوجية» التي جعلت الانسان قادراً على «تغيير الكائنات الحية» قد غيرت «معنى الواقعية: ليس المقصود وحسب نظرية في المعرفة، بل نظرية في العمل، ويغدو من الضروري معرفة إلى أي حد تكون المعرفة هي أيضاً العمل». (ص١٠).

عنوان الفصل الأول هو «العقل الحديث: كانط وغوته» ويقدم عليه بالقول «ينقسم كتاب «نقد العقل الخالص» إلى قسمين متفاوتين جداً في الطول: «النظرية المتعالية للعناصر»، «والنظرية المتعالية للمنهج». ثم يقول عن كانط «ولعله، مع أفلاطون، الفيلسوفان الأكبر لكل العصور . . » (ص١١)

«حول مسألة القدرات الحدسية للذهن، يفصل كانط عن فلسفة الطبيعة الأولى . . . » وعند «غوته كما عند كانط تدرك ملكة الفهم العلاقات الصورية، القابلة للاختزال في قوانين تنشأ بين الظواهر». لكن العقل عند غوته «تفهم الصيرورة، معرفة الاستحالات» وعند كانط لايمكنه إلاّ تلّمس العمليات التي ينجزها الفن والطبيعة . . . » (ص١٢) ومن خلال العبقري «تضع الطبيعة قواعدها لا للعلم بل للفن» ويختلف الأمر عند غوته: «إن موضوع العقل ما هو صيرورة، وموضوع ملكة الفهم ما انتهت صيرورته، فالعقل لايهتم بالاتجاه، وملكة الفهم لاتهتم بالأصل . . . » (ص١٣) ولايلغي التخيل «الواقع بل يكثف تعاملنا معه». والطبيعة «تعمل بتنويعات منظمة على قضايا وأنماط قليلة العدد». (ص١٤) ولا يعتقد كانط

«بإمكان تحقق اندماج العقل والتخيل» وهو يرى أن «العقل مدفوع إلى خلط أوهامه بأفكاره التي يتصورها» (ص١٥) والذهن لا يفهم «العالم إلاّ بقدر ما يكون، أولاً، غارقاً فيه، يصغي اليه ويسمعه». (ص١٨) وبوسع العقل «النفاذ إلى السيرورات الفيزيائية أو الكيميائية» ويلاحظ كانط «العقل لا يُدرك إلاّ ماينتجه بنفسه وفقاً لمشروعه» (ص١٩) وقوانين الفيزياء يتم «اكتشافها لااختراعها». (ص٢٠) وليس بوسع العقل أن يصنف بقوانين «عمليات الحياة». يقول كانط إن «العقل الذي يضطلع بدقة بفرض النظام على كل النزعات الأخرى مازال هو نفسه بحاجة إلى نظام، وقد يبدو هذا غريباً بلا ريب» (ص٢١) وثمة «تخيلات تحل فيها كل المفاهيم، والكلمات محل الأشياء» وتكون «غواية الازدواجية وخطر الخطأ كبيرين جداً» (ص٢٢) ولايمكن «للانسان أن يعمل دون أن يفرز في الوقت ذاته أوهاماً هي من جوهر قدرته على الحياة» (ص٢٣) والتذكر والنسيان «هما قوتان حقيقيتان وباشارات متعاكسة» (ص٢٤).

لقد رفض القول إن «العقل والواقع مصنوعان من نسيج واحد أكان يعتبر هذا النسيج مادياً أو روحياً» لكنه يرى أن «التوافق بين الذهن والواقع أمر ممكن..» (ص٣٠) وقد أكد «أن قوانين الفيزياء جائزة، بمعنى أنه لا يمكن تعلم صورها الدقيقة الا من التجربة.» (ص٣١) وهو لا يظهر جازماً «إلا حيث تسود ميكانيكانيوتن...» فالشاعر «يجهل ما يحدث في داخله كما يجهل ما يجري في الطبيعة أو الكائنات التي يمجد قدراتها. في الفن كما في الطبيعة يوجد شيء ما يمتنع إيصاله للآخر.» (ص٣٢) وأسلوب عمل «الكائنات الحية» يبقى «مجهولاً لدينا.» (ص٣٣) وحيث «يوجد إشراق يوجد أيضاً عملية صنع، غير أن الانسان لا يعرف لا الصيغ المكونة ولا الأسس النهائية لما هو موجود». (ص٣٤) والنظرية «التجريبية هي أكثر من مجرد نظرية في المعرفة، إنها موقف روحي، فلسفة كاملة..» (ص٣٦)

والقوانين الأخلاقية «ذات وجه مزدوج! فهي أوامر وتنطوي على وعود». ويرى كانط «أننا غائصون كلياً في ملكوت الطبيعة، المسكن الوحيد الممنوح لنا...» (ص٣٧) وكل «واقع يحدث في النفس صدى

يوقظ ملكة الفهم» وملكة الفهم هي «أولاً القدرة على التخيل، أي القدرة على الإدراك وإعطاء الأسماء، وقد ارتقت إلىّ الوحدة». والتخيل يعين الذهن على «تمييز صلات سرية بين الأشياء» وملكة التخيل «تقترن بالارتباطات الكونية فالكل «هو نظام مترابط وليس مجرد كومة». (ص٣٩) وهو يرى أن الفيلسوف ليس «فنان العقل، ولكنه المسرّع للعقل البشري» ويشكل «التخيل والعقل لدى كانط زوجاً...» (ص٤٠) وتبقى «انتاجات الطبيعة كما انتاجات العبقري مغلفة بالظلال». والقضية ترتبط «بعالم يُرى بعين الانسان» والبدن يشارك «التوقيع على أفكارنا الحقيقية «وتتبخر الأفكار «إن لم توثّق بالتجربة، ولم تدعم بالاحساس» (ص٤١ -٤٢) «إن عدمية القرن العشرين والفاعلية الصانعة تصدران عن أصل واحد» وإذا كنا لا «نحتمل الاقرار بحدودنا فلنغص في ما لا حدود له.» (ص٤٣) لقد أدرك «كانط الحدود المعقدة والكاملة لآمال الانسان وقدراته». إنه «عقل رائع ومفاجئ، غير أن كانط، كما ملاك ريلكه «مخيف» لأن المصير، عنده، كما عند الشاعر، لايقوم إلا على شيء واحد: الوجود أمام، أمام وحسب». (ص٤٤).

عنوان الفصل الثاني هو «تحريك المقولات وتنويعها في القرن العشرين» فمقولات القدماء كانت «تشير إلى النقاط حيث يتلاقى منطق العقل مع بنية الأشياء، فلم تكن قوالب مجردة وتعسفية، بل أشكالاً تتناسب في آن معاً الذهن والعالم» وكانت تنتمي «إلى المنطق وعلم الوجود معاً» أي كانت «تؤكد القرابة الوثيقة بين العقل والطبيعة...» ومع تقدم العصر بدأ التقارب «بين الذهن والطبيعة يتراخى، أو أكثر من ذلك ينتهي» (ص٤٥) وصار تقدم العلم «يزيد من سيطرة الانسان على الطبيعة بفضل دقة توقعاته، ويرخي صلات الانسان بالطبيعة بسبب تجريداته» (ص٤٧) ويبقى بين «نتاجات العقل ونظام الأشياء فاصل (ص٤٩) وقد تخيل كورنو «النظرية الأولى للثورات العلمية، وأدرك الدور الذي ستدعى المصادفة لأدائه في العلوم» (ص٥٠) والثورة في نظره «تعني تغير المفتاح في تفسير الطبيعة» «إن أسس التفكير النظري والتجربة تتغير معاً.» (ص٥١) وفي التاريخ يمكن أن تكون للتاريخ «نظرات فلسفية، لا معرفة علمية.» (ص٥٢) وينبغي «عدم

خلط النظام العقلاني بالنظام المنطقي. . . فالنظام العقلاني يخص الأشياء المنظور اليها بذاتها أما النظام المنطقي فيخص بناء القضايا، والأشكال ونظام اللغة وهي بالنسبة لنا أداة الفكر، ووسيلة تجلّيه.» (ص٥٣).

يرى ديلتي أن وظيفة الذهن الأساسية «في الأدب، في اللاهوت وفي الفلسفة» لا تكون «بشرح العالم بوساطة قوانين، بل بفهم الرسائل الخفية التي تشكلها أفعال الرجال وأعمالهم.» (ص٥٦) والتخيل «يخضع لقوانين مستترة ولكنها شاملة.» والأفراد العظماء «يسهمون في انتاج الجوهر الروحي لعصرهم كما أنهم يعكسونه..» ومنهج علوم الروح «منهج تفسيري...» (ص٥٧) وقد تمثلت «عبقرية ديلتي في تطبيق آمال غوته في فلسفة الطبيعة على علوم الروح...» وعلوم الروح «ما كان لها أن تتكون لولا وجود «فناني العقل العظام...» (ص٥٨) وتجزئة المقولات «تعتم» الرؤية، وتحجبها بالظل...» وتكون الموجودات أحياناً مثل رسائل «مغلقة لا يتمكن متلقيها من فضها.» (ص٦٠)

عنوان الفصل الثالث هو «الأدوات الجديدة للعقل في العلوم في مطلع القرن» ويبدأ المؤلف بمقدمة حول «تبدل المنطق» فقد تحول المنطق «إلى امبراطورية صارمة». وفيه «تتعامل ملكة الفهم» مع ذاتها ومع «صورتها» (ص٦١) وهو علم «يسبق كل العلوم، ويتضمن الأفكار والمبادئ» التي تشكل أساسها.. (ص٦٢) ومن المنطق «الصوري التقليدي إلى المنطق الرياضي، تغير المنظور بشكل هائل، وإن بقيت مقتضيات الدقة هي نفسها.» (ص٦٣) ومع الكتابة الرمزية امتد مجال الدقة الرياضية «إلى مناطق كانت قد تُركت للغموض الفلسفي.» ثم تقدم «الديالكتيك بوصفه علماً يخلع عن العرش المنطق الرياضي ويجرده من القيمة» (ص٦٥) ثم صار «سلطة ممتدة، قسرية، خبيثة، قادرة على الاستعمال الأفضل والأسوأ.» (ص٦٦)

وتبقى اللوحة ناقصة ونشدد «على سمتين أساسيتين للفيزياء في القرن العشرين: إنها تضمن سيطرتها على المادة وعلى العالم بوساطة التقنية، وتجد نفسها على ارتباط وثيق بالاقتصاد والحرب.» (ص٧٠) ويكون «على العقل أن يتصرف بوصفه قوة انتقاء.» (ص٧٢) وتقوم مهمة «التخييل

في زيادة قوة الرؤية ودقتها . . . » (ص٧٣) ويرى دوهم أن «خيال المهندسين يقترب من خيال الفنانين، والقواد العسكريين ورجال السياسة . » (ص٧٤) وهو يميز بين «نظام منطقي ونظام عقلاني . » (ص٧٧) ويرى ماخ : «لولا اتصاف الظواهر الطبيعية بالثبات لامتنع بناء التقنيات والعلم» وقد سبق «التصنيف الغريزي للتجارب تصنيفها العلمي . » (ص٨١)والسمة الواضحة «لدى كبار الباحثين هي بالضبط اتحاد غريزة بالغة القوة، وقدرة كبيرة جداً على التجريد . » (ص٨٢) ويسعى ملاحظ الطبيعة «إلى المطابقة بين النموذج الفكري وبين الواقع . » ولا يصل الانسان إلى الحقيقة إلا «بعزوفه عن سرابات «الأنا»» (ص٨٤) وبناء «نظرية يكون بناء تصوّر عن العالم . » والنظرية هي «أداة بحث . » (ص٨٦) وكانت لدى بولتزمان غريزة لا تخلط «بين الفرضيات والوقائع . » (ص٨٨) وكان «يميز وجود صلة عميقة بين حساب الاحتمالات والانتروبيا . » (ص٨٩) وقد أدرك «أن فيزياء القرن العشرين ستُبنى على أسس جديدة، ولكنه لم يشهد ظهورها . » (ص٩١).

كانت قضية العلم في نظر ماكس بلانك «الانتقال من النسبي إلى المطلق» (ص٩٢) ولكل قياس وضع مزدوج! ««تقني، عملي، خبري من جهة، نظري، تصوري، رمزي من جهة أخرى . » (ص٩٣) وتتفرد الأدوات بانتمائها إلى العالمين : «النسبي والمطلق، وتيسر الانتقال من أحدهما إلى الآخر . » (ص٩٤).

وكان انشتاين يرى أن «المفاهيم الاساسية للفيزياء» لا تشتق «من التجربة . إنها ابداعات حرة للذهن» وقد ميز في الفيزياء بين «نوعين من النظريات : النظريات التي تكون بحاجة لتأييد خارجي، لضمان صدقها» وتلك التي تتمتع «بصدق خبري . » (ص٩٦) وقد أصبح القرن العشرون «مسرح صراع بين اسطورتين للعقل : أسطورة الحتمية، وأسطورة المصادفة . » (ص٩٨) وقد حدثت «تبدلات كبرى في الفيزياء» غيرت «تصورنا عن العالم . . . » وكان الارث يسهم في التجديد «والاكتشاف يكتسب القوة من ذكريات واستعارات . . » (ص١٠٠) وزمن العلم «ليس زمن التاريخ السياسي» (١٠١).

عنوان الفصل الرابع هو «أدوات العقل في الأدب والعلوم الاجتماعية» فالأدب والعلوم الاجتماعية تلعب «دوراً أساسياً في نسيج القرن العشرين.» وتنبثق «مشكلة «الوصل» بين نماذج تناول الواقع الاجتماعي.» (ص١٠٣) ويتبارى «العلم والأدب في وصف المصير الانساني وتفسيره.» ومن أجل «بلوغ الموضوعية، لن تُقهر الذاتية بل تتحمل مسؤولياتها.» (ص١٠٤) وقد «وضع زيمل لنفسه مهمة فهم العالم الجديد...» وقد قبل بمسلمة «أن الفنانين هم الأوائل الذين يطؤون الأراضي العذراء.» (ص١٠٦) والمعاني يمكن «أن تتغير من عصر إلى عصر.» (ص١٠٨) وكان زيمل يمتلك موهبة الانتباه «للتفاصيل.» (ص١١٠) إن الفن «يسلط الضوء على العنصر الكلي» «وعندما يكون الفن عظيماً على عنصر قدسي» (ص١١١) وكان زيمل يعتقد أن «العقل هو، معاً، أداة معرفة ونظام غايات بشكل لاينفصل».

وقد اكتشف فرويد «أن تفسير الأحلام هو الدرب الملكي لمعرفة اللاشعور في حياة النفس.» «وصار معه «المنهج التفسيري» أكثر دقة «وأكثر تعقيداً، أداة لاستكشاف النفس.» (ص١١٣) وقد «لاحظ فرويد قرابة أوثق، أيضاً، بين عمله وعمل الفنانين.» (ص١١٤).

«يضم الأدب الانكليزي كل ما ينسبه الألمان لعلوم الروح..» هنا يصير التخيل أداة استكشاف. فهو يمزج معاً عمل العين وعمل الذاكرة في حماية الأم –اللغة» إن التخيل «قوة احتفال واتحاد.» (ص١١٦) يقول بلونزل «علينا نقل مركز الفلسفة إلى الفعل، فهناك أيضاً يوجد مراكز الحياة..» ويرى كوثراد أن الحلم «يدخل في تكوين البشر.» (ص١١٩) ولاشيء «يحدث وفق ضرورة صارمة» (ص١٢٠) وصنع الوهم هو «الوجه الثاني للكة الاحساس والتخيل الضرورية، التي تضمن للفرد استيعاب الوجه الموضوعي والمحسوس للفعل.» (ص١٢١) ويخضع الوجود «للنوعين من التأثيرات، تأثير القوى وتأثير الاشارات» والاشارات «لاتُقدَّر حق قدرها» أحياناً. (ص١٢٢) والرسائل «تشكل جزءاً من القوى» والتبادل بين «القوى والاشارات يكون أحد مكونات العمل. ويشع الأفراد بالطاقة ويبثون رسائل.» (ص١٢٣) «وعلى الرغم من أن لاشيء يختفي يبقى كل شيء

لغزياً أو معلقاً، ذلك لأن الانسان والكون مصنوعان من المادة ذاتها» ومصير العقل «مرتبط، أكثر مما نظن، بالشعر وبالرواية. . . » (ص١٢٤).

عنوان الفصل الخامس هو «فكرة البنية وحالات البنيوية» يبدأ المؤلف مقدمة الفصل بالقول: «يوجد فاصل من ألفي عام ونيّف بين كلمه «بنيوية» التي ظهرت في عشرينيات هذا القرن وكلمة «بنية التي ترجع إلى العصور القديمة. . . » البنية هي «خاصة من خصائص الأشياء، بينما البنيوية هي تصور يبتغي تفسير أصل، وشكل وتنوّع البنى التي نجدها في الطبيعة أو المجتمع. » (ص١٢٥) وكلمة «بنية» في اللاتينية «تنطبق أولاً على فن البنّاء والمهندس المعماري، ولكنها تنسحب بالتشابه إلى فن عالم قواعد اللغة والخطيب، المهتم بنظام الكلمات «وبنائها». ستتذكر الألسنية وعلم التفسير هذه الدلالة بعد ألفي عام. » (ص١٢٧).

يُعنى بكلمة «بنية» عضوٍ ما التشكيل المكاني للأجزاء التي تكونه، ويُعنى بكلمة «وظيفة» الدور الذي يضطلع هذا العضو باداته» والوظيفة «تؤثر على البنية» وقد «رفض داروين هذه الآلية» فهو يرى «في تبدلية الأفراد معطى أولياً. » (ص١٣٢) وقد تؤدي الوظيفة أعضاء مختلفة البنى «كذلك مع بنية موحدة، يؤدي الأحياء نشاطات متباينة جداً. » (ص١٣٣)

«إن ما يصعب حسمه، بالفعل، هو معرفة ما اذا كنا ننفذ إلى العمارة والحركة الحقيقيتين لما هو موجود، أم أننا نسقط على العالم تصوراتنا وتنسيقاتنا. . . » (ص١٣٤) إن مفهوم البنية «يسمح بدراسة كيف يتصور الذهن نظام معارفه ويربطه بتنظيم الأشياء بالاستناد إلى أمثلة» (ص١٣٥) والفلسفة الناجمة «عن تفكر دقيق حول بنيات الأشياء والنظريات الرياضية تشف عن مشاغل عديدة» (ص١٣٧) وفكرة البنية في الرياضيات ترتبط «بعملية وضع مبادئ للنظريات. . » ثم هدمت «بعض الاكتشافات المدوية» هذا الأمل. (ص١٣٩) «إن حقيقة الأشياء الرياضية تفيض عما تقوله لنا عنها الأدوات النظرية -أو اللغات الصورية في زمن ما. » وفي الأعوام ١٩٤٠ - ١٩٥٠ أساءت البنيوية فهم هذه الأفكار «فرفعت اللغة فوق الأشياء، وتصورت مشروع تسجيل -بله امتصاص- كل الواقع في اللغة»

ولم تعرف أن «هذا السراب يبعدها عن العلم.» وقد أساء البنيويون حتى يومنا هذا «فهم حدود التعبير الصوري.» «وبهذا كانوا دعاة علم زائف.» (ص١٤٠)

يقول ارثو أدينجتون: «الفيزياء هي معرفة بنيوية خالصة، بشكل أننا لا نعرف الا بنية الكون الذي تصفه» ويوضح مفهوم البنية مسألة «ميتافيزيقية جوهرية: صعوبة فهم كيف يمكن تصوّر معرفة شيء ما لا يكون جزءاً من ذهننا.» (ص١٤٢) وعندما «نستخدم قوانين لوصف ظواهر وتوقعها، ينبغي وضع شروط أولية. عندما ننطلق من قوانين بنية ونطبقها على الكون بوصفه كلاً، يعني تحديد وضع أولي لبناء نظرية في نشأة الكون.» (١٤٣) وفي العلوم الاجتماعية «يكون ارجاع معرفة الحياة الاجتماعية بمجملها إلى نظام وحيد من المقولات وهماً، مثل هذا المشروع سيكون تعسفياً لا محالة، والبنيات المستخلصة بهذا الشكل تكون ذاتية بشكل عضال.» (ص١٤٤).

«في نظر المثاليين، تبقى البنيات اختراعات انسانية، في نظر الواقعيين، العلم «شبّه مع ما يقارب اليقين أن الطبيعة منظمة، ولكن أيضاً، مع الأمل بأنها ستبيّن أنها معقولة» (ص١٤٦) يرى كلود ليفي ستروس أن «الفكر وجود طبيعي، تولده الطبيعة في الحالة الوحشية، كما تولد تحت أشكال لا تُحصى ومتنوعة، كائنات معدنية، مثل البلورات، أو الحيوانات، أو النباتات، وحياة الذهن تتجلى، إذن، في قوانين خاصة بها...» (ص١٤٧) «عبر المكان والزمان الفكر البشري واحد...» و«هذا الفكر يعمل بدروب ملكة الفهم لا بدروب الانفعال، بوساطة تمييزات وتعارضات، لا بوساطة غموض ومشاركة.» (ص١٤٨).

ويرى ستروس «أن عالم البشر، مثل العالم الفيزيائي، مصنوع من اشارات ورسائل، أكثر مما هو مصنوع من مشاريع وأعمال.» وهو يرى أن علم الاجتماع هو «الالسنية بوصفها دراسة صوتية.» (ص١٥٠-١٥١) وهو يؤكد «جازماً أن عالم الفيزياء وعالم الاتنولوجيا ينتميان إلى المقاربة النظرية نفسها، ومن «النموذج» العلمي نفسه. وهكذا ينتقل من العلم

إلى الميتافيزيقا، وفقاً لمسيرة لا يقبل بها أوغوست كونت.» (ص١٥٣) ويعتقد ستروس أن «اليوم الذي نتوصل فيه إلى فهم الحياة بوصفها تابعاً للمادة العاطلة، سيكون من أجل اكتشاف أنها (المادة) تمتلك خصائص مختلفة عن تلك التي كانت تنسب اليها في الماضي.» (ص١٥٤) «ومهما يكن من أمر، فإن اختيار الصوتيات بوصفها العلم المرجعي للاتنولوجيا لم يكن اختياراً موفقاً. واللجوء إلى الرياضيات التأليفية لم يكن أكثر توفيقاً...» (ص١٥٥) «إن ضعف التخيلات البنيوية نجم، بنصيب كبير، من العجز عن تجاوز الصور أو التشابهات الزائفة لترقى الى مستوى المفهوم.» (ص١٥٦).

انطلاقا من (١٩٦٠) يشرع ليڤي ستروس «ببناء دورة الاسطوريات» ويتعاكس موقفه مع موقف سارتر «يختار أحدهما التعدد والانتشار، والثاني الوحدة والتركيز» (ص١٥٩) ومع ذلك «ينتمي كلاهما إلى حقبة وثقافة في طريق التلاشي أو التغيير» وقد أسهما «في هذا التغيير.» (ص١٦٠) «وصارت اللعبة: يتخلى الواحد عن مكانه للمتعدد، وتتخلى الأشياء للكلمات، والمعنى للدوامات، والأخلاق للمصادفة.»، «الحرية لم تُكبح بل انحلت، ولا يعني هذا أن الخيال فقد السيادة على المسرح الفلسفي، ولكن ببساطة تبددت الأخلاق بتبدد الحرية» (ص١٦١) «القد وضعت الحرب أوزارها، وصارت الأزمنة سهلة: نُسيت الحرية.»

«وبعلمنة الوثنية حدث التلفيق، وسعى كلاهما إلى حل المسألة ذهنياً وعملياً...» «انتظمت التقنيات في نظم -أو فنون- من أجل إنجاز تدخلات محدودة على أشياء يمكن أيضاً تغييرها بتقنيات أخرى...» «إن الالتئام بين النظريات والنماذج هو اذن تلفيق أكثر ما هو موضوع تفكير عقلاني.» (ص١٦٢) وشهدنا «صراعاً على السلطة بين علوم مسيطرة..» صراع «بين قوى شيطانية لا قدسية فيه. إن ما أرادت البنيوية ترسيخه هو سلام جديد بين الالهة، وحدة أصيلة بين علوم مجزأة. لقد كان هذا حلماً عظيماً، أملاً جميلاً، ولعله مجرد وهم..» (ص١٦٣) وكان «عليهم التوجه نحو العقل من جانب، ومن الجانب الآخر، نحو تفرد الانتاجات الانسانية»

«وتحولت الصلاة من صلاة للروح إلى صلاة للعقل.» (ص١٦٦)

وتجد العلوم الانسانية «وطنها الحقيقي، الطبيعة.» ويكتشف الانسان أنه غدا «قناعاً بلا وجه» ويلاحظ فوكو أن «التحليل النفسي والاتنولوجيا ليسا علوماً إنسانية الى جانب علوم أخرى، بل يعبران المجال برمته، وتحركاته على كل مساحته، وأنهما ينشران مفاهيمهما في كل مكان...» وان النموذج المشترك لكل العلوم «هو الألسنية اللغوية...» (س١٦٩)

«إن فكرة البنية، بالفعل، لا يمكن فصلها عن البحث عن وحدة المعقول والبحث عن الواقع. في العلم أدت الى إرادة البحث عن مبادئ موحدة تحت تعدد القوانين الوظيفية.» (ص١٧٣) إن «التساؤل الفلسفي الناجم عن فكرة البنية واضح» وقد صاغه كورنو: «بيان حصة بنية العالم الخارجي وحصة تشكيل المرآة التي تعكسه.» ومهمة «التخيل لا تقوم على انتاج أوهام أو على تحريف الواقع، إنه يسبق العقل وينوره.» (ص١٧٤)

إن انهدام المشروع البنيوي في الستينيات «لايبدل في شيء من عظمة المغامرة العقلية التي تبنى العقل العديد من عناصرها...» (ص١٧٥)

عنوان الفصل السادس هو: «تشكيلات العقل حوالي منتصف القرن العشرين.» وهنا يواجهنا السؤال: «هل لا يزال بالإمكان استعمال كلمة «عقل» لوصف فاعليات الذهن وقدرته؟» فالعقل هو «فن التنظيم» وملكة تصديق «أو عدم تصديق العمليات التي تخصه دون الاعتماد على سلطة خارجية.» وقد صارت فكرة العقل «تقريباً خارج الاستعمال...» (ص١٧٧) وكان واضحاً لنا «أن اختيار العقل يعني أيضاً اختيار الحرية...» (ص١٧٨) والعقل «لا يكتفي بمجرد عدم التناقض بين تصوراته، فهو يبتغي وضع قدمه على أرض الواقع الصلبة، وهو يأمل بوحدته ويتنبأ بها. ولا يكفيه امتلاك مفهوم «منطقي» للفلسفة، فهو بحاجة الى حيازة مفهوم «كوني» عنها، يربط بين البرامج النظرية للمعرفة، وغايات العمل وتكوين العالم.» (ص١٧٩)

«لقد تخلى القرن العشرون، بشكل ما، عن العقل بوصفه تشريعاً داخلياً للذات. ووضع مكان المراقبة الداخلية للأفكار -بالحتمية والبداهة،

مراقبة خارجية يقوم بها العمل والنجاح . . . » (ص١٨١) ولم يعد بمقدورنا «أن نعرف سوى العلاقات بين الآثار ، دون النفاذ أبداً إلى سر حدوثها . » (ص١٨٤) وعلى العقل «أن يقبل ويحتفي بالتعسف الخلاق للطبيعة ، والقبول بالاقامة في هذا العالم الذي يكون «جديداً كل يوم» كما كان عالم هيرا قليطس . » ويبقى صحيحاً القول «إن فساد الأفضل هو الأمر الأسوأ . » (ص١٨٥) ولم «يعد العقل بنزاهته وطرائقه ونزعته إلى احترام الشرعية مناسباً» ثمة اليوم «رجال مهمات سرية مكان رجال الفكر» وتحل التقنيات الانتهازية محل «النظريات . . . » (ص١٨٧) .

ويلاحظ كاڤايس : «إنه من غير المعقول تصوّر عالم يُفلت من المنطق بقدر ما هو غير معقول أن نريد الكلام عن شيء غير العالم ، حتى وإن كان ذلك على حدوده . ينجم عن هذا تغير حاسم في موضوع الفلسفة . » (ص١٩٤) ثم أوضح «ليست فلسفة الوجدان هي التي يمكن أن تقدم نظرية للعلم بل فلسفة المفهوم . » (ص١٩٦)

ومع عودة «الوضعية المنطقية . » لم يبق «للحكم على الصفة العلمية «للمجموعات النظرية» إلا محكين : الفاعلية العملية ، التماسك المنطقي . . . » وأما الشعراء فشأنهم أجلّ . . . يقول الناقد شارل دو بوس : «إن الشعر العظيم هو التعبير عما تستجيب له النفس الانسانية ، عما تنتسب إليه . فتاريخ روح الشعراء العظام هو التاريخ الأهم للنفس الانسانية . «هناك حيث لا يمكن للفيلسوف استكشاف الواقع عبر المفاهيم ، يقترب منه الشاعر بالعواطف وبالصور . . . » (١٩٧) وفي الأزمنة المظلمة يضطلع الشعراء بمهمة إنقاذ الشرف . »

أما هوسرل فيمثل «الصورة القصوى للعقل الكلاسيكي» وهو يأخذ على كانط «أنه لم ينفذ البتة إلى العمق المرعب للتأمل الأساسي لدى ديكارت . » وهو يرى في ديكارت «العبقري المؤسس الأصلي للفلسفة الحديثة . » والعقلانية الحقيقية في نظره هي «بحث عن «الأسس» ومصدر لاتخاذ «القرارات النهائية»» إنها «نظرية وعمل . » (ص١٩٨) وتبقى أطر المعرفة غير «ثابتة» . (ص١٩٩) وإن «اوروبا ، كما يراها هوسرل -موقع

روحي مهدَّد» والعقل «الذي تتعزز قدرته على الأشياء- مهدد بالدمار» أيضاً لأنه «يقبل بارجاعه إلى حالة أداتية.» ويظل عنف البشر المخيف «العقبة الكبرى في الحضارة» (ص٢٠١) فالانسان يحمل «قدراً وافراً من العدوانية.» فهل «استقال العقل؟ أم أن العقل خلافاً لذلك، كشف عن وجهه الحقيقي، الانتهازي، الماكر، والنفعي؟» (ص٢٠٢)

عنوان الفصل السابع «العقل في القرن العشرين» يبدأ باسئلة حول العمل في القرن العشرين منها: «ما هو موضوع العمل؟ هل يبتغي تصحيح، أم تحسين وضع البشر، أم أنه يخلق نماذج جديدة من البشر؟» إن العمل لا يغير «حال الأشياء الخارجية» وحسب بل يغير «هذا الذي يقوم به.» (ص٢٠٥) وكان برغسون يقول «لا يوجد أشياء، لا يوجد إلا أعمال.» وقد ظل العمل ثابتاً «من العصر القديم حتى العصر الكلاسيكي.» «فالبشر متشابهون إلى حد بعيد، في كل العصور وفي كل الأمكنة...» (ص٢٠٦) وكل انسان «يحمل في ذاته صورة الشرط الانساني بكامله» (٢٠٧) وعندما «يتكلم شيشرون عن علم للعمل فإنه يتكلم عن «علم انتهاز الفرص المناسبة للعمل.» (٢٠٨) وقد رأى الإغريق والعبريون «أن نجاح العمل يقوم على السر...» (ص٢١١) وعلى الفاعل أن «يكون قادراً على الاحتفاظ بهدوئه في قلب الخطر...» ومن غير «حزم النفس» سيتأثر «عمل العقل..» (ص٢١٢) وتكون معرفة الطبيعة «ناقصة إذا لم ينجم عنها أي عمل حقيقي» «يخص مجتمع النوع البشري، وبالتالي يجب وضعه فوق المعرفة» ويرى شيشرون وجوب «وضع العمل في مركز الحياة» ونظرية العمل «هي علم الحالات الخاصة.» (ص٢١٣) وتصرف رجل خبرة «بإهمال العدل عمل بلا قيمة.» (ص٢١٤).

يقول سارتر: «لقد أدرك ديكارت إدراكاً كاملاً أن مفهوم الحرية ينطوي على ضرورة استقلال مطلق، وأن الفعل الحر هو انتاج مطلق» ومذ يستعيد الانسان «الحرية الخلاقة» «يصير العمل أولاً، إنه أساس الحقيقة والوجود.» (ص٢١٧)

«لئن كان الفرد، حقاً، مصدر أفعاله فإن التتابع الذي يقود من النوايا إلى التنفيذ يبقى معتماً -كما يعتقد ذلك كل من مالبرانش وهيوم-»

(ص٢١٨) ويقول بوسوه: «إذا لم ننظر إلى المصادفات الخاصة، يبدو أن الحظ وحده يقرر إنشاء الامبراطوريات أو دمارها، إجمالاً يحدث تقريباً، كما هو الحال في اللعب، حيث على المدى الطويل، يتغلب من هو أكثر مهارة.» (ص٢١٩) «إن فهم الأحداث السياسية يعني النفاذ إلى مقاصد الفاعلين، وقياس العقبات التي جابهوها، والارادات التي تحدّوها، والكمائن التي أزاحوها أو جهلوها، وإدراك كيف يترابط الطارئ والمقرر ويختلطان في المجرى الموجّه للأشياء.» فحتى لو كان سلوك الفاعلين عقلانياً «فإن مجموع أفعالهم المتشابكة لا يعطي نتيجة عقلانية» (ص ٢٢٠) وعلى المرء أن يتقن «علم زمانه الذي هو العلم الحقيقي للأعمال.» (ص٢٢١) وذروة العمل هي «التدمير الكامل للفاعل، ومن ثم إعادة تكوينه كلياً.»

واذا كان «لا شيء يتكرر، في الحد الأقصى» فكيف «يمكن أن يوجد علم للعمل؟» (ص٢٢٤) . . . إن روسو يعلن «أن علم الحكم ليس إلا علم تأليفات، واجتهادات، واستثناءات، حسب الزمان والمكان والظروف» ويقوم «الاعلام بدور حاسم في العمل . . .» (ص٢٢٥) وثمة ما يشبه المفارقة وهو «أن المجتمعات الحديثة، التي تعتمد اعتماداً كبيراً على العلوم، وعلى التقنية، وعلى أدوات العقل، تكون أيضاً مجتمعات المجازفة وعدم اليقين.» (ص٢٢٧) ويكون على العامل أن يتبع أعمال الاخرين كلهم (راجع ص٢٣٠) ولا يلتزم العاملون «بقاعدة أخلاقية للسلوك، ولكنهم يفهمون مصالحهم تماماً.» (ص٢٣١) والمسألة الحاسمة «هي معرفة استخلاص منفعة عامة انطلاقاً من تفضيلات الأفراد.» (ص٢٣٣) اما العمل السياسي فينتمي «بطبيعته إلى نظرية خيارات متعددة المحكات.» (ص٢٣٥)

نلحظ الفراغ «الانتروبولوجي» في «نهاية القرن العشرين.» إن العقل «البارع في تخيل أدوات فعالة يظهر أكثر تردداً وأقل إلهاماً ليعلمنا عن طبيعة الناشطين كما لو أن نجاحات الانتروبولوجيا الخبرية، أو البحوث في علم نفس الأعمال لم تتوصف إلى التغلب على الجزء المظلم الذي يؤثر في رؤيتنا لأنفسنا.» (ص٢٣٦) إن «بني البشر يشتركون في الخلق المستمر للعالم» لكن

الوضع الجديد يحملنا «مسؤولية بالغة الثقل، إذ اننا لانسيطر على النتائج البعيدة لنشاطنا.» (ص٢٣٧) ويتم الفصل «بين الجوانب التقنية والجوانب الأخلاقية للعمل...» ويبين تعقيد العمل أنه «لا يكتسي شكل علم، وأنه فن يصعب تعلمه...» (ص٢٣٨)

عنوان الفصل الثامن هو «العقل في نهاية القرن العشرين.» «رأى غوته أن الذهن قادر على الاقتران بالطبيعة، وباختلاطه الوثيق بها قادر على اكتشاف ثناياها وألغازها وحركتها.» وكان كانط «مقتنعاً بأن المعرفة إما أن تكون حسية أو لا تكون شيئاً» (ص٢٣٩) ومازال حلم غوته بعقل «يجد سعادته في انتشار الأشياء» من هواجسنا... (ص٢٤٠) وقد ظل العقل «من أرسطو أو أفلاطون حتى يومنا هذا هو ملكة الأشكال» والمقولات عند ارسطو هي «الماهية، الكم، الصفة، العلاقة، المكان، الزمان، الوضع، الامتلاك، الفعل والانفعال.» (٢٤١) ومهمتها «التفكير في الوجود» (ص٢٤٢) ودلالات الوجود «متعددة بتعدد المقولات» ويوجد «من جهة العقل القادر على أن يصير كل شيء، ومن جهة أخرى، العقل القادر على إحداث الأشياء كلها.» وللعقل وجهان: «وجه يتلقى والآخر فعّال وجوده لا يقبل الفصل.» وهنا يتلاشى «الفرق بين العقل والعالم.» (ص٢٤٤) والصورة «هي الجوهر المرئي لتلك الصلة بين كل انسان مع العالم.» «ليس الحجر هو الذي يوجد في النفس بل شكله.» (ص٢٤٥) والأشكال «المعقولة توجد في الأشكال المحسوسة...» ونحن «لا نفكر دون أن نتخيل.» والصور ترافق «الفكر بالضرورة.» (ص٢٤٦) وأرسطو «فوق كل شيء هو أبو الأخلاقيات.» (ص٢٤٩).

إن الخيار «بين المثالية والواقعية» «يغطي الرهانات السياسية الكبرى» وإذا كان «نظام الأشياء ينصاع لنظام الأفكار فإن فرض نظام اجتماعي على البشر يخترعه الذهن تطلّعٌ مشروع.» (ص٢٥٠) ومن هنا «ينبغي تصنيف المادية برمتها بين الاشكال الدنيا للحياة الدينية، بوصفها تنسب إلى المادة صنع الخير بشكل آلي.» (ص٢٥١). إن البشر يريدون «تنظيم الأرض والحفاظ على مستقبلها» وهم يعرفون «أن تقنياتهم وحتى أفكارهم مشحونة بقوة مدمرة.» (ص٢٥٢)

ان القرن العشرين يصيبنا بالحيرة «نحس به في آن معاً، متطرفاً ومتجاوزاً، منتصراً ومدحوراً، مندفعاً ومتعباً، جريئاً ومبعثراً، قانعاً ويائساً.» (ص٢٥٣) والمنطق «في انشغاله بالأشياء، يكتشف إلى جانب حريته ضرورة الأشياء أو النظريات التي يعالجها وواقعها.» وهو «يواجه مقاومة البراهين والأشياء» (ص٢٥٤) وتبقى معرفة العالم «لغزاً مرعباً..» والحقائق الرياضية والأشياء هي في نظر افلاطون «أفعال وليست أشياء.» ويرى هوسرل أن «من المؤسف أن يكون مجال الحقيقة أصعب منالاً من مجال الوهم.» (ص٢٥٥) أما المنطق فأصبح «عنصراً حاسماً لأخلاقيات العقل.» (ص٢٥٦)

لقد شهد القرن العشرون «نمو حلف بين العلم والتقنية يطلق عليه اسم التكنولوجيا..» وهي تتصف «بنوع من التعارض: فهي بالغة الدقة في وسائلها ونتائجها القريبة، وغامضة حول نتائجها المؤجلة والبعيدة. وعبقريتها توجد في أنها مندفعة وعمياء في آن معاً.» (ص٢٦٠) وخلال «بضع سنين تغيرت طبيعة العمل.» (ص٢٦١) وفي البلدان المتقدمة «لم تعد الصناعة تُوجد فرص عمل بل تقضي عليها» وتعمل التكنولوجيا اليوم «على التدخل المباشر في الكائنات الحية للتحكم بها وصوغها.» (ص٢٦٢) والعقل ذاته «مسؤول عن تواطئه مع الدمار والموت. لقد غدا العقل في القرن العشرين انتهازياً» وفقد استقلاله «صار مقدَّم خدمات..» (ص٢٦٣) ولم تعد التكنولوجيا مجرد انتاج: «إنها جزء من وجودنا، الذي تنفذ إليه، وتدعمه وتمده بالتغذية.» (ص٢٦٤) ولم تعد المادة «وحدها التي تعالج، وتنوّع، ويعاد تشكيلها صنعياً، بل منذ الآن البدن نفسه، وقريباً جداً يعاد تشكيل الخلف.» (ص٢٦٥) وينبغي «لنتحكم عما هو الانسان، أن لا نسائل العلوم وحدها بل أن نلاحظه في أعماله.» (ص٢٦٧) ومن الأرض «الهشة والمشوهة تنطلق حاجة إلى العدالة والاعتدال» ويُطلب «إلى العقل المتعدد الوجوه أن يُعيد تأليف وجهه ووحدته.» (ص٢٦٨)

عنوان الخاتمة هو «رهان العقل» وكان العقل قديماً «مقياس كل الأشياء» حسب قول أفلاطون.. ثم يصير العقل «تاريخياً ومتفرداً..»

وقد ارتبط «البحث عن معقولية العالم بالبحث عن خالقه» فالديني والعقلاني «يشكلان أبعاد الفسحة الروحية ذاتها.» (ص٢٦٩) والكلمة «هي حرية.» (ص٢٧٠) والتخيل «كما أوحى بذلك أوغوست كونت، هو المعلم الأعظم لبني البشر.» (ص٢٧١) فهو قادر على خداعنا بقدر قدرته على تنويرنا» ويكتشف العقل أن «بامكان المتناهي، ضمن شروط معينة، تمثيل اللامتناهي بشكل مطابق تقريباً.» غير أن «من الوهم أن نريد الوحدة اذا كان سير العلوم يذهب نحو التعدد.» (ص٢٧٢) إن وحدة العالم «ليست آلية ولا حتمية» إنها مُحتاجة إلى إرادة وممارسة. إن العقل في أيامنا يعرف أدواته أكثر ممايعرف «مصيره» وعليه أن «يتفرد في تنوع الثقافات دون أن يتخلى عن كلّيته.» (ص٢٧٤) «إن القرن العشرين مجّد ملكة الفهم وانتقص من شأن العقل...» وكل فكرة من أفكارنا «كل عمل من أعمالنا يحمل شهادة أمل، يحمل توقيعاً.» (ص٢٧٥) ومن مهمات العقل أن «يتحقق من قيمة الأفكار والمبادئ.» (ص٢٧٦) ولو أننا «نمتلك العظمة الصامتة للحيوان لكنا قادرين على أن نحيا بشكل مطلق انفعالات الزمن الراهن وتمزقه. لعرفنا الوحدة والانفصال، بينما لا نكون نحن أنفسنا بشكل كامل.» «نحن باختصار «نتائج» ومن جراء هذا «نكون أسباباً من الدرجة الثانية.» ولا نكون أبداً «أسبابا أولى» ولا نكون البتة كائنات «تبدأ» أي شيء.» «إن المادية هي، في آن معاً، نجمتنا القطبية و«ليلنا المظلم.»: لأنها تقتضي موقفاً أخلاقياً دقيقاً.» (ص٢٧٨) إن الكثير «من الأفكار التي تسكن فينا» أتت الينا «من الخارج.» إننا «مثل أعشاش الحمام.» (ص٢٧٩) ونحن نطلب من «الأفكار والطرائق» «الكشف عن أصولها..» وعلينا أن نرجع الى «مدينة للعقل» «لم يرسم أي مهندس معماري مخططاتها، وتكبر في حرية غير منظمة وهي مع ذلك تشهد على المعنى، والنظام والحرية.» (ص٢٨٠)

* * *